المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية



البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

الجزء الخامس

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
٢٣٧٥٤٥ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ١٩٨١ م



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجانب العسكري

في

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

للشيخ عبد اللطيف زايد
« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

ان الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ

فإن شخصية نبينا محمد (ﷺ) تقف وحيدة بين شخصيات العالم وعظماء التاريخ، فريدة في تاريخ البشرية كلها، فإن جميع المحامد والفضائل العليا وجدت فيه، وانتهت إليه، دون سواه من الناس، فهو (ﷺ) قمة شماء، من أي جهة جئت إليه وجدته عظيما، وصدق فيه قول الله تعالى: «وإنك لعلى خلق عظيم»[1].

وللنبي (ﷺ) ميزة ثانية، وهو أن سيرته المطهرة، وجميع تصرفاته وما صدر عنه، كله مسجل ومدون في كتب متعددة من كتب الحديث والسيرة، وهذه الكتب شاملة

---

(١) الآية (٤) القلم.

لكل ما جاء عنه، حتى شملت هذه المدونات الأمور الخاصة التي في البيت، ومع نسائه أمهات المؤمنين، وما عرف عن أحد قط حديثا أو قديما، تحدث عن نفسه بهذه الصراحة والوضوح.

والميزة الثالثة أن كل ما صدر عن الرسول (ﷺ) قد بحث ونوقش ووضع تحت منظار العقل والنقل، بطريقة فريدة في العالم، وهذا البحث وهذه المناقشة كانت من طبقات من الرجال لا عهد للعالم كله بأمثالهم، فقد امتازوا بالصدق، ودقة الضبط والنقل.

والميزة الرابعة أنه نتيجة لبحث ما ورد عن رسول الله (ﷺ) نشأت علوم ومعارف وأبحاث تكاد أن تبلغ الغاية وتصل إلى النهاية، تحت قبة السنة المطهرة والسيرة العطرة، وهذه العلوم خاصة بالمسلمين وحدهم دون سواهم.

وهناك أمر آخر يخص هذا البحث، وهو الجانب العسكري عند رسول الله (ﷺ) فالرسول يعتبر قائدا عسكريا ورائدا وخبيرا في كثير من الأعمال العسكرية، ابتكر أمورا في فنية القتال ومواجهة الأعداء، وبعض هذه الجوانب لم يأخذ بها العسكريون إلا في العصور الأخيرة.

هذا والله سبحانه أسأل أن ينفعنا بهذه السيرة العطرة.

فجزى الله رسولنا محمدا (ﷺ) خير ما يجزي نبيا عن أمته.

وبعد

فإن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم اختاره الله عز وجل واجتباه واصطفاه ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم ويبين لهم معالم الحق ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويصل بهم إلى السلام الكامل في الدنيا والآخرة..

ولقد أشار الله عز وجل إلى هذه الأمور في كثير من الآيات مبينا لها وموضحا ومحددا لها ومفصلا.. فمن أمثلة ذلك قول الله تعالى: (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)[١] وقوله: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)[٢] وقوله: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)[٣] وقوله: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا. وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا)[٤] والأمثلة على ذلك كثيرة والشواهد متعددة. هكذا كان محمد

---

(١) الآية ٥٢: الشورى.

(٢) الآية ٩: الصف

(٣) الآية (١) ابراهيم

(٤) الآيات ٤٥، ٤٦، ٤٧ الأحزاب

صلى الله عليه وسلم ولهذا ارسل وبعث وبهذا. كان رحمة للعالمين، قال تعالى:(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[1] وقال هو عن نفسه:(إنما أنا رحمة مهداة)، وهو سيد ولد آدم ولقد اصطفاه الله من سلسلة سادة كرام قال صلى الله عليه وسلم: إن الله اصطفاني من ولد اسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار)[2] وقال صلى الله عليه وسلم:(لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية).

ومع هذا الاصطفاء والتميز فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر فيه جميع صفات البشر التي خلق الله الناس عليها. لقد نشأ كما نشأ غيره من البشر، تربى في مكة ودرج على أرضها وأكل الطعام الذي يأكله أهلها، وجلس على ترابها وعاش في قريش كرجل منهم يتعامل معهم ويشاركهم أيامهم ويرعى أغنامهم ويتاجر في أموالهم، وتزوج من نسائهم وأنجب أولادا عاشوا معهم.

(١) الاية ١٠٧ الأنبياء (٢) الحديث رواه الترمذي. وفي مسلم بلفظ آخر.

ولقد أصر الرسول بعد الرسالة على أن يؤكد هذه البشرية تأكيدا كبيرا حتى لا يغالي فيه الناس كما حدث لبعض الأنبياء السابقين حينما تغالى فيهم قومهم ،ولعلنا نذكر ما حدث لعيسى عليه السلام حينما غالى فيه النصارى فجعلوه ابن الإله أو جعلوه أقنوما ضمن أقانيم ثلاثة هي الله كزعمهم؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال تعالى :(لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)[١]

ولقد أكد القرآن كذلك هذه البشرية وتحدث عنها بما لايدع مجالا للغلو والتطرف قال تعالى :(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي)[٢] وقال:(قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا)[٣].

يروي عدي بن حاتم أن رجلا خطب أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :بئس الخطيب أنت ، قل: ومن يعصي الله ورسوله[٤]، يريد بذلك أن مجرد جمعه مع الله عز وجل في ضمير واحد في قوله :(ومن يعصهما) قد يوهم مساواته لله سبحانه وتعالى ، ولما قال رجل

---

(١) من آية ٧٣ : المائدة.
(٢) آية ١١٠ : الكهف
(٣) من آية ٩٣ : الاسراء
(٤) رواه مسلم.

أمامه :إذا شاء الله وشئت يا رسول الله ، قال له : أتجعلني لله ندا؟ قل إذا شاء الله ثم شئت »..

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله.

قال ابن حجر: السبب الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام أن معاذا أخبره أنه رأى رجالا في اليمن يسجد بعضهم لبعض ثم قال: أفلا نسجد لك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تطروني) الحديث.

الرسول قدوة كاملة:

ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكد بشريته هنا وكذلك القرآن الكريم بينها وأكدها ، رغم ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بصفات ويتخلق بأخلاق حتى (كأنها) بلغت الإعجاز البشري.

فقد كان صلى الله عليه وسلم فريدا في أخلاقه بين الناس بل وحيدا في صفاته بين الأنبياء والرسل ، وما عرفت عنه الزلات والسقطات ولا ما عاب غيره من أمثاله ونظرائه.

محمد صلى الله عليه وسلم الخلق الكامل والمثل الكامل والأدب الكامل، وأنه خاتم الانبياء والمرسلين، عنده

اجتمعت المحامد ولديه التقت الفضائل، وعنه تؤخذ الأعمال والمواقف ،فهوالقدوة في الدنيا والأسوة للناس إلى أن تقوم الساعة «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »[1] ففي أي جهة من جهات حياته تجده شامخا ، وفي أي جانب من جوانب تصرفاته تجده عظيما ، وفي أي فعل أو عمل أو حركة تجده كبيرا عملاقا.

فلو حاولنا أن نضع مقارنة بينه وبين غيره من الأنبياء والمرسلين أو الزعماء والمصلحين في أي جانب من جوانب الحياة التي فاقوا فيها غيرهم تجده صلى الله عليه وسلم قد فاقهم وظهر عليهم.

لقد وصلت أخلاقه وصفاته إلى القمة. وكيف لا؟ وهي أخلاق القرآن، لقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: (كان خلقه القرآن)[2]، فأخلاقه صلى الله عليه وسلم هي التفسير الحي الواقعي لهذا القرآن الكريم.

وكان صلى الله عليه وسلم قرآنا مُطَبَّقاً يمشي بين الناس، وتجد الله عز وجل يصفه صلى الله عليه وسلم بالعظمة في أخلاقه بل يصفه بأخلاق هي القمة في الأخلاق، فيقول عز

---

(١) الآية ٢١: الأحزاب

(٢) أبو داود ومسلم.

وجل: (وإنك لعلى خلق عظيم)[1] ويقول: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)[2].

وهذه قريش على الرغم من عداوتها وحربها له لم تأخذ عليه هفوة ولم تسجل عليه كذبة قبل النبوة ولا بعدها ولذلك لقبته (بالأمين) وها هو ذا الرسول صلى الله عليه وسلم يستنطق قريشا الاعتراف بصدقه حينما أمر بالجهر بالدعوة وقف على الصفا ونادى قبائل قريش فلما اجتمعوا سألهم هذا السؤال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا.

كتب الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه « خاتم النبيين » تحت هذا العنوان (أخلاقه خارقة للعادة) ثم قال: (لقد قال بعض الكتاب معددا الخوارق التي صاحبت الدعوى المحمدية، قال: إن من أعظم الخوارق التي كانت لمحمد صلى الله عليه وسلم أخلاقه فكانت في ذاتها أمرا خارقا للعادة بين بني الإنسان فهي أعلى من أخلاق الملائكة.. لأن الملائكة حسنت أخلاقهم بمقتضى كونهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليس فيه روحانية عيسى عليه

---

(١) آية ٤ من سورة القلم.

(٢) آية ١٢٨: التوبة

السلام المجردة بل كانت فيه الروحانية الإنسانية بما في الإنسان من مطالب الجسم وتجرد الروح.. فمحمد صلى الله عليه وسلم بين الناس الإنسان الذي تتجلى فيه الانسانية الكاملة، وفي طبيعته روحانية إرادية، فكل ما فيه من أخلاق للتربيـة، لـلإرادة دخل في تكوينه، فهو ليس حصورا، ولكنه عفيف لم يتدل إلى خنىً قط، ففضيلته كف للشر وتجنب له، والعفة من حصور ليست كالعفة ممن له شهوات تغالبه، وأهواء تعانده، وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة والغلب للفضيلة، وما يكون الوصول إليه بغلاب يكون أعلى وأنقى مما يجيء رخيصا سهلا)...

مما تقدم نتبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان قمة في كل صفاته وأخلاقه وهذه ميزة امتاز بها عن سائر الخلق، ولقد تبين لنا كذلك أنه كان في كل صفة قدوة للناس ومثالا يحتذى، ولكني أزيد على ذلك فأقول: إن هناك ميزة امتاز بها محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الخلق بل حتى عن الانبياء والمرسلين، وأعني بهذه الميزة أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان قدوة كاملة للناس جميعا، فقد عاش صلى الله عليه وسلم كل الحياة التي يمكن أن يحياها أي إنسان، لقد وجدت القدوة عند كل الانبياء ولكنها لم تكمل إلا عند محمد صلى

الله عليه وسلم. وكل إنسان يمكنه أن يقتدي بمحمد صلى الله عليه وسلم... فالأعزب يقتدي به، والمتزوج يقتدي به، ورب الأسرة والأولاد يقتدون به، والعامل يقتدي به، وصاحب العمل يقتدي به، والفرد العادي يقتدي به، ورئيس الدولة يقتدي به، والمرؤوس يقتدي به، والزعيم السياسي يقتدي به، والقائد العسكري يقتدي به، إلى غير ذلك، فهو قدوة كاملة للناس جميعا، ويمكن لكل إنسان يطلب القدوة الحسنة أن يجدها فيه صلى الله عليه وسلم.

ونحن في هذا البحث نحاول أن نبرز جانبا من جوانب العظمة في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وهو الجانب المتمثل في كونه صلى الله عليه وسلم كان قائدا عسكريا لا يبارى، ولعلي لا أبارح الحق إذا قلت إن هذا الجانب لا يشاركه فيه إلا النادر من الأنبياء والمرسلين، لعل الأمة الإسلامية في حاجة ملحة في هذه الأيام لالتماس جانب العظمة العسكرية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم حتى تقتدي به وتبني قوتها العسكرية التي تستطيع أن تحرس بها حقوقها وتدافع بها عن كيانها وتحقق لعقيدتها ولنفسها ولأوطانها العزة والمنعة والقوة والسيادة.

لابد لنا ونحن بصدد الحديث عن محمد صلى الله عليه وسلم كقائد عسكري من أن نبين موقف الإسلام من الحرب والسلام. وبخاصة ونحن نعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يمثل الإسلام وينفذ تعاليمه في كل أعماله وتصرفاته.

السلام في الإسلام هو الأصل والقاعدة التي ينطلق منها هذا الدين، والسلام الشامل من أهم أهداف الإسلام التي يسعى لتحقيقها، وجميع عقائد الإسلام وتشريعاته وقوانينه وعباداته وأخلاقه توجد السلام وتحققه وتحميه (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام)[١] والإسلام نفسه مشتق من السلام والسلام اسم من أسماء الله الحسنى (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون)[٢] وخروج المسلم من الصلاة بالسلام وتحية المسلم للمسلم السلام وتحية المؤمنين يوم القيامة السلام (تحيتهم يوم يلقونه سلام)[٣] وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصفح ويقول السلام: (فاصفح عنهم

---

(١) من آية ١٥، ١٦: المائدة.

(٢) آية ٢٣: من سورة الحشر

(٣) جزء من آية ٤٤ - سورة الأحزاب

وقل سلام)[1] وكثيرا ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن يفشوا السلام، وكان ذلك مما أمر به أول ما دخل المدنية وأسس الدولة الإسلامية فكان يقول للناس: (أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وَصِلُوا الأرحام وَصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام).

وإذا كان السلام هو القاعدة في الإسلام فإن الحرب هي الاستثناء الذي يخرج على القاعدة وهي الضرورة التي يلجأ إليها الإسلام في بعض الأحيان حيث لا حيلة له في اجتنابها (لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية. واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[2].

والإسلام لا يلجأ للحرب إلا لمقاومة البغي والظلم، ولذلك نراه يرفض معظم الأسباب التي تدفع إلى الحرب ويستبعد ألوانا منه لا يقر بواعثها وأهدافها، فهو يستبعد الحروب التي تثيرها العصبية، ويستبعد الحروب التي يثيرها حب الأمجاد الزائفة للملوك والقادة، أو حب المغانم الشخصية، ويستبعد الحروب التي تثيرها الرغبة في السلب والنهب والطغيان والاستعمار، ولا يقر إلا نوعا واحدا من الحروب

---

(١) الآية ٨٩: من الزخرف.

(٢) متفق عليه: رياض الصالحين.

فالحرب المشروعة الوحيدة التي يقرها الإسلام هي التي أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سئـل: (الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانـه فمن في سبيل الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله)[١] اذن فالحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام هي التي تقوم لتكون كلمة الله هي العليا[٢]، ومن أجل ذلك يمكن أن نحصر أهداف الحرب في الإسلام في الآتي:

(١) وصول الخير الذي جاء به الإسلام إلى الناس جميعا: فإذا وجد حائل يحول بين الدعوة وبين وصولها إلى الناس، فلابد من إزالة هذا الحائل ولو بالحرب والقتال مهما كان هذا الحائل. قال تعالى: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[٣] والإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه، فالقرآن يقول بصراحة: (لا إكراه في الدين)[٤] ويقول: (وقل الحق من

---

(١) من كتاب السلام العالمي والاسلام للشهيد سيد قطب بتصرف.

(٢) البخاري.

(٣) جزء من آية ٣٩ الأنفال

(٤) جزء من آية ٢٥٦ البقرة.

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[1] ولكن الإسلام يزيل الحواجز والعقبات والسدود التي تفتن الناس عن الإسلام.

(٢) تحقيق العدالة في الأرض وردع أهل البغي والظلم ولو كانوا من المسلمين حتى يستقر العدل الذي أمر به الله - قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فان فاءت فأصحلوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)[2]

(٣) دفع العدوان والدفاع عن الحقوق حتى يتمتع كل إنسان بالأمن والاستقرار قال تعالى: (ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)[3]

---

(١) جزء من آية ٢٩: الكهف

(٢) الآية: ٩ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٧٥: النساء

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)[1]

ذلك إجمال فكرة السلام في الاسلام (السلم قاعدة والحرب ضرورة لتحقيق خير البشرية لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد. ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلها الله غاية للحياة، ضرورة لتأمين الناس من الضغط وتأمينهم من الظلم وحمايتهم من الضر. ضرورة لتحقيق العدل المطلق في الأرض فتصبح كلمة الله هي العليا)[2].

رد فرية

مما تقدم يتبين لنا أنه لم يكن في يوم من الأيام من أغراض القتال في الإسلام أن يكره أحدا على الدخول فيه ولم يحاول المسلمون ذلك في أي وقت من الأوقات، أما ما يزعمه المغرضون وأصحاب الأهواء - من المستشرقين ومن لف لفهم - حينما يقولون إن الاسلام انتشر بالسيف فهذا كلام باطل ينفيه الواقع وتدفعه نصوص الكتاب والسنة، وإن الانسان المنصف يمكنه بشيء من البحث والنظر أن يصل إلى الحقيقة الكبرى التي أشرت إليها والتي أكدها

---

(١) الآية ١٩: البقرة.

(٢) من كتاب السلام العالمي والاسلام للشهيد سيد قطب.

الكثير من المنصفين يقول سير توماس أرنولد: في كتابه (الدعوة إلى الاسلام)[1] (ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الاسلام، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم، ومَنَحَهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم) ويقول[2]: (ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا من ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون في العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة واستمر في الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح، هذا ما يقوله المنصفون، والحق أن الإسلام في جميع أدوار التاريخ لم يحاول أن يفرض نفسه على أي فرد من الناس، بل التاريخ يحكي أن بعض الولاة حاولوا في وقت من الأوقات أن يحددوا دخول الناس في

---

(١) (الدعوة الى الاسلام) ترجمة ابراهيم وزميليه في ص/ ٤٨

(٢) المصدر السابق ص/٥١

الإسلام، فهذا عامل الخراج على مصر في زمن عمر بن عبد العزيز يرسل إلى الخليفة يبين له أن المصريين أكثروا الدخول في الاسلام وأنه يخشى نقص الجزية ويعرض عليه أن يوافق على الحد من الدخول في الإسلام ومن دخل لا ترفع عنه الجزية، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إليه معنفا مهددا وقال له هذه الكلمة التي لا زالت ترن في أذن الزمان: (إن محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل هاديا ولم يرسل جابيا دع الناس والدخول في الإسلام).

إن القرآن الكريم يؤكد بصورة لا تدع مكانا للشك أن الناس لا يجبرون على عقيدة لا يقتنعون بها، ولا يتجاوبون معها فهو يقول بصريح العبارة: (لا إكراه في الدين)[1] ويقول: (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[2] ويقول مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء)[3] ويقول كذلك: (إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)[4] ويقول: (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم)[5] ويقول: (وما أنت عليهم

---

(١) الآية ٢٥٦ البقرة

(٢) الآية ٢٩ الكهف

(٣) ٢٧٢ البقرة

(٤) ٢١، ٢٢ الغاشية.

(٥) ١٢٨ آل عمران

بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)[١] ويقول: (فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ)[٢] ويقول: (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ)[٣] ويقول: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[٤]

هذه الآيات وغيرها كثير تؤكد أن الاسلام لا يقر إجبار أحد على الدخول فيه، وإذا كان كما رأينا في هذه الآيات وغيرها يؤكد أن مهمة محمد الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هي البلاغ والبيان فقط وليس عليه إجبار انسان على الدخول فيه، فالإسلام يستبعد أن يقوم غير محمد صلى الله عليه وسلم بالإجبار وهذا هو الذي يؤكده الواقع التاريخي للإسلام من يوم أن نادى محمد صلى الله عليه وسلم على الصفا إلى الآن، بل إننا نعلم أن الفقهاء يرون أن إجبار أي إنسان على أي أمر من الأمور لا يجعل هذا الشيء مشروعا ويمكننا أن نقول: العقيدة هي أول شيء يجب أن يتوفر فيها الاقتناع الكامل بها حتى يصح الدخول فيها، وإذا أكره أحد على الإيمان فان إيمانه لا يصبح صحيحا حتى يقره قلبه ونيته

---

(١) ٤٥ ق

(٢) ٢٠ آل عمران

(٣) ٤٨ الشورى

(٤) ٩٩ يونس.

ونحن نعلم أن الاسلام يعول دائما على النية والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] إذن فلا بد أن يتوفر الاقتناع الكامل والنية الصادقة حتى يصبح الإيمان صحيحا، ولذلك فان الاسلام كما قلنا يستبعد الإكراه على الدخول في الإسلام، أما الحروب التي خاضها الإسلام فلم تكن للاجبار ولكنها قامت لتكون كلمة الله هي العليا. إن محمدا صلى الله عليه وسلم حينما وقف على الصفا ودعا إلى الإسلام ونادى بكلمة التوحيد وواجهته قريش بالعنف والشدة وواجهت من آمن به بالتقتيل والتعذيب والاضطهاد لم يحاول صلى الله عليه وسلم أن يرفع يده دفاعا عن نفسه وغضب على من طلب منه من صحابته أن يأذن لهم في أن يدفعوا عن أنفسهم، وتجده يأمر أصحابه بالهجرة مرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة بعد أن آمن جمع كبير من الأوس والخزرج. إن الانسان يمكن أن يتساءل كم من الدماء أسالها الرسول صلى الله عليه وسلم على مدى ثلاث عشرة سنة من بدء البعثة حتى الهجرة؟ إن محمداً «ﷺ» كان

---

(١) أول حديث من صحيح البخاري.

يكتفي بتلقي الضربات دون أن يحاول- كما قلنا- حتى مجرد الدفاع عن نفسه وحينما بايعه الأوس والخزرج (الأنصار) بيعة العقبة الكبرى قالوا: لو أردت أن نميل بأسيافنا على أهل منى لفعلنا. فقال لهم: لم أومر بقتال بعد!!)[1].

ولما هاجر وأسس الدولة كان لابد من اتخاذ موقف من قريش لأنها في موقف تحاول فيه أن تمنع العرب من الدخول في الاسلام. لقد وجهت كل إساءة إلى المسلمين وصدت عن سبيل الله وحاولت قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي تدنس الحرم بالأوثان والأصنام ولا يمكن أن يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بتطهير البيت من الأصنام ولن يستمع العرب إلى صوت الحق إلا بالقضاء على سلطة قريش أو أن شئت فقل بالقضاء على سلطة زعماء قريش الذين يكتسبون ماديا من وجود الشرك والأصنام.

ولذلك كان لابد - لتكون كلمة الله هي العليا - من محاربة قريش، وحاربها الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما قضى على سلطة زعمائها تطهرت الكعبة وتحطمت الأصنام ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولما سقطت سلطة قريش لم ينقل

---

(١) ص/١٦٢ فقه السيرة

لنا التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاول أن ينتقم من أعدائه الألداء بل قال لهم ،اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ولم يحاول أن يجبر أحدا منهم على الدخول في الإسلام حتى هؤلاء المعاندين من أكبر الأعداء الذين قرر الرسول صلى الله عليه وسلم قتلهم أولا ثم عفا عنهم لم يحاول أن يجبر أحداً منهم على الإيمان، وحينما قال له صفوان بن أمية أمهلني شهرين أفكر في أمري وفي الدخول في الإسلام قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لك أربعة أشهر)[١] .هذا هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش المعتدية فأي شيء في هذا الموقف؟ هل كان هؤلاء الناس ينتظرون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقف مكتوف اليدين أمام قريش وأمام اعتداءاتها وظلمها؟

يقول العقاد في كتابه عبقرية محمد:(إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف وقد كانت المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدا لسيوفهم. وكانوا يلقون عنتا ولا يصيبون أحدا بعنت ،وكانوا يخرجون من ديارهم لياذا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكافرين ونقمة الناقمين ولا

---

(١) مغازي الواقدي جـ٥ ص/٨٥٣

يخرجون أحدا من داره. فهم لم يسلموا على حد السيف خوفا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى عن أنفسهم ويبطلوا الإرهاب والوعيد. ولم يحملوه ليبدأوا أحدا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان)..

ويقول العقاد كذلك في نفس الكتاب: (لكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف «سلطة» تقف في طريقه وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للاصغاء إليه لأن السلطة تزول بالسلطة ولا غنى في إخضاعها عن القوة، ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة، وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة في الأبناء بعد الآباء وفي الأعقاب بعد الأسلاف، وكل حجتهم التي يذودون بها عن هذه التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل مالهم من سطوة الحكم والجاه، وقصد النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة..).

ويقول العقاد كذلك. (ومن التجارب التي دل عليها

التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكر بالقوة ولابد من التمييز بين العمليتين لأنهما جد مختلفتين).

ويقول العقاد كذلك: (الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي أجمعت شرائع الإنسا [illegible] تحكيم السيف فيها، فالدولة التي يثور من يخالفها بين ظهرانيها ماذا تصنع إن لم تحتكم الى السلاح؟ وهذا ما قضى به القرآن الكريم:« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »[1]

وأظن أن هذا ظاهر بالنسبة لقريش حسب ما ذكرنا سابقا...

أما اليهود فنحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاهدهم بعد الهجرة وتعهد لهم بأن يعيشوا في المدينة آمنين على أرواحهم وأموالهم وتعهد لهم كذلك بألا يتعرض لهم في دين ولا عقيدة فهم أحرار في عقيدتهم وفيما يؤمنون به، وتعاهد معهم على أن يتعاونوا معه في الدفاع عن المدينة ولقد وفى الرسول بعهده معهم ولكنهم غدروا فكان لابد من

---

(١) الآية ١٩٣: البقرة.

تأديبهم.. والملاحظ أن الرسول لم يأخذ قبيلة منهم بغدر غيرها فلما غدرت بنو قينقاع أدبهم وحدهم ولم يتعرض لبني النضير ولا بني قريظة، ولما غدرت بنو النضير لم يتعرض لبني قريظة، أما خيبر فقد دخل معهم زعماء بني النضير وأخذوا يحرضونهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم وفعلا أعدوا جيشا كبيرا ودربوه وجمعوا له الكثير من السلاح وأعلنوا أنهم بهذا الجيش سيهزمون محمدا فكان لابد من مبادرتهم بالحرب حتى لا يفاجئوا المدينة، لقد كان اليهود أهل غدر وخيانة وبغي وظلم وكانوا مستحقين ما نالهم من عقاب، أما الروم فقد قتل أحد ملوك العرب... النصارى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لابد من حفظ هيبة الإسلام وتأديب من قتلوا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد استنجدت القبائل بالروم فأمدوهم بمائة ألف حاربوا المسلمين في معركة (مؤتة) ومن يومها بدأت الحرب مع الروم وأوشكوا أن يهاجموا المدينة وأخذوا يجمعون الجموع، وهنا خرج الرسول لمقاتلتهم في معركة تبوك ولكنهم تفرقوا فرجع الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم إن قيصر يمثل سلطة ظالمة تظلم من تحكمه وتقف سدا أمام وصول دعوة الإسلام فكان لابد من تحطيم هذا السد

والقضاء على هذه السلطة.

ونفس هذا ينطبق تقريبا على الفرس فقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ولكن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى عامله في اليمن يطلب منه أن يرسل رجلين شديدين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليقضيا عليه ويقيداه ويرسلاه إلى كسرى، وكذلك كان كسرى يمثل سلطة تمنع وصول دعوة الإسلام إلى الفرس فكان لابد من إزالة هذه السلطة.

وبهذا يمكن أن نتبين أن الإسلام لم يحارب في يوم من الأيام ويحمل السلاح ليجبر الناس على الدخول فيه، وإني أسأل كذلك: كيف دخل مسلمو أندونيسيا والفليبين وتايلاند وغيرها في هذه المنطقة، لقد دخل الإسلام هذه المنطقة عن طريق التجار ولم يدخل فيها جندي واحد يحمل سلاحا حتى يقال إن الاسلام دخل فيها بالسيف، وقل نفس الكلام عن غرب افريقيا ووسطها وشرقها وجنوبها كل هذه المناطق دخلها الإسلام عن طريق التجار أو الطرق الصوفية والدعوة الفردية التي كان يقوم بها بعض المسلمين.

إن الذين يتهمون الإسلام بهذه التهمة من صليبيين ويهود يجب أن يرجعوا إلى تاريخ الاسلام وإلى تاريخهم

ويقارنوا بين التاريخين ليكونوا منصفين وحينئذ فلن يصلوا إلا إلى حقيقة قوية ناصعة وهي إن غير الاسلام هو الذي استعمل العنف والقوة والسلاح لمحاربة عقيدة المخالفين وفكرتهم، أما الاسلام فهو دين التسامح والسلام. حرص على أن يترك لكل إنسان الحق في أن يعتقد ما يريد ويؤمن بما يقتنع به.

وهناك آية كبيرة صنعها الإسـلام وهو مهزوم مضرج في دمائه، وذلك بعد أن دخل المغول بغداد، وفعلوا بها وبأهلها ودورها وبكتبها وحضارتها الأعاجيب، ونهر دجلة أكبر شاهد على ذلك، واحتلوا عاصمة الإسلام ما يقرب من نصف قرن، بعد هذا بدأ الاسلام يغـزو الحكام المتجبرين والجنود البسطاء الذين عاشوا هذه الأعمال. بدأ بغزو قلوبهم وهو المهزوم الضعيف الذي لا حول له ولا قوة... هذه الحقيقة الفريدة لم توجد إلا مع هذا الاسلام وعلى أرضـه إنهـا تقـف وحدها، في تاريخ الأمم والشعوب، والأديان والمذاهب. لا مثيل لها ولا نظير في تاريخ الدنيا.

عظمة الرسول العسكرية

لقد تحدثنا سابقا عن كون الرسول صلى الله عليه وسلم كان قدوة للناس في جميع المجالات وقلنا: ان الرسول صلى الله

عليه وسلم برز في المجال العسكري ولم يجاره في هذا المجال أي نبي من الأنبياء، وعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم في المجال العسكري لها جوانب متعددة كثيرة وسنحاول أن نتحدث عن بعض هذه الجوانب حتى نتبين مدى عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية.

(١) الخطة العامة والخطة الخاصة

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قاتل بدون خطة عامة أي ما يسمى حديثا بـ (الاستراتيجية) لقد كانت للرسول صلى الله عليه وسلم خطة عامة يتبعها في حروبه - وان شئت فقل:
استراتيجية - كما كان يضع خطة لكل معركة.

أما خطته العامة (الاستراتيجية) فيمكن أن نبينها بأن نلفت الأنظار إلى ما قلناه سابقا عن أن الحرب يلجأ إليها في الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا. ولقد كانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم ترتبط بهذه القاعدة، إنه يريد أن تكون كلمة الله هي العليا في جميع بلاد الدنيا ولكنه لن يستطيع أن يحارب كل القوى، إذن فلا بد من ترتيب أولويات في الحرب حتى يصل إلى الهدف، والمعلوم لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث في مكة ومكة تسكنها

قريش، وقبيلة قريش تعد زعيمة القبائل العربية والعرب جميعا لقريش تبع، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن تؤمن قريش حتى يجعل من مكة قاعدة ينطلق منها لرفع كلمة الله، ومكث الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة يحاول إدخال قريش في الإسلام. ومع الجهد الجهيد لم يؤمن من قريش إلا القليل، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يسعى لايجاد قاعدة أخرى غير مكة وأخذ يعرض نفسه على القبائل بل خرج إلى الطائف علّ ثقيفا ترضى بالإسلام، ومع ذلك لم يجد في العرب قبيلة ترضى أن تؤمن بهذا الدين وتحمل مسئولية نشره والدفاع عنه والتضحية في سبيله، ولكن الله سبحانه وتعالى وهيأ الفرصة للرسول صلى الله عليه وسلم فآمن بعض الأوس والخزرج - والأوس.... والخزرج قبيلتان تسكنان المدينة - وبايعهم الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى والثانية (الكبرى) ووجد فيهم صدق الإيمان والحرص على التضحية في سبيل الله، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من آمن في مكة بالهجرة إلى المدينة ثم هاجر هو كذلك، وهناك في المدينة أسس الرسول صلى الله عليه وسلم دولة الإسلام، ووجدت القاعدة التي يمكن أن ينطلق منها

الرسول صلى الله عليه وسلم لتكون كلمة الله هي العليا، ولما نزل قوله تعالى :(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير .... ولله عاقبة الأمور)[1] «بهذه الآيات أذن الله للمسلمين بالجهاد».

ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بتنفيذ خطته العامة (استراتيجيته) فما هي هذه الخطة العامة؟ المعلوم لنا أن الحديث عن كل خطة ينحصر في أمرين (١) الهدف المقصود (٢) الوسائل المقترحة للوصول إلى هذا الهدف، أما الهدف عند الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كما قلنا العمل لتكون كلمة الله هي العليا ولكن كيف تكون الوسيلة لتحقيق الهدف؟ إن أعداء الحق كثيرون والرسول صلى الله عليه وسلم لن يستطيع أن يحاربهم جميعا في وقت واحد وخاصة كما نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمل في حدود البشر، أما أعداء الحق فهم:

(١) المشركون من العرب (قريش والقبائل الأخرى).

(٢) اليهود الذين يسكنون المدينة والذين يسكنون خارجها في خيبر ووادي القرى.. وتيماء.

(٣) أهل الكفر حول الجزيرة العربية.

---

(١) آية ٣٩، ٤٠، ٤١ من سورة الحج

فكيف تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم كيف وضع خطته؟ لقد وضع الخطة على أساس أن يبدأ بالقضاء على سلطان قريش للأسباب الآتية:

(١) قريش تحمي الشرك في مكة وتضع الأوثان في البيت الحرام قبلة المسلمين ولا بدّ من تطهير البيت من الشرك.

(٢) قريش زعيمة العرب ولو دخلت في الاسلام تبعها بعد ذلك العرب يدخلون في دين الله أفواجا.

(٣) قريش بادرت الرسول صلى الله عليه وسلم بالعداء وعذبت المسلمين واضطهدتهم وقتلت بعضهم، بل حاولت قتل الرسول صلى الله عليه وسلم وأهدرت دمه وأخرجت المسلمين من بلدهم واستولت على أموالهم وسيوفهم.

لهذه الأسباب كانت أولويات الخطة تقتضي محاربة قريش والقضاء على سلطتها حتى يتطهر البيت الحرام من الأصنام وحتى يدخل العرب في دين الله أفواجا، فيستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون في الجزيرة العربية القاعدة القوية والقوة الرادعة التي تستطيع أن تجاهد لتكون

كلمة الله هي العليا ،ولذلك بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل مع قريش في حرب وقاتلها في غزوات متعددة حتى أذعنت،ودخل الرسول مكة وفتحها ودخل الناس في دين الله أفواجا وتكونت القاعدة التي انطلق منها المسلمون لرفع كلمة الله، أما اليهود فهم أهل كتاب ولهم معرفة بالوحي وكانوا يخبرون الأوس والخزرج بقرب ظهور النبي صلى الله عليه وسلم فلما ظهر الرسول رفضوا الإيمان به، ولما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة عقد معهم معاهدة أمّنهم فيها على عقيدتهم وعبادتهم ودمائهم وأموالهم ولكنهم لما غدروا كان لا بد من القضاء عليهم، لقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتفرغ لقريش ولكنه كان في حسابه في خطته أن يتصرف بقوة أمام أي قبيلة يهودية تتحرك ضد الإسلام وكان لا بد من أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا في حسابه خاصة واليهود أهل غدر وخيانة، ولذلك بادر الرسول صلى الله عليه وسلم كل قبيلة من قبائل اليهود عند أول غدر يقع منهم حتى قضى عليهم في المدينة فاطمأن بعد أن تطهرت قاعدته، ومع ذلك فحينما تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم للعمرة ورفضت قريش السماح له بالدخول نجده لا يحسم الأمر مع قريش ويرضى بأن يوقع معها صلح

الحديبية لجملة أسباب كان من بينها أنه كان يخشى أن تتحرك خيبر لضرب المدينة والرسول مشغول بحرب قريش خاصة وإن زعماء بني النضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة كانوا قد انضموا إلى خيبر ليحرضوها على حرب المسلمين ،وفعلا أعدت خيبر جيشا مدربا ومسلحا تسليحا جيدا بلغ عدده عشرة آلاف رجل وكانت تريد بهذا الجيش أن تقتحم المدينة وتهزم المسلمين ، ولذلك نجد القرآن الكريم يشير إلى المعركة التي لا بد من أن تقوم مع خيبر في سورة الفتح التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق رجوعه من صلح الحديبية ،فلما وصل الرسول المدينة حرك الجيش لغزو خيبر ولم يأخذ معه إلا الجنود الذين كانوا معه في صلح الحديبية ، وغزا خيبر ووادي القرى وتيماء ،وبذلك أمن الرسول صلى الله عليه وسلم على قاعدته (المدينة) أمن عليها من اليهود الذين كانوا في الداخل ومن اليهود الذين كانوا في الخارج ،حتى إذا أبعد في حرب مع قريش كان آمنا على المدينة ولذلك حينما غدرت قريش ونقضت صلح الحديبية تحرك إليها وفتح مكة... وبعد أن تم الفتح وتسابقت العرب في الدخول في الاسلام نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتطلع لرفع كلمة الله خارج جزيرة العرب

فكانت غزوة مؤتة وتبوك وبعث أسامة.

وبهذا الاستعراض نتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن تصرفه في المعارك اجتهاد الساعة ولكن كان تصرفه قائما على خطة عامة أو استراتيجية ثابتة تستمد من قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)[1].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك يعد خطة خاصة بكل معركة، وكانت الخطة توضع حسب ظروف المعركة والموقع وعدد الجيوش إلى غير ذلك من الأمور التي نراها عند دراستنا لغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، لقد كان صلى الله عليه وسلم قبل المعركة يحدد مكان كل فرقة ومكان كل جندي وينظم الصفوف ويصدر التوجيهات للجنود وقد يغير صلى الله عليه وسلم الخطة أو يعدلها لظهور أمور لم تكن في الحسبان، ويمكننا أن نضرب مثالا بغزوة بدر لنبرهن على صدق ما استخلصناه سابقا.

لقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر وكانت خطته قائمة على مهاجمة قافلة أبي سفيان وعلى كيفية القيام بهذه المهاجمة لكن لما فر أبو سفيان بطريق البحر وخرجت قريش لتحمي قافلتها ولحرب المسلمين غير الرسول صلى الله

---

(١) جزء من آية ١٢٣ سورة التوبة

عليه وسلم الخطة لتنسق مع الوضع الجديد بعد إن استشار أصحابه، وكما تحكي لنا السيرة نجده يحدد موقع كل جندي وينظم الصفوف ويأخذ برأي سعد بن معاذ لما أشار عليه ببناء العريش ويقف في بدر في موقع فريد يحقق للجيش الإسلامي أكبر قدر من التفوق، لقد اختار الموقع من حيث الأرض وارتفاعها وانخفاضها ومواجهة الشمس في شروقها والقرب من الآبار إلى غير ذلك من الأمور الدقيقة التي أعدها الرسول صلى الله عليه وسلم في خطته حتى يأخذ بأسباب النصر.

إذن ننتهي إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحارب اعتباطا أو ارتجالا بل كانت له خطة عامة يلتزم بها في تحركه في المعارك وله كذلك خطة خاصة يلتزم بها في كل معركة وهذه الصفة من أهم صفات القائد الناجح القائد العبقري القائد العظيم.

الإعداد للمعركة

إن الجيوش التي تعد للمعارك نفسيا وماديا هي التي يمكن أن تحقق الانتصار في المعارك وأن تصمد، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على إعداد جيشه للحرب والقتال إعدادا شاملا كاملا مما يؤكد عبقرية الرسول

صلى الله عليه وسلم العسكرية، ولقد كان هذا الإعداد ينطلق من قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)[1] ونجد القرآن يجعل كلمة (قوة) نكرة لتفيد العموم والشمول.

الإعداد المعنوي

لعل الإعداد المعنوي هو أهم قسمي الإعداد بل هو أساس كل إعداد فلا بد من إعداد الجندي قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها إعدادا معنويا كاملا حتى يستطيع أن يقوم بواجبه خير قيام.

ولقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم باهتمامه بهذا الجانب من الإعداد أن يصل إلى درجة جعلت هؤلاء العرب الصعاليك قوة خطيرة انطلقت في كل اتجاه ترفع كلمة الله وتعلي راية التوحيد، أجل لقد استطاع الرسول أن يجعل من القلة كثرة ومن الضعف قوة ومن الفتيان الصغار قادة وأساتذة ومن الأسلحة الهزيلة الخفيفة أسلحة مؤثرة ومحققة لأهداف حامليها الأبطال المجاهدين والغر الميامين.

وكان القرآن الكريم أعظم وسيلة استعملها الرسول

---

(١) الآية ٦٠ سورة الأنفال.

صلى الله عليه وسلم في الإعداد المعنوي.

لقد أعد الرسول صلى الله عليه وسلم جنده - أولا - بالإيمان بالله عز وجل والإيمان بقدرته تعالى التي لا تحدها حدود وأنه القاهر فوق عباده له الحكم والأمر، مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وهو وحده يعز من يشاء ويذل من يشاء إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وأعد جيشه كذلك بالإيمان بقدر الله تعالى وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[١] (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)[٢].

وأعدهم كذلك بالإيمان برسالتهم وقدسيتها وأن فيها الخير لهذه البشرية وعليهم أن يحملوا هذا الخير إلى كل الناس، ولقد فهم المسلمون ذلك المعنى ولذلك نجد ربعي بن عامر يقول لرستم قائد الفرس حينما سأله عن السبب الذي أخرجهم من بلدهم للقتال: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه

---

(١) الآية ٥١

(٢) نهاية الآية ١٥٤ آل عمران

لندعوهم إليه)[١] .

إنها رسالة عظيمة يقاتلون لنشرها بين الناس لا يبتغون بها علوا ولكنهم يجاهدون ابتغاء رضوان الله وطلبا لخير الناس، إن القرآن أعلمهم أنهم خير أمة أخرجت للناس فعليهم أن يعلموا الناس الخير ويدعوهم إليه (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[٢]، وأعدهم كذلك بالايمان بنصر الله لأن الله وعدهم بذلك حتى وإن لم ينتصروا فهم الشهداء الفائزون فإذا استشهدوا في معركة فإن إخوانهم سينتصرون في المعارك الآتية أما هم فقد أدوا واجبهم وكفى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)[٣]. علمهم الرسول ذلك وأخبرهم القرآن وبشرهم بالنصر (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[٤] إنهم جند الله يحاربون لينصروا دين الله وحكم الله فلا بد أن ينصرهم الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[٥] إنهم يعلمون أن عاقبتهم على أي حال

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٧ ط/ بيروت
(٢) الآية ١١٠ آل عمران
(٣) الآية ٢٣ : الأحزاب.
(٤) الآية ٥١ غافر
(٥) من آية ٧ محمد

كريمة عظيمة فهم مؤمنون بأن لهم النصر أو الشهادة (قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين)[1] إما عز الحياة والنصر فيها وإما شرف المات وجنة عرضها السموات والأرض، وجعلهم كذلك يعلمون أن الحياة الدنيا قصيرة حقيرة، وأن الآخرة هي التي يجب على العاقل أن يطلب النعيم فيها (وإن الــــــدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون[2]، وعلمهم كذلك أن طبيعة الحياة أن يقوم الصراع فيها بين الحق والباطل وأن الحق لا بد أن ينتصر (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله،كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفــع النـاس فيمكـث في الأرض كذلـك يضرب الله الأمثال)[3]،وعلمهم كذلك أن هذا الصراع به يستطيع المؤمن أن يقدم برهان صدقه فالصراع بين الحق والباطل والقتال بينهما لمصلحة المؤمن (أحسب الناس أن يتركـوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[4] (ولنبلونكم

---

(١) أول آية ٥٢ التوبة
(٢) نهاية الآية ٦٤ العنكبوت
(٣) الآية ١٧ الرعد
(٤) الآية ٢، ٣ العنكبوت

حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم)[١]
وعلمهم أن المؤمن حينما يستشهد فانما عقد مع ربه صفقة ربح
فيها الربح الأوفر (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة)[٢] ومن أنواع الاعداد المعنوي هذه
التربية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث هذب
نفوسهم وراض قلوبهم وطوعها لله عز وجل بأنواع المجاهدات
النفسية والعبادات من صلاة وصوم وذكر (يا أيها الذين
آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)[٣] (يا أيها الذين آمنوا إذا
لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[٤] لقد
كانت الصلاة إعدادا عظيما للمسلم حتى بعد الحرب وعلى
نظامها،فالجندية كما نعلم تقوم كما يقولون على الضبط والربط
وإن شئت فقل على النظام والتعاون والجندي المسلم يتدرب
على النظام والتعاون أو على الضبط والربط خمس مرات في
اليوم، فهو يصلي لله عز وجل مع المسلمين ،وعليهم أن يعدلوا
صفوفهم ولا يتركوا ثغرات أو فرجا بينهم وعليهم أن
يكملوا الصفوف ،الأول فالأول وعليهم أن يطيعوا الإمـــام ،ولا
يخالفوا ، وأن يتبعوه في حركته فلا يجوز لهم أن يسبقوه ، أو

---

(١) الآية ٣١ محمد
(٢) الآية ١١١ التوبة
(٣) الآية ١٥٣ البقرة.
(٤) الاية ٤٥ من الأنفال.

يساووه إلى غير ذلك من أصناف التربية التي يتعلمها الجندي في الصلاة، وفي الصوم يتعلم الجندي كبح جماح شهواته والصبر على مطالبه والاستمرار على موقفه حتى يصل إلى هدفه.

وفي الزكاة يتعلم المسلم البذل فإذابذل ماله لفقير - والمال شقيق الروح - كان عنده الاستعداد لبذله في سبيل الله في الجهاد والقتال، ومن تدرب على بذل ماله هان عليه بذل دمه، والحج تدريب كذلك عملي على الجهاد إنه مفارقة للأوطان والأهل والمال بل حتى مفارقة للملابس ولما اعتاده الانسان، وهو إعلان للتجرد والتسليم لله عز وجل وفيه الإشعار بوجوب التضحية بالدم لله عز وجل يفهمها المؤمن حينما يقدمه هدية في منى، ولذلك كان الحج جهادا كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما بين أن الحج جهاد المرأة.

كل ما ذكرناه سابقا كان بيانا لبعض صور الإعداد المعنوي قبل المعركة، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك يشحذ الهمم ويشعل الحماس في ميدان المعركة، مثلا في غزوة بدر يخاطب المسلمين قائلا: (لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة)[1]

---

(١) ابن هشام ص/٢٦٧.

ووقف وهو يقول لأصحابه: (قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض! فقال عمير بن الحمام: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض! قال نعم. قال: بخ بخ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما حملك على قولك بخ بخ: قال: والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها.[1]

عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى مالت الشمس قام فيهم، فقال: يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[2].

ويحمل سيفا في غزوة أحد وهو يقول: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقال أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه وكان أبو دجانة رجلا شجاعا له عصابة يعصب بها رأسه فإذا عصب رأسه علم أنه يقاتل حتى النصر أو

---

(١) مسند أحمد جـ ٣ ص/١٣٦ - ١٣٧ - وأخرجه مسلم جـ ٦ ص/٤٤، ٤٥
(٢) مسند أحمد جـ ٣ ١٣٦ - ١٣٧ - وأخرجه مسلم جـ ٦ ٤٤، ٤٥.

الموت، فأخرج عصابته فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن).[1]

وخطب الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين يوم أحد فقال: (يا أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله له رشده فإن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أمركم به فإني حريص على رشدكم، وإن الاختلاف والتنازع والتثبط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحب الله ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر)[2].

ومن باب التعبئة المعنوية أثناء المعركة الدعاء، والدعاء ما هو الا وسيلة عملية قوية لرفع الروح المعنوية واعداد الانسان المقاتل نفسيا للصمود في الحرب، والصبر

(١) جاء في الصحيحين.
(٢) امتاع الأسماع ص/١٢١ من رواية الواقدي

على شدائدها، إن الانسان حينما يدعو الله تعالى يحس بقوة عظيمة تملأ عليه قلبه وروحه وخاصة إذا أكد له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدعاء أثناء المعركة دعاء مستجاب، إنه هنا يحس باتصاله بالله عز وجل القاهر فوق عباده والذي بيده الأمر الذي يقول للشيء كن فيكون، ان الدعاء صلة وثيقة بين العبد وربه ولذلك سماه الرسول صلى الله عليه وسلم مخ العبادة واهتم به اهتماما كبيرا أثناء المعارك، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر - نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني به. اللهم آتني ما وعدتني به. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله. كفاك مناشدتك ربك، فانه منجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل «اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» فأمده

الله بالملائكة.[١]

وروى عن عبد الله بن عمرو - قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر بثلثمائة وخمسة عشر من المقاتلة كما خرج طالوت فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجوا، فقال: اللهم إنهم حفاة فأحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم انهم جياع فأشبعهم، ففتح الله عليهم يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا، وما فيهم رجل إلا قد رجع بحمل أو حملين واكتسوا وشبعوا.[٢]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو يوم أحد، فيقول: اللهم إني بك أجول وأصول وفيك أقاتل. حسبي الله ونعم الوكيل.[٣]

وبعد أحد. وكانوا بأصل الحرة قال: اصطفوا نثني على الله، فاصطف الرجال صفين خلفهم النساء وكان مما دعا به: اللهم لك الحمد، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ثم قال: اللهم عذب كفرة أهل الكتاب.. الذين يكذبون رسولك ويصدون عن سبيلك، اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إله

(١) صحيح مسلم - شرح النووي جـ ١٢ ص/٨٤.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد - المجلد الثاني ص/٢٠ طبعة بيروت.
(٣) نور اليقين ص/١٥٦

الحق... آمين).[1]

وروى علي بن أبي طالب وجابر عن بعض ما وقع في غزوة الأحزاب، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: شغلونا عن صلاة الوسطى (صلاة العصر) حتى غربت الشمس ملأ الله قلوبهم وبطونهم - أو بيوتهم - نارا)[2].

ومن دعائه يوم الأحزاب: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم.[3]

ومن دعائه كذلك يوم الأحزاب: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، وروى الشيخان في صحيحيهما أنه قال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأعداء، اللهم اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم.[4]

ومن دعائه كذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول: لا اله الا الله وحده، أعز جنده، أعز عبده، وغلب الأحزاب وحده. فلا شيء بعده.

ولما خرج صلى الله عليه وسلم قاصدا خيبر فلما أشرف عليها أخذ يضرع إلى الله تعالى طالبا النصر والمعونة، فقال لأصحابه: قفوا، وأخذ يدعو، وهم يرددون معه: اللهم رب

---

(١) امتاع الاسماع ص/٢٣٢
(٢) امتاع الأسماع ص/٢٣٨
(٣) البخاري
(٤) امتاع الأسماع ص/١٦٢، ١٦٣

السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله تعالى[1].

تحطيم الروح المعنوية للعدو

وكما كان صلى الله عليه وسلم يعمل على تقوية الروح المعنوية لجنده كان كذلك يعمل على تقويض روح أعدائه وزلزلتهم حتى ينهاروا ويستسلموا أو ينهزموا ويفروا، ولقد استعمل في ذلك كثيرا من الأساليب التي توصله إلى ما يهدف إليه، فمن الأمثلة على ذلك أنه حينما هاجم اليهود في خيبر أخذ يهتف: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وهذا الهتاف الذي كان المسلمون يهتفون به في كل معركة «الله أكبر، الله أكبر» من أهم الأمور التي كانت تحطم روح العدو وتلقي الرعب في قلبه حينما كانوا يسمعون المسلمين يهتفون بهذا الهتاف ويزأرون به زئير الأسود.

ومن الأمثلة على ذلك ما فعله بأبي سفيان يوم الفتح لقد

---

(١) امتاع الاسماع ص/٣١٠

أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الوادي ويجعله يرى كتائب الجيش الإسلامي وهي تمر عليه فيرى الْعَددَ وَالْعُدَدَ فتتحطم مقاومته ويتأكد أنه لن يستطيع أن يواجه المسلمين، وهذا ما وقع فعلا لقد ذهب أبا سفيان بعد ذلك إلى مكة وأخذ يصرخ في قريش - وهو زعيمها وقائدها - لقد أتاكم محمد بما لا قبل لكم به.

ومن الأمثلة على ذلك الطرق والأساليب التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعها في حربه مثل مفاجأة العدو والإحاطة به، والمبادرة بحربه وهو لم يزل يستعد للحرب كما حدث في تبوك...

إلى غير ذلك من الأساليب التي تؤكد عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم العسكرية...

التفاؤل والأمل

لعلنا نستطيع أن نقول إن من بين أنواع الإعداد المعنوي التي اهتم بها الرسول صلى الله عليه وسلم اهتماما كبيرا محاولته صلى الله عليه وسلم ملء قلوب المؤمنين بالأمل والثقة في نصر الله تعالى والتفاؤل بالمستقبل وما يتحقق لهم فيه من عزة وسيادة.

والحق أن هذا سلاح معنوي استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع مراحل دعوته في السلم والحرب قبل الهجرة وبعدها...

والكلام عن هذا الموضوع وضرب الأمثلة يحتاج إلى وقت طويل، ولكننا سنكتفي بالقليل الذي يمكن به أن نتأكد من حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على ملء قلوب المسلمين بالثقة في النصر والتفاؤل بالمستقبل من بين هذه الأمثلة، ما روي أن خباب بن الأرت جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة في الفترة التي شددت فيها قريش قبضتها على المسلمين.. جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده بجوار الكعبة بعد أن ألهبت ظهره السياط وشوت جسده النار وأحرقته الشمس ونهكه التعذيب الشديد... فقال: يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا. فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة دروس الدرس الأول في تعلم الصبر والثبات على المحن والبلاء، لأن هذا هو طريق الأنبياء والمصلحين الصادقين، ولأن هذا طريق الحق دائما، والدرس الثاني أعطاه البشارة بالنصر والتأييد والتمكين في الأرض وتحقيق الأمن فيها للمسلمين، والدرس الثالث بين له أن طبيعة الإنسان

التعجل ولكن الأفضل له التريث.

وترك الأمور تسير كما قدر لها الله ما دام المؤمن يؤدي واجبه ويجاهد في سبيل الله ويدعو إلى الحق.

قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى (حَضْرَمَوْت) فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1].

يقول الشيخ محمد الغزالي معلقا على هذه الحادثة: (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبث عناصر الثقة في قلوب رجاله، ويفيض عليهم ما أفاضه الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الاسلام، وانتشار مبادئه، وزوال سلطان الطغاة أمام طلائعه المظفرة في المشارق والمغارب، وقد اتخذ المستهزئون من هذه الثقة مادة لسخريتهم وضحكهم... كان الأسود بن المطلب وجلساؤه، اذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - يتغامزون بهم - ويقولون قد جاءكم

(١) رواه البخاري

ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون)[١].

وحينما اشتد العذاب بالمسلمين أمرهم بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم: (تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم) هكذا يأمرهم بالتفرق ويؤكد لهم أنهم سيجتمعون مرة أخرى.

ويوم الهجرة يعد سراقة أساور كسرى وهو مهاجر مع صاحبه تطارده قريش، ويوم بدر بعد أن استشار أصحابه ووجد منهم إقبالا على الجهاد والتضحية، قال لهم: (سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)[٢]. بل كما يروي بعض الصحابة أنه حدد المكان الذي سيصرع فيه صناديد قريش ولقد تحدث الصحابة أنهم ما فارقوا مصارعهم التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي يوم الأحزاب أثناء حفر الخندق، في البرد الشديد، والجوع القارص، والفقر المدقع، والكرب والبلاء، والعدو محيط بالمدينة من كل جهة، تقف أمام المسلمين صخرة صلبة

---

(٢) فقه السيرة - للغزالي - ص/١١٠ - ١١٢

(٢) ابن هشام جـ ٢/ص ٦٣ - ٦٤.

لا يستطيعون تحطيمها فيذهبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيأخذ المعول ويضربها ثلاث ضربات تصير بعدها رملا أهيل.

وكان بعد كل ضربة يتطاير منها شرر يضيء خلال هذا الجو الداكن وكان الرسول مع كل ضربة يكبر تكبير فتح فيكبِّر المسلمون وراءه، وإذابه بعد ذلك يحدثهم أنه أضاء له قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، وفي الثانية أضاء القصور الحمر من أرض الروم وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. فأبشروا). فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعود صادق.

أما المنافقون ومرضى القلوب فقالوا: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا، فنزل القرآن متحدثا عن المؤمنين (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسلميا).[1] وقال عن المنافقين: (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما

---

(١) الآية ٢٢ الأحزاب

وعدنا الله ورسوله إلا غرورا)[1].

ولما جاءه أمر بني قريظة وأنهم نقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب، قال: ابشروا بفتح الله ونصره.

وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل خطوة من خطواته العسكرية يعتقد بأنه سينتصر لأنه صاحب حق وصاحب الحق يعيش مع الأمل الجاد الصادق بأنه سيفوز وينتصر، وستكون النهاية في جانبه، إنه صاحب حق يعتز به ويعتز بالانتساب إليه فهو أكثر ثقة في الله وفي نصره وفي تأييده وعونه مهما علا الباطل وارتفع وأصبح له جنود وأعوان، يقول الشهيد سيد قطب[2]:(ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عارفا بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك، وكان واثقا من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل، وأنه لا يمكن أن يوجد «الحق» في صورته هذه، ثم لا يكون ما يكون!)

ولقد كان القرآن الكريم يؤكد كذلك هذا المعنى ويبرزه للمؤمنين واكتفى في ضرب الأمثلة ببعض الآيات التي تبين

---

(١) الآية ١٢ الأحزاب

(٢) كتاب الشهيد سيد قطب «هذا الدين» ص/١١٥.

هذا المعنى، قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[1]، وقال: (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا)[2]، وقال: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)[3] وقال: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)[4] وقال: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا...) (... ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز)[5].

الإعداد المادي

كما اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإعداد المعنوي اهتم كذلك بالاعداد المادي، والأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى تحقيق النصر ورفع راية التوحيد، وقد كان اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالاعداد المادي يأخذ صورا متعددة نحاول في هذه العجالة أن نتحدث عن بعضها

---

(١) الآية ٥١ غافر
(٢) الآية ١١٠ يوسف.
(٣) الآية ٥ القصص
(٤) الآية ٥٥ النور
(٥) الآية ٣٨ - ٤٠ الحج

ونضرب أمثلة لها: من صور اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعداد المادي اهتمامه بالفرد الذي يباشر الحرب ويخوض المعارك.

اهتم الرسول بهذا الفرد اهتماما عظيما من حيث المحافظة على سلامة جسمه وتقويته ثم تدريبه على القتال، إن الأوامر التي أمر بها الأسلام وبينها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي تتعلق بالطعام والشراب وتحريم الضار منها للجسم والتي تتعلق بالمحافظة على سلامة الجسم والبعد به عن كل ما يؤدي إلى ضعفه والتي تتعلق كذلك بمداواته إذا أصابه المرض أو نزل به الوهن.

كل هذه الأمور يمكننا أن نمثل بها لنبين إلى أي مدى حاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحافظ على سلامة جسد الفرد لأن المؤمن القوي أحب الى الله من المؤمن الضعيف كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أقدر على حمل مسئولية الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ثم نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحث على التدريب على فنون القتال والجهاد، بل نجده يشترك في هذا التدريب، فحينما وجد جماعتين من المسلمين يتبارون في الرمي - قال: ارموا بني اسماعيل فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني

فلان فأمسك الآخرون وقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم جميعا)[1]. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا)[2] ولقد سمح صلى الله عليه وسلم للأحباش أن يلعبوا لعبة الحرب برماحهم في مسجده الشريف، ونجده يهتم بتوفير السلاح للمسلمين.

لقد كان المسلمون في بداية حربهم مقلين في السلاح، وورد أنه في بداية المعارك كان كل ثلاثة يحاربون بسيف واحد وفي غزوة بدر كان كل ثلاثة أو أربعة رجال يتعاقبون بعيرا واحدا، ولكن السلاح بعد ذلك توفر لهم بحسن تدبير الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حرص على تدبير السلاح للمسلمين بكل وسيلة، فحينما حاصر بني النضير وبني قينقاع أصر على أن يأخذ منهم السلاح ولم يسمح لهم بأخذ شيء منه.

وفي غزوة خيبر استطاع أن يحصل على الدبابات وحصل كذلك على المنجنيق واستعمل هذه الأسلحة فيما بعد خاصة في حصار الطائف. وحينما تحرك بعد الفتح لمواجهة

---

(١) رواه البخاري - الترغيب والترهيب جـ ٢/ص ٣٩٩.
(٢) رواه أبو داود - الترغيب جـ ٢ ص/٤٠٠.

هوازن وثقيف، استعار دروعا من صفوان بن أمية ليتدرع بها المسلمون.

ولقد أرسل صلى الله عليه وسلم بعثة من بعض المسلمين الى جرش ليشتروا الأسلحة من هناك[1] والذي قدم بها خالد بن سعيد بن العاص. ولقد كانت كتيبة المهاجرين والأنصار التي تحرك بين رجالها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدخل مكة كانت هذه الكتيبة مدججة بالسلاح لا يرى الناظر إليها إلا الحديد والسلاح، ولقد ذهل أبو سفيان حينما رآها ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم في وسطها، فقال للعباس من هؤلاء؟ فقال له العباس: هؤلاء المهاجرون والأنصار يحلقون حول رسول الله، فقال أبو سفيان لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما. فقال العباس: إنها النبوة)[2].

صورة هذه الكتيبة وصورة السلاح والحديد فيها تؤكد إلى أي مدى كان صلى الله عليه وسلم يهتم بالسلاح، ونجده يقول للمسلمين:(إن الله يدخل الجنة بالسهم الواحد ثلاثة

---

(١) يروي ذلك المقريزي في حصار الطائف وجرش هي الآن من أعمال الأردن الى الشمال من عمان بحوالي ٣٥ كيلو مترا.

(٢) امتاع الأسماع ص/٣٧٦.

نفر: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به ومنبله)[1].

ولقد رغب الرسول صلى الله عليه وسلم كل مسلم أن يكون مستعدا بعدته وآلته حتى ولو لم يكن قادرا على الحرب فلعله يعطي السلاح لغيره يجاهد به فيكون له ثواب الجهاد (من جهز غازيا فقدغزا)[2]، ونجده يهتم بأفضل عدة للحرب في زمانه وأعني بها الخيل التي قال عنها: (الخيل معقود في نواصيها الخير)[3] وورد عنه أنه قال فيها: (من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله، وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)[4].

ولا نعجب بعد ذلك إذا علمنا أن بعض الصحابة كان يحتبس ستين وثمانين فرسا في سبيل الله ومنهم من كان يحتبس ألفا، واحتبس خالد بن الوليد أدراعه وعتاده في سبيل الله.

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كذلك: (ارموا

---

(١) أبو داود جـ ٢/ص/ ٤٠٠ الزغيب.
(٢) رواه مسلم جـ ٦ ص/٤٨
(٣) رواه مسلم جـ ٦/ص/٣٢
(٤) رواه البخاري

واركبوا، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا، كل شيء يلهو بـه الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فانهن من الحق) ولقد حث على عدم ترك التدريب على الحرب حتى عند الأمن والسلام، ولقد مر بنا الحديث:(من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا)[1]. وورد عنه أنه قال:(ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[2].

ولقد كان اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالرمي كثيرا (ولقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم رافع بن خديج في غزوة أحد بعد أن رده لصغر سنه لأنه علم أنه يجيد الرمي)[3].

وأثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه فسر القوة - وهو على المنبر - بقوله:(ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي) والرمي أهم وأخطر ما يقاتل به الناس. فقد كان رميا بالسهام في الماضي فأصبح رميا بالصواريخ والقنابل الذرية في هذا الزمان.

---

(١) أبو داود جـ ٢ ص/٤٠٥ الترغيب والترهيب.
(٢) رواه مسلم جـ ٢ ص/٤٠٠ الترغيب والترهيب.
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص/١٨

الشورى

إعداد معنوي مادي

إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان رسولا مؤيدا من عند الله عز وجل وهو سيد المرسلين وسيد ولد آدم، رفع الله درجته وفضله على أنبيائه ورسله وأجرى وحيه على لسانه (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)[١]، (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)[٢].

وعلى الرغم من هذا، وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان راجح العقل ذكي الفؤاد نافذ البصيرة سريع البديهة عنده القدرة - بفضل الله - على الفصل في الأمور بسرعة ودقة وحكمة - ويكفينا مثالا في هذا حكمته في وضع الحجر الأسود لما اختلفت قريش أيهم يضعه - رغم كل هذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص الحرص الشديد على استشارة جنده قبل المعركة وفي أثنائها، وكان كثيرا ما ينزل على رأي أحد جنوده - ولو

---

(١) الآية ٣، ٤: النجم
(٢) الآية ٥٢: الشورى

كان صغيرا - إذا وجد فيه الصواب بل كان ينزل على رأي الأغلبية ولو كان مخالفا لرأيه حتى ولو كانت هناك علامات تدل على خطأ رأي الأغلبية.

وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على مشاورة أصحابه ينبع من: -

(١) أنه يريد أن يؤكد أن هذه الأمة تتميز بالشورى ويقوم الحكم فيها على الشورى ولا يقوم على الاستبداد - قال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)[١].

(٢) كان الرسول يعلم أنه لا بد مفارق لهذه الدنيا فهو يريد أن يضع القواعد التي يسير عليها حكام المسلمين من بعده.

(٣) كان الرسول يريد أن يجعل الجنود يشعرون بأنهم لا يساقون سوق النعاج بل لهم الرأي في كل عمل يقومون به وهذا الشعور يجعلهم يقتنعون بما يقومون به ويحرصون على بذل الجهد كل الجهد في سبيل إنجاحه.

(٤) يريد أن يؤكد معنى أخوة المسلمين وتكافلهم.

هذه بعض المعاني التي جعلت الرسول صلى الله عليه

---

(١) الآية ٣٨: سورة الشورى.

يحرص على الشورى في كل معاركه، وفي جميع الحروب التي خاضها.

في غزوة بدر مثلا لا يبدأ القتال ولا يتجه إليه إلا بعد استشارة المؤمنين ويطلب الشورى مرة واثنتين وثلاثا، يتكلم أبو بكر ويتكلم عمر ويتكلم المقداد ولكنه لا زال يقول أشيروا على أيها الناس. لقد كان كل المتكلمين من المهاجرين وهو يريد أن يسمع رأي كل المسلمين خاصة الأنصار لأنه بايعهم على أن يدافعوا عنه داخل المدينة.. ولكنه الآن سيحارب خارج.. المدينة، إنه يريد أن يعرف هل الأنصار مستعدون للحرب خارج المدينة؟ ويفهم الأنصار فيقول سعد بن معاذ: أظنك تعنينا يا رسول الله؟ فيقول: نعم فيقول سعد ويعلن تأييده للحرب فيسر الرسول ويتقدم للمعركة، وفي بدر كذلك يأتيه الحباب بعد أن نزل في منزل ويقول له: يا رسول الله. أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نفارقه أم هو الرأي والحرب والمكيدة. فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأي والحرب المكيدة، فيقول الحباب: ليس هذا بمنزل. انهض يا رسول الله بالناس حتى نأتي أقرب ماء من عدونا ننزله، ونغور كل الآبار التي وراءه، ثم نبني حوله حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل العدو

ولدينا الماء نشرب ولا يشرب عدونا ، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي ، وانتقل المسلمون إلى حيث أشار الحباب .

وفي غزوة بدر قبل الرسول كذلك بناء العريش حسب مشورة سعد بن معاذ ، ونجده كذلك بعد المعركة يستشير أصحابه ويأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه وذلك في موضوع الأسرى فيأخذ منهم الفدية ومن لم يكن معه مال علّم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة(١) .

وفي غزوة أحد لما علم بخروج المشركين استشار أصحابه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يميل إلى البقاء في المدينة والدفاع عنها من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت،وكان يرى هذا الرأي كبار السن من المسلمين إلا أن الشباب أبوا ذلك وأصروا على الخروج وملاقاة عدوهم خارج المدينة وكان مع هذا الرأي حمزة رضي الله عنه ،ونظر الرسول صلى الله عليه وسلم فرأى أن الأغلبية تريد الخروج فأقر الأغلبية ولو أنه مخالف لرأيه .

ونجد القرآن الكريم هنا يؤكد الأخذ بمبدأ الشورى رغم ما حدث ، لقد كان من الممكن أن يقال إن الأخذ بالشورى

---

(١) عيون الأثر

والنزول على رأي الأغلبية أوصل الى ما نرى من الآلام التي نزلت بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين وحتى لا يتكلم أحد بمثل هذا الكلام نرى الآيات التي نزلت تتحدث عن غزوة أحد تقول آية منها : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)[١] .

هكذا نجد الله تعالى يؤكد الأخذ بمبدأ الشورى رغم كل ما حدث ، وفي غزوة الأحزاب نجد الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك يستشير أصحابه لما بلغه خروج الأحزاب .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين : (فجمع النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع فقد كانوا أكثر من أن يخرجوا إليهم ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة وخصوصا أن بني قريظة على مقربة من المؤمنين ويدلونهم على عورات المسلمين ، لا هذا ولا ذاك يصلحان للعمل ولا بد من عمل يكون وقاية حتى يجيء نصر الله تعالى ، وقد وعد به ، فقال :(وكان

---

(١) الآية ١٥٩ من آل عمران.

حقا علينا نصر المؤمنين)[1] ، [2] .

وقد وجد العمل حينما أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بمشورته ، وعندما اشتد الحصار وانضم بنو قريظة إلى الأحزاب راسل الرسول صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن أبي حارثة فطلب إليهما الرجوع بقومهم على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة فوافقا ،فأرسل إلى الأنصار يستشيرهم وجاء سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فلما عرض عليهما الأمر قالا : يا رسول الله أهذا أمر تصنعه من أجلنا أم هو أمر أمرك الله به لا بد لنا من العمل به. قال: بل شيء أصنعه لكم، لقد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم فقالا : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأصنام لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يمانعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا شراء أو قرى ،أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام وهدانا إليه وأعزنا به وبك نعطيهم ثلث ثمارنا والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا

---

(١) الآية ٤٧ الروم.

(٢) خاتم النبيين - جـ ٢ ص/٢٩٥.

وبينهم »[1].

ولما حاصر صلى الله عليه وسلم الطائف وطال الحصار استشار نوفل بن معاوية فقال: يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟ فقال: يا رسول الله ثعلب في حُجْر ان أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالرحيل[2]، ولما أذن الرسول في نحر ظهر القوم جاءه عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله لا تفعل ولكن اجمع أزواد الناس وادع الله وبارك، فعمل الرسول صلى الله عليه وسلم بمشورته فلما اجتمعت أزوادهم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها فدعا فيها بالبركة ثم قال: قربوا أوعيتكم. فجاءوا بأوعيتهم، فجعل الرجل يأتي فيأخذ ما شاء من الزاد حتى لا يجد له محملا.

وفي غزوة تبوك أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ولم يلق حربا فلما استشار أصحابه في مجاوزتها إلى ما هو أبعد من ديار الشام قال عمر: إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال: لو كنت أمرت بالسير لم أستشر، فقال عمر: يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الاسلام وقد دنونا منهم، وقد

(١) امتاع الأسماع ص/٢٣٦.

(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص/١٩٧.

أفزعهم دنوك فلو رجعنا في هذه السنة حتى يحدث الله أمرا، فسمع لمشورته وأذن بالعودة إلى المدينة.

وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير في كل أموره، قال أبو هريرة: (ما رأيت أحدا أكثر مشورة من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1].

وعن عبد الله بن عمر قال: (كتب أبو بكر الصديق إلى عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شاورنا في الحرب وعليك به)[2].

صلة الرسول ﷺ كقائد بجنده

إن القواد العظام هم الذين يتربعون على قلوب جنودهم، ويعيشون بداخلها، ويملأون أفئدة الجنود بالحب البالغ.

فصلة الحب بين الجنود والقائد تكون فوق الضبط والربط والنظام. بل هي تيسر الضبط والربط والنظام، وهذه العلاقة القائمة على الحب تؤثر كثيرا في سير المعارك، وفي نتائجها، وفي تقرير مصيرها. ولم يشاهد التاريخ بشرا

---

(١) الترمذي

(٢) رواه البزاز والطبراني - كنز العمال جـ ٣ ص/٤٥١

أحبه جنوده كحب جنود محمد صلى الله عليه وسلم، ولم ير الناس قائدا مثل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يعلم العالمون قائدا في شرق المعمورة أو في غربها أثر في جنوده. عن طريق الحب - هذا التأثير الكبير.

فكل من حول الرسول وكل من عاشره كان على أتم الاستعداد لتقديم الغالي والنفيس للرسول صلى الله عليه وسلم،كان مستعدا أن يضحي بكل ما يملك، مستعدا لأن يقدم نفسه وروحه في أي وقت من الأوقات فداء للرسول صلى الله عليه وسلم، وخاصة في الميادين التي يجب فيها البذل والتضحية والجهاد.

انطلق هذا الحب من قول الله تعالى: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين[١]».

وترجم هذا الحب في السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره فيما يرضي الله سبحانه وتعالى، ترجم هذا الحب في سرعة التلبية والاستجابة لرسول الله صلى الله

---

(١) التوبة - آية رقم ٢٤

عليه وسلم في كل أمر وفي كل قضية وخاصة المواقف العسكرية التي تحتاج إلى سرعة البت والقطع وسرعة الحركة والتنقل، وسرعة المفاجأة، فالإشارة من القائد ماهي إلا أمر من الأمور التي يجب أن يطاع فيها، وأن يكون ذلك موجودا في واقع حياة كل جندي.

ومما زاد من دهش الناس واستغراب القارئين وعجبهم أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا في أمة أمية. وفي أمة ما تعودت الخضوع في نظام والانضباط تحت قيادة، والانتظام في جماعة فلذلك تعجب الناس لما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع جنوده إلى هذا الحال.

وصل الجندي مع قائده إلى حالة نسي فيها شخصيته ومطالبه الخاصة وحاجياته التي يحتاج إليها في دنياه، كان من أعظم رغبات الجندي أن يخرج مع قائده مجاهدا يغبر أقدامه ويعفر وجهه في ميادين الشرف، في ميادين الجهاد.

اصطحب الجندي قائده معه أينما توجه، وأنى اتجه. على معنى انه اصطحب أقواله وأفعاله وأعماله وسيرته معه في كل شأن واتخذه قدوة في كل أمر. وذلك هو الشيء الجديد الذي طرأ على حياة الرجل العربي في علاقته مع رئيسه أو زعيمه أو قائده.

يقف الرسول صلى الله عليه وسلم يصف الصفوف في يوم بدر، ويعدها لملاقاة العدو، وهو في أثناء هذه المهمة التي يقوم بها. يتجلى مقدار حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم... ولنأخذ ذلك الموقف مثلا على ذلك، تقدم سواد بن غزية الصفوف، فدفعه النبي صلى الله عليه وسلم في بطنه، فقال: استو يا سواد بن غزية فقال: أوجعتني يا رسول الله، والذي بعثك بالحق. أقدني: فكشف عن بطنه، وقال: استقد.. إن هذا لأمر عجيب ولشيء غريب أن يطالب الجندي قائده. وهو في ميدان المعركة بهذه الغمزة البسيطة. والنبي يعتقد أنه يقتص منه وكان من الممكن أن يؤجله النبي صلى الله عليه وسلم إلى نهاية المعركة أو من الممكن أن يقول: إن هذا الأمر بسيط وهين - وأنهم قد تعودوا فيما بينهم مثل هذه الأمور البسيطة.

أو أن هذا شيء من مقتضيات المعركة ومن لوازمها؟ أو أن يرده ردا جميلا فيه إنهاء للمسألة بصورة ما. ولكن المسألة غير هذا فلما كشف الرسول ليقتص سواد بالفعل منه، فاعتنقه وقبله، فقال له النبي: ما حملك على ما صنعت فقال: حضر من أمر الله ما قد ترى وخشيت القتل، فأردت أن يكون آخر عهدي بك أن يمس جلدي جلدك وأن

أعتنقك)[1] هذا مظهر من مظاهر حب الجنود لقائدهم في وقت الشدائد.

وفي غزوة أحد. ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكانه. ونال منه المشركون ما نالوا وكسرت رباعيته ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته، وهو ثابت في مكانه لم يزل صلى الله عليه وسلم شبرا واحدا بل وقف في وجه العدو وأصحابه تثوب إليه مرة منهم طائفة وتتفرق عنه مرة.

وثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقول: وجهي دون وجهك ونفسي دون نفسك وعليك السلام غير مودع[2]

ولما أسر زيد بن الدثنة وأخذه المشركون للقتل قال له أبوسفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك، قال: والله ما أحب أن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنا جالس في أهلي.

عندئذ قال زعيم المشركين أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا!!

---

(١) امتاع الاسماع ص/ ٧٩ . ٨٠

(٢) امتاع ص/ ١٣١/ ١٣٢

وفي يوم أحد تأتي هند بنت عمرو بن حرام زوجة عمرو بن الجموح وقد استشهد زوجها وابنها خلاد. وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام، وتسألها السيدة عائشة عن الأمر فتقول: أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا[١]» وسألتها عائشة: من هؤلاء؟

قالت أخي وابني وزوجي[٢]

ولما بعثت قريش عروة بن مسعود الثقفي عام الحديبية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عروة يكلم النبي صلى الله عليه وسلم في أمر قريش وفي إعدادهم وتهيئتهم للغاية، ومما قاله للرسول صلى الله عليه وسلم: وقد لبسوا جلود النمور، يعاهدون ألاَّ تدخلها عليهم عنوة أبدا، والله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. وكان أبو بكر (رضي الله عنه) خلف النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أنحن ننكشف عنه؟! ثم جعل يتناول لحية النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه مما يدل على جرأته وصلفه وخشونته وعبثه.

---

(١) الآية ٢٥ الاحزاب.

(٢) امتاع ص/ ١٤٧

وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية، فكلما مد يده إلى لحية رسول الله يقرع يده ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل ألا تصل إليك.

قام عروة من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه فعاد إلى قريش يقول لهم: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، لقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا[1]

وطبعاً كان موقف النساء من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقل عن ذلك أبدا دفاعا عنه وتضحية من أجله وثباتا معه.

ذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد ابن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة: أخبريني خبرك، فقالت خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون، انْحَزْتُ إلى رسول الله صلى

(١) مختصر سيرة ابن هشام ص/٢٥٤

الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال، وأذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليّ.

قالت رأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور، فقلت من أصابك بهذا. قالت ابن قميئة أقمأه الله لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول: دلوني على محمد. لا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربني هذه الضربة، فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان.

وهكذا وصل القائد عن طريق حب جنوده له إلى ما حقق الأهداف والأغراض ومما زاد الجنود حبا للقائد وتعلقا به، وارتباطا وثيقا بكل ما يقول ويفعل معرفتهم به معرفة حقيقية معرفة عن قرب، بجميع تصرفاته معهم. عرفوه أنه معهم في كل شيء. يشاركهم في السراء والضراء كرجل منهم وكواحد من أفراد الجيش لا يتميز عنهم بشارة ولا علامة ولا بطعام ولا بشراب هو أكثرهم جهدا وأعظمهم بذلا. وأكثرهم عطاءا وأفضلهم وأحسنهم معاملة، وأقلهم أخذا وأخشنهم طعاما وشرابا وملبسا.

جمع الحطب معهم. وحمل الحجارة والتراب في بناء المسجد وفي حفر الخندق حتى غطى التراب بطنه. بل نجده في المقدمة عند الشدائد، فعندما تستعصي على المسلمين الصخرات يأتي هو فيفتتها بضرباته.

ويشاركهم في المشي إلى الجهاد وتكون له نوبة كواحد منهم.

ويقول: «لستما بأقدر مني على المشي ولست بأغنى منكما عن الأجر» حينما يطلبان منه أن يكفياه المشي.

وعندما تشتد المعركة يكون هو في المواجهة ولا ينتقل ولا يتحرك.. يقول علي: «رضي الله عنه»: كنا إذا اشتد البأس، واحمرت الحدق لم يكن أحد أقرب إلى العدو منه صلى الله عليه وسلم.

وفي يوم أحد لم يزل قيد شبر من مكانه وثبت فيه حتى فاء إليه المسلمون وفي يوم حنين يثبت في مكانه ويقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب. ويسوي الصفوف بنفسه. والمواقع التي يقف فيها القوم. كل ذلك يعطينا أنها قيادة تجعل الأصحاب يعتبرونه أحب إليهم من كل شيء حتى من أنفسهم.

ويجعل الناس الآخرين يعجبون لهذا ويصيبهم الوهن

والغرابة لهذا التصرف النادر. إنها القيادة تميل إليها القلوب وتهفو إليها الأفئدة وتفديها الأرواح.

تفتيت قوة العدو في الميدان

القائد الناجح هو الذي يستطيع أن يعرف قوة عدوه. وبناء على هذه المعرفة يدبر أموره وشئونه العسكرية، فإذا كانت قوة عدوه قوة كبيرة هائلة... ضخمة فيتصرف القائد تصرفا يضمن لنفسه النصر، أو يحتفظ بقواته حتى لا تذهب تحت سنابك خيل العدو.

في ضوء هذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتصرف في أعماله العسكرية، ففي يوم الأحزاب أرسل إلى عيينة ابن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان. فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه، وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك. فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث الى السعدين. فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه[1].

وبعد حديث طويل قال له سعد بن معاذ لا نعطيهم إلا

---

(١) ابن هشام ص/ ٢١٨.

السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم..

وهذا العرض من الرسول على غطفان لاشك أوجد خلخلة وزعزعة في نفوس هؤلاء الناس، فهؤلاء المجتمعون على حرب رسول الله ليسوا يدا واحدة، ويمكن أن يعمل الرسول على تفتيت قوتهم، وخاصة بعدما تعلقت نفوسهم بهذا العرض الجديد من الرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول الشيخ أبو زهرة[1]:

« قد أفاد عرض الصلح أمرين عظيمين:

أولهما أن النبي صلى الله عليه وسلم علم عزيمة أصحابه، وأنهم يريدون لقاءهم.

ثانيهما: أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل - والطمع إذا سكن حل العزيمة وقد ترتب على تلك الأطماع. أنهم تململوا لطول الحصار، وجرى بينهم وبين قريش خلاف، وهموا أن يعودوا من حيث جاءوا من غير أن ينالوا شيئا »

لهذا لما جاء نعيم ين مسعود الأشجعي لرسول الله مسلما ليلا. أمره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يخذل الناس، وأذن له أن يقول. فتوجه إلى بني قريظة، وأشار عليهم ألا يقاتلوا

---

(١) خاتم النبيين - جـ٢ ص/٣٠٩

مع قريش وغطفان، حتى يأخذوا منهم رهنا من أشرافهم فقبلوا رأيه واستكتمهم مجيئه إليهم. ثم جاء إلى أبي سفيان في رجال من قريش وأعلمهم أن قريظة قد ندمت على ما كان منها، وأنهم راسلوا محمدا بأن يأخذوا من أشراف قريش وغطفان سبعين رجلا يسلمونهم إليه ليضرب أعناقهم حتى يرد بني النضير إلى ديارهم ويكونون معه حتى يردوا قريشا عنه... وسألهم كتمان أمره.

ثم جاء غطفان وأعلمهم عن بني قريظة بما أعلم به قريشا عنهم وحذرهم أن يدفعوا إليهم رهنا. وبعد مراسلات بين بني قريظة وغطفان كان من نتائجها نجاح مهمة نعيم بن مسعود. ويئس كل منهم من الآخر، واختلف أمرهم.[1]

وفي يوم خيبر وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أول ما نزل الجيش في منطقة بين غطفان واليهود حتى لا تمدهم بجيشها، يقول ابن كثير في السيرة: «أقبل حتى نزل بواد يقال له الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، لأنهم كانوا لهم مظاهرين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغني أن غطفان لما سمعوا بذلك ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه حتى إذا ساروا منقلة، سمعوا

---

(١) بتصرف من الامتاع ص/٣٨-

خلفهم في أموالهم وأهليهم حسا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا، على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلوا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين خيبر[1]

ويقول ابن القيم في زاد المعاد: «سار إلى خيبر في المحرم، فنزل صلى الله عليه وسلم بالرجيع.. (واد بين خيبر وغطفان)، فتخوف إن تمدهم غطفان به حتى أصبح فغدا إليهم[2].

وفي إمتاع الاسماع «فبعث الله على غطفان الرعب. فخرجوا على الصعب والذلول كناية عن هربهم» فذل ذلك عدو الله ابن أبي الحقيق وأيقن بالهلكة[3]

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفد هوازن الذين جاءوا إليه أن يذهبوا إلى مالك بن عوف سيدهم الذي أقام بالطائف ويذكروا له أن الرسول يعفو عنه إن جاءه مسلما ويرد عليه ما أخذ منه.

فلما بلغ ذلك مالكا انسل من ثقيف حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أو بالجعرانة فأسلم وحسن

---

(١) ابن كثير جـ٣ ص /٣٤٥

(٢) جـ٢ ص/١٢٣

(٣) جـ١ ص/٣١٣

إسلامه. فرد الرسول صلى الله عليه وسلم عليه أهله وماله[1]

وبعد ذلك اتجهت حملات الرسول صلى الله عليه وسلم صوب القبائل العربية المتعاقدة مع الفرس والروم بهدف إخضاعها وتنخلع عن تأثير الدولتين الكبيرتين، من ذلك غزوة دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل لحرب قضاعة. وغزوة مؤتة لحرب الروم الذين تجمعوا بأرض الشام على أطراف الجزيرة.

وتحققت أهداف هذه الحملات من حيث إظهار قوة المسلمين. وتمزيق الأحلاف بين هذه القبائل وبين الفرس والروم، كما أصبح للاسلام وجود على حدود الدولتين وألزمت القبائل التي ظلت مع المسحيين على التعاقد مع الإسلام والخضوع له.

ويذكر المؤرخون أن سكان تبوك من الروم وجذام هربوا عند وصوله صلى الله عليه وسلم إليها وذلك راجع إلى ما ظهر عند أول احتكاك فعلي بين المسلمين والروم في غزوة مؤتة فقد شهد الروم أن المسلم يريد أن يموت في سبيل الله ولا يعنيه كيف مات.. مادام قد قتل عدوا قبل موته.

لأن المسلم كان في ذروة الحماس للاسلام بينما كان

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ص ٦٨٣ بتصرف.

الرومي، وإن كان محاربا مدربا إلا أنه لم يكن متحمسا للنزاع بين المذاهب فضلا عن أن الحرب مع الفرس قضت على خيرة المحاربين الرومان فهم لا يقاتلون إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.

وقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم على حدود الامبراطورية عشرين يوما يتحدى من يشاء أن ينازله أو يقاومه، ويعمل على حماية حدود جزيرة العرب.

وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة (العقبة) أحد المقيمين على الحدود، فوجه إليه الرسول رسالة بأن يذعن أو يغزوه. فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب وقدم الهدايا وتقدم بالطاعة، وصالح الرسول وأعطاه الجزية، كما صالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهل جرباء وأذرع، وأعطوه الجزية.

لم يكن بعد انسحاب الروم خوف من هجومهم، ولكن كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخشى انتقاض أكيدر ابن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة الجندل، ومعاونة جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته، فبعث إليه خالد ابن الوليد ومعه أربعمائة وعشرون فارسا لاخضاع اكيدر وأن يعتقله، فذهب خالد إليه وجاء به أسيرا وكان حليفا لهرقل

بعد أن صالح أهل الحصن ولحق بالنبي ومعه الأكيدر، فأقر الرسول صلى الله عليه وسلم ما أمضى خالد وأطلق سراح أكيدر وكتب له أمانا كما كتب لغيره.

وبهذا حقق الرسول صلى الله عليه وسلم تأمين حدود شبه الجزيرة العربية وأقام من هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم،ونذكر كلاما للدكتور مصطفى السباعي في كتابه عظماؤنا في التاريخ ص ١٠٢ يؤيد وجهة نظر أن الرسول كان يفتت قوة أعدائه، ولا يلقاهم جميعا يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن لا يواجه الأعداء جميعا في وقت واحد، فاذا تجمعوا لقتاله حرص على التفريق فيما بينهم بكل الوسائل. حتى إذا أمكنته الفرصة بطش بأقواهم ثم بمن بعدهم حتى يتم له النصر. وبذلك نجت الدعوة في حياته صلى الله عليه وسلم من كثير من المتاعب، وحال دون تألب الأعداء عليه جميعا إلا حين لم يستطع لذلك دفعا... وأنزل الضربات المتتالية بأعداء الدعوة فريقا إثر فريق..»

الحزم والسرعة في مواجهة المشكلات

بعد هزيمة المسلمين في أحد واستشهاد سبعين صحابيا. وإصابة عدد كبير من المسلمين بجراحات بالغة وحالة

المسلمين النفسية المتردية. هذا كله كان أمام الرسول صلى الله عليه وسلم بعد المعركة. وبجوار ذلك سمعة المسلمين بين القبائـل العربية وخاصة المحيطة بالمدنية، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ينتقل بالمسلمين نقلة كبيرة تنطوي على معان كثيرة. وهذه النقلة هي الاتجاه بالمسلمين إلى حمراء الأسد، فأمر من ينادي بالخروج إليها وخرج الرسول فعلاً بمن كان معه بالامس فقط، ورابط في حمراء الأسد ثلاثة أيام وشاع أمر هذه الخرجة بين القبائل العربية، فردت الى المسلمين اعتبارهم ووصل خبرها إلى أبي سفيان وجيشه، ففت في عضده وآثر الاتجاه إلى مكة لايلوي على شيء.

وعند عودة المسلمين من بني المصطلق. أوشك خلاف أن يدب بين المهاجرين والأنصار. وقال عبد الله بن أبي ابن سلول عن الرسول وأصحابه ما قال. وأصبح الناس، وليس لهم حديث إلا ذلك، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم أمام هذا الأمر الذي يعرض وحدة المسلمين للخطر، إلا أن يميت هذه الفتنة في مهدها. فمشى الناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما. كل ذلك ليشغلهم عن الحديث الذي كان

بينهم بالأمس.

ولما ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة ليؤاخذهم بجريرتهم ويعاقبهم على نقضهم العهد وقبل أن يصدر الرسول حكمه تواثبت الأوس، وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم العفو كما عفى عن بني النضير، لان بني قريظة حلفاء الأوس في الجاهلية، فلما كلمته الأوس في ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذاك إلى سعد بن معاذ فحكم فيهم سعد ابن معاذ بما يرضى الله ورسوله وانتهت هذه المشكلة على ما يحبه الله. وفي يوم الفتح كان سعد بن عبادة يحمل راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى وقال: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة.اليوم تُسْتَحَلُّ الحرم، اليوم أذل الله قريشا.

فقال أبو سفيان للنبي عندما حاذاه: زعم سعد ومن معه كذا. وذكر كلام سعد. عند ذلك دفع اللواء إلى ابن سعد (قيس بن سعد بن عبادة) وعزل سعدا عنها. وكان ذلك تصرفا حميداً حل به هذه المشكلة.

مظاهر عبقرية الرسول العسكرية

المظهر الأول ينقسم إلى:

أ - تنظيم الجيش أثناء المعارك:

اعتنى الرسول صلى الله عليه وسلم عناية فائقة بتنظيم الجيش وترتيبه، والضبط والربط فالنصر يعقد بالفريق الأحسن نظاما وترتيبا، ودقة في أداء واجباته. وبدأ المسلمون لأول مرة في بلاد العـرب يقاتلون في صفوف منتظمة. وهذا ما أشار اليه القرآن بقوله: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص»[١]

فقد جعل صلى الله عليه وسلم الجيش يقاتل في صفوف منتظمة، ويقوم بتسويتها ويقوم عوجها بيده وقد وجد سواد بن غزية بارزا من الصف يوم بدر فغمزه بعود في يده وقال له: استقم يا سواد.[٢]

وقبل بناء العريش ليشرف على المعركة ويوجهها من مكان حصين يوم بدر، ولو قدر.. أن حصلت الهزيمة، يرجع إلى المدينة، ويأتي بمن بقي بها فان الرسول خرج لاحدى الطائفتيـن العير أو النفير، ومنعهم الرسول في بدر من أن يبدأوا عدوهم بقتال حتي يأذن لهم - وقد صفهم ليلا.[٣]

---

(١) سورة الصف: ٤

(٢) ابن اسحاق.

(٣) السيرة - ابن كثير جـ٢ ص/٩

وروى الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف قال: صفنا رسول الله (ﷺ) يوم بدر ليلا ».. وروى الإمام أحمد من حديث ابن لهيعة قال: حدثني يزيد بن حبيب أن أسلم أبا عمر حدثه أنه سمع أبا أيوب يقول: صفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر. فبدرت منا بادرة أمام الصف. فنظر اليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « « معي معي »

ومن تعليمات النبي صلى الله عليه وسلم للجيش يوم بدر كما قال ابن اسحاق ألا يحملوا حتى يأمرهم وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل(١). وفي صحيح البخاري: إذا أكثبوكم يعني المشركين، فارموهم، واستبقوا نبلكم(٢). وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن ينضحوهم بالنبل أولا. ثم لا يبدأوا حتى يقربوا منهم وحتى يتأكدوا من إصابة الهدف. وقال لهم يوم خيبر: « ثم الزموا الأرض جلوسا، فاذا غشوكم فانهضوا وكبروا »(٣)

وبلغ من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على النظام أنه كان يشرف بنفسه على ترتيب أوضاع النساء.. اللاتي

---

(١) ص/٤١٦ جـ٢ السيرة النبوية لابن كثير

(٢) ابن كثير جـ٢ ص/٤١٦

(٣) باشميل - فتح خيبر - ص/١٣٥

اشتركن في العمليات، وكان يجعل عليهن قائما على أساس من النظام الدقيق، حتى لا يحدثن هرجا ولا مرجا عند القتال، فيضيع الربط والضبط اللازمان لكل حركة أثناء اللقاء. وقد أعد مكانا للنساء في غزوة أحد، خوفا من الإخلال بالنظام.

ومما حدث في بدر قبوله مشورة الحباب بن المنذر في تغيير المكان. وبناء حوض وتغوير القلب التي في الخلف وأمر أن تقطع أجراس الإبل. لئلا يشغل الناس بها[١] وجعل اللواء في يوم بدر - لمصعب بن عمير، وكان أبيض، وأعطى راية المهاجرين وكانت سوداء لعلي بن أبي طالب. وراية الأنصار للحباب بن المنذر، وجعل على كل فريق رجلا منهم ليأنس كل فريق بصاحبه[٢]

وفي أحد صف النبي صلى الله عليه وسلم الصفوف، وجعل الرماة خلف ظهر الجيش،وعلى رأسهم عبد الله بن جبير وأوصاهم، ألا يتركوا أماكنهم حتى لو رأوا أن السيف يتخطّفهم،وأوصى عبد الله ومن معه بأن ينضحوا عن المسلمين الخيل. وقال له:« انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتوا من خلفنا

---

(١) (٢) جـ٢ ص/١٢٠ أبو زهرة.

فانبت مكانك لا نؤتين من قبلك »[1]

وأمر الجيش ألا يبدأ العدو بقتال، وأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد، وعليهم أن يسمعوا الأوامر التي تصدر إليهم من القيادة ويقوموا بتنفيذها. كأنه كان يعيش مع أحدث الجيوش نظاما في هذه الأيام.

وفي يوم الأحزاب قام هو وصحابته بحفر الخندق وبعض الناس يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم اكتفى بحفر الخندق، وبقي بجواره يرد المعتدين ومن يريد أن يقتحمه وينظم الحراسة والدوريات وهذا أمر مهم جدا أمام تصميم قريش التي جاءت لغزو المدينة بهذه الالآف، ولكن هناك أشياء أخرى قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم منها أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالنساء والذراري أن تكون في أطم. أي في بناية متينة، تكون كالحصون لئلا يكونوا تحت عين بني قريظة ولكيلا يكون المجاهدون في فزع على نسائهم، وذريتهم، ولكيلا يصيبوا منهم غرة.

والنبي صلى الله عليه وسلم أقام سلمة بن أسلم ومعه مائة رجل في حراسة المدينة وأقام زيد بن حارثة ومعه ثلاثمائة رجل أخرى لحراسة المؤمنين من انقضاض اليهود.

---

(١) جـ٢ ص/١٦٨ أبو زهرة.

وله في كل غزوة وحركة نظام جديد يدخله على الجيش بما يتفق مع وضعه ووضع عدوه، ففي يوم الفتح استنفر الناس جميعا: المدينة وما حولها، وبعث اثني عشر من خلصاء أصحابه إلى البادية لاستنفار القبائل.

وعند دخول مكة كان للنظام أثر بالغ على كل من رأى هذا الجيش وخاصة أبا سفيان ومن كان على دربه.

ثم نظم الجيش إلى أربعة ألوية. وجعل على كل لواء رجلا من الرجال المعدودين: الزبير بن العوام، وخالد ابن الوليد، وقيس بن سعدة، وأبا عبيدة عامر بن الجراح.. ودخل هو من المكان الذي دخل منه أبو عبيدة وبهذا التنظيم فتحت مكة بسرعة حتى من حاول القتال سلّم بعد جولات خفيفة لخالد بن الوليد.

ب - الانضباط:

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية للطواف بالبيت، وهذا هو مقصدهم، وذلك هو غايتهم، وأعلنوا عن ذلك وساقوا الهدى أمامهم، وقدموه ليذبح عند الحرم، وليعلم العرب بذلك، ولكن قريشاً رفضت دخول النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بهذه الطريقة.

وبعد السفارة بين الرسول وقريش، جاء سهيل بن

عمرو، وتم عقد الصلح، وتميز الرسول بالانضباط وحبس الأنفاس هو وأغلب المسلمين، عند كتابة العقد واملاء الشروط. وكان هناك بعض المسلمين ومعهم عمر غير مستريحين لهذه الشروط ولهذا الصلح خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم سيدخلون مكة، وسيطوفون بالبيت، ورؤيا الانبياء حق. فكان الرسول يرد على هؤلاء حينما يسألونه بقوله: «أنا رسول الله، ولن أخالف أمره ولن يضعيني»[١] وكان أبو بكر يقول لعمر: الزم غرزه.

وفي أثناء اتجاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وفي ليلة مقمرة أبصر صلى الله عليه وسلم برجل يسير أمامه وعليه شيء يبرق في القمر... فأنكر الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا: من هذا؟ فقيل: أبو عبس بن جبر، فقال صلى الله عليه وسلم أدركوه، قال أبو جبر: وأخذني ما تقدم وما تأخر، وظننت أنه نزل في أمر من السماء، فجعلت أتذكر ما فعلت، حتى لحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال منكرا: مالك تقدم الناس لا تسير معهم؟ فقلت: يا رسول الله: ناقتي نجيبة، فلم يعاتبه الرسول صلى الله عليه وسلم بأكثر من

---

(١) امتاع الأسماع ص/٢٩٢

الحبس الذي ناله على يد رجال الدورية من مقدمة الجيش (خيبر)[1]

وكان الانضباط رائعا في يوم الفتح وأنه لأعظم انضباط في تاريخ الدنيا كلها، مدينة تفتح وكانت محاربة ويدخلها جيش من أربع جهات، ولم يحصل قتال إلا عندما دافع خالد عن نفسه، وقد أمنهم الرسول صلى الله عليه وسلم قبل دخول مكة، وعفا عنهم في حرم الله الآمن حينما قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ولم يحدث في مكة بعد هذا الأمان العام ما يعكّر روعة هذا اليوم العظيم.

المظهر الثاني - الأمن وينقسم الى: -

(أ) الكتمان والسرية:

القائد العسكري الناجح هو الذي يخطط للأعمال التي يقوم بها والتحركات التي يتحركها ويتخذ من الأسباب والوسائل التي تعينه وتساعده على تحقيق ما يخطط له. وما يهدف إليه، وما يسعى لايجاده.

ومن الوسائل التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم واعتمد عليها في كل تحركاته أو أكثرها، السرية التامة الكاملة في تحركاته العسكرية، وإن القواد العسكريين في

---

(١) احمد باشميل ص/١١٦ .

الحروب الحديثة اعتمدوا على ذلك لنجاح خططهم، فمثلا (نابليون) عند تحركه باسطوله إلى مصر أخفى ذلك حتى لا يعلم الانجليز به، وفعلا لم يستطع الاسطول الانجليزي اللحاق به إلا بعد وصوله (أبي قير) بجوار الاسكندرية وقد نزل الجند إلى أرض مصر.

فتحركات الرسول صلى الله عليه وسلم كان لا يحس بها العدو ولا يشعر بها، فيلتفت ليجد جيش المسلمين في منطقته أو على رأسه، «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وهناك سرية سعد بن أبي وقاص التي كانت في السنة الأولى من الهجرة، يقول سعد: خرجت في عشرين رجلا أو واحدوعشرين رجلا من المهاجرين على أقدامهم فكانوايكمنون النهار، ويسيرون الليل حتى صبحوا خمس الخرار (اسم مكان بناحية المدينة) من الجحفة قريباً من خم، يريدون عير قريش ففاتتهم[1]

وهناك الرسائل المختومة التي يعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم رائدا فيها، ومبتكرا لها. والتي يحملها الجيش، ولا يعرف مضمونها، إلا بعد التوجه للعدو، وفي المكان

---

(١) امتاع الاسماع جـ١ ص/٥٣

المذكور، ثم يقوم بفضها القائد المسئول.

ظهر ذلك جليا في سرية عبد الله بن جحش، فقد كتب له النبي صلى الله عليه وسلم كتابا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا.

يقول ابن اسحاق: كانوا ثمانية وأميرهم التاسع، فلما سار يومين بهم فتح الكتاب فاذا به: إذا نظرت في كتابي، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، تترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم.[١]

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بعد ما صلوا صلاة المغرب، فمشوا ليلهم حتى وافوا ذا القصة مع عماية الصبح، فأغاروا على القوم، فأعجزوهم هربا، وأخذوا رجلا، واستاقوا نعما، ووجدوا رثة من متاع وعادوا، فخمس رسول الله الغنيمة، وقسم باقيها، وأسلم الرجل وترك لحاله[٢]

وفي يوم الفتح قال صلى الله عليه وسلم لعائشة: جهزينا، وأخفى أمرك. وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم خذ من

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير - جـ٢ ص/٣٦٦

(٢) امتاع الاسماع - جـ١ ص/٢٦٥

قريش الاخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة »[1]

وأمر صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز، وطوى عنهم الوجه الذي يريد. وقال أبو بكر: يا رسول أليس بيننا وبينهم مدة قال: إنهم غدروا، ونقضوا العهد، فأنا غازيهم، واطو ما ذكرت لك، فظان يظن أنه يريد الشام، وظان يظن سقيفا، وظان يظن هوازن[2].

ولما أصيب خبيب وأصحابه، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا بدمائهم ليصيب من بني لحيان غرة، فسلك طريق الشام ليرى أنه لا يريد بني لحيان، حتى نزل بأرضهم، فوجدهم قد حذروا، وتمنعوا، في رؤس الحبال[3]

ومن الأمور التي تتعلق بفتح مكة، زيادة في الكتمان، مراقبة الطرق إلى مكة، حتى لا يتسرب النبأ إليهم، واحتجاز كل من يشتبه في أمره، والذي وكل إليه هذه المهمة عمر رضي الله عنه فكان عمر بأمر من الرسول يطوف على الطرق، فيقول للحرس، لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه، إلا من سلك إلى مكة فإنه يحتفظ به ويسأل عنه[4].

---

(١) المرجع السابق ص/ ٣٦١

(٢) المرجع السابق ص/٣٦٢

(٣) السيرة/ لابن كثير ص/١٥٦

(٤) الواقدي بتصرف جـ٢ ص/٧٩٦

بهذا الكتمان وتلك السرية وهذا التخفي، نجح النبي صلى الله عليه وسلم نجاحا باهرا في الوصول إلى ماكان يرمي إليه ويهدف إليه، وخاصة عند فتح مكة، ومنع النبي صلى الله عليه وسلم من أن يذاع أي خبر عن تحركات الجيش، أو مقصده أو الأماكن التي ينزل فيها، ولما أقدم حاطب بن أبي بلتعة على فعلته التي فعلها، كاد المسلمون أن يقتلوه، ويعلن عمر عن نفاقه، لولا مقالة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل بدر - فهو بدري - لفتك به وقتله.

يقول الاستاذ /محمود شيت خطاب عن إذاعة أنباء الجيش، في كتابه الرسول القائد: «حذر الاسلام من إذاعة الأسرار العسكرية، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها للقيادة العامة، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا فيما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها، «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا»[1]

وزيادة في التعمية، وتضليل العدو والتمويه عليه بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بسرية عسكرية إلى ناحية شرقي المدنية، فأمر السرية أن تتحرك إلى مكان يقال له بطن

---

(١) الآية ٦٠: الأحزاب.

اضم (وهو واد لأشجع من قبيلة غطفان)[1]

(ب) العيون:

العين مهمتها صعبة وشاقة وتكليف شديد وعسير، عليه أن يذهب إلى أرض العدو أو المكان الذي ينزل فيه، ويختلط به، ويعيش بداخل معسكره فترة حتى يحصل على المعلومات اللازمة، والتي جاء من أجلها.

ففي يوم بدر يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بسبس ابن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء وقد مضيا حتى نزلا بدراً. فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شيئا لهما يستسقيان فيه ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر يتلازمان على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غدا، أو بعد غد، فأعمل لهم، ثم أقضيك الذي لك. قال مجدي: صدقت، ثم خلص بينهما[2]

وفي يوم أحد لما علم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر قريش، أرسل أنسا ومؤنسا ابني فضالة ينتطسان (يتجسسان) خبر قريش. فاعترضا لقريش بالعقيق - واد على ثلاثة أميال من المدينة - وعاد إلى النبي صلى الله عليه

---

(١) فتح مكة - باشميل.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ١ ص/٣٩٨

وسلم فأخبراه. ثم بعث الحباب بن المنذر بن الجموح، فدخل فيهم فحزرهم، وجاءه بعلمهم[1].

وفي يوم الأحزاب بعث النبي صلى الله عليه وسلم حذيفة ابن اليمان، لينظر ما فعل القوم، وما يقولون فدخل عسكرهم في ليلة شديدة البرد، فإذا هم يصطلون على نار لهم والريح لا تقر لهم قدرا ولا بناء وهم يشتورون في الرحيل حتى ارتحلوا، ثم ذهب حذيفة إلى غطفان فوجدهم قد ارتحلوا فأخبر النبي بذلك[2]

وبعد فتح مكة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبائل هوازن وثقيف، ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال قد جمعوا جموعهم لحربه.

حقا إنهم لجموع كثيرة، جمع بينها حرب رسول الله، وإزالة هذا الاسلام والقضاء عليه وهذا عدو لا يستهان به أبدا، ولابد من أن يعرفه ويعرف كل ما يتعلق به.

فبعث النبي إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، فأقام حتى علم وسمع، ما قد أجمعوا عليه من حربه صلى الله عليه

---

(١) امتاع الاسماع ص/١١٥

(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣ ص/٢١٧

وسلم وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ثم أتى رسول فأخبره الخبر..[1]

إن الحصول على المعلومات يحقق هدفين: هدفا مباشرا وهو وضع خطة ضد العدو وهدفا غير مباشر، وهو توفير الأمن لجيوشنا ضد تحركات العدو وخططه، وبالتالي تجنب الوقوع في المفاجآت، فالمعلومات عن العدو ركن مهم من أركان الأمن.

(ج) الطلائع:

القائد الناجح هو الذي يتخذ الطرق السليمة الموصلة للنصر التي تجعله يفوز في المعارك التي يخوضها مع أعدائه، والغلبة عليهم، ويقف التاريخ أمامه وقفة إكبار وإعزاز، ومن هذه الطرق اللازمة الحصول على المعلومات النافعة عن جيش عدوه، فكلما كان المحصول من الاستكشاف دقيقا ومحيطا كانت خطة مواجهة هذه العدو أقرب إلى الكمال.

فالطلائع مهمتها الحصول على المعلومات التي تهم القائد في لقائه مع هذا العدو ورسولنا صلى الله عليه وسلم خير من يعترف له التاريخ بهذه المواقف. فهو قد عرف عدوه وعرف

(١) بتصرف من امتاع الاسماع ص/٢٨٥

عنه كثيرا مما يحتاج إليه في معركته معه.

ففي يوم بدر أسرع هو وأبو بكر يجمعان المعلومات عن قريش مع شيخ كبير يقال له سفيان، وسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن - محمد - منكرا نفسه من الرجل ، فقال له: بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا في يوم كذا فإن صدق الذي أخبرني به، فهو اليوم بمكان كذا، وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا، فإن صدق الذي أخبرني به فهم اليوم بمكان كذا، ولما كان الموقع الذي قال عنه الشيخ إن محمدا به صحيحا، فقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أين توجد قريش من كلام الشيخ.

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم بعثة استطلاعية من علي والزبيروسعد إلى بدر يلتمسون الخبر، فأصابت البعثة غلامين لبني العاص، وسأل الرسول الغلامين: «كم ينحرون كل يوم» قالا: يوما تسعاويوماً عشرا، فعرف الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك أن عدد قريش يتردد بين التسعمائة والألف[1]

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد أنساومؤنساً ابني فضالة، فأخبراه بحالة المشركين ثم بعث الحباب بن

---

(١) امتاع الاسماع ص/٧٦، ٧٧

المنذر بن الجموح وعاد بمعلومات لا تختلف عما أرسله العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه الذي أبلغة فيه نبأ تحرك قريش إليه.

وكانت بعثة سلمة بن سلام هي البعثة الثالثة للاستطلاع في هذه الغزوة، وأبلغت هذه البعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إن طليعة قريش قد قاربت المدينة[١]

وعندما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن خالد ابن نبيح الهذلي يجمع الناس في وطنه (عرنة) ليغزو بهم، بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس ليستطلع الأمر، فسار عبد الله إلى هناك حيث التقى بخالد ودار بينهما حديث عرف منه عبد الله أن خالداً ينوي مهاجمة الرسول صلى الله عليه وسلم فراوغه ثم فاجأه، وقتله،[٢]

ونُمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني قريظة قد نقضوا العهد، فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة، وخوات بين جبير قال: انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحقا ما بلغنا عنهم فان كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين،

---

(١) بتصرف من امتاع الاسماع

(٢) بتصرف من امتاع الاسماع.

وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس، فذهبوا وعرفوا غدر القوم وجاءوا ولحنوا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين[1]

د - اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة:

من فن القيادة الواعية البصيرة أن تسلك في سيرها بالجيش طرقا بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعا لتصرفات العدو أو هجماته.

وقد حاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يهتدي بأهل الخبرة والرجل الخريت في معرفة الطرق، وسلوك ما يصلح له منها، ويمنح الجيش الأمن والسلامة.

ففي الهجرة اتخذ عبد الله بن أريقط دليلا يدله على المسالك والطرق، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد أن يتخذ الأدلة حينما ولاه الجيش المتجه لغزو الروم. ومن وصاياه أيضا له أن يقدم أمامه العيون والطلائع.

ولما ذهب الجيش إلى خيبر، كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجهلون هذه المنطقة ولا يعرفون شيئا عن

---

(١) سيرة ابن كثير - جـ٣ ص/١٩٩، ٢٠٠

طرقها، ولا عن طبيعة البلاد التي سيمرون عليها، لهذا فقد استعانوا بأدلاء أهل خبرة حتى وصل الجيش إلى خيبر آمنا.

« من هؤلاء الأدلاء الذين اختارهم النبي صلى الله عليه وسلم القائد، حسيل بن خارجة وعبد الله بن نعيم، وكلاهما من قبيلة أشجع النجدية التي يرتاد رجالها دائما في الجاهلية منطقة خيبر »[1]

وفي يوم أحد قال صلى الله عليه وسلم: هل من رجل يخرج بنا من كثب، من طريق لا تمر بنا عليهم، فقال أبو خيثمة أنا يا رسول الله. فأخذ يسير: فنفذ في حرة ابن حارثة، وبين أموالهم حتى سلك بهم في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلا منافقا ضريرا. فلما سمع حس رسول الله - قام يحثو في وجوههم التراب...

إلى أن قال صلى الله عليه وسلم: « فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة »[2].

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي. فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت مسيرك، فخرجوا معهم

---

(١) باشميل /خيبر ص/ ١١١

(٢) البخاري ومسلم

العوذ[1] المطافيل. قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا...

ثم قال صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ قال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقا وعرا أجرل[2] بين شعاب، فلما خرجوا منه، وقد شق ذلك على المسلمين، فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي. قال رسول الله: قولوا نستغفر الله، ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال: والله إنها للحطة التي عرضت على بني اسرائيل فلم يقدموها.[3]

وحينما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا سلمة إلى بني أسد أمره بالسير ليلا، والاستخفاء نهارا، وسلوك طريق غير مطروقة حتى لا يعرف عدوهم... بسيره إليهم، ولا يطلع على تحركاته أي فرد من أفراد العدو[4].

هـ - الحراسة:

الرسول صلى الله عليه وسلم كقائد للجيش الإسلامي،

---

(١) العوذ المطافيل: النوق ذوات اللبن معها اولادها. وهي كناية عن النساء معها الأطفال.

(٢) كثيرة الحجارة.

(٣) ابن كثير ص /٣١٤.

(٤) الامتاع ص /١٧٠.

وكمسئول عن حماية المجتمع في المدينة، اهتم اهتماما كبيرا بموضوع الحراسة. واتخذ الأهبة والاستعدادات اللازمة لذلك، خوفا من هجمات العدو وتحسبا لإنقضاضاته التي ينزلها على غرة من المسلمين. فلو اقتضى الأمر أن يقوم هو بنفس هذه المهمة، مهمة الحراسة لقام بها وهو القائد المشغول بكل قضايا الجيش واحتياجاته، ومتطلباته وتموينه إلى غير ذلك من الأمور الحينية.

ففي يوم أحد استعمل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلا بطوفون بالعسكر. وقال صلى الله عليه وسلم حين صلى العشاء: من يحفظنا الليلة؟ فقام ذكوان بن عبد قيس فلبس درعه، وأخذ درقته، فكان يطيف بالعسكر ليلته[1].

وفي يوم الخندق كان صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها، فاذا آذاه البرد دخل بيته، فأدفأته عائشة.. فاذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة يحرسها[2].

وكان يهتم بحراسة المدينة عندما يخرج في غزوة من الغزوات، فكان يقيم حرسا قبل أن يتحرك حتى لا

(١) امتاع الاسماع ص/١١٩

(٢) امتاع الاسماع ص/٢٢٩.

تفاجأ المدينة بوجود الأعداء فيها. ففي ذهابه إلى ابن عُيَيْنة سنة ست من الهجرة، أقام سعد بن عبادة في ثلاثمائة من قومه - يحرسون المدينة خمس ليال حتى يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته[1].

وفي الحديبية كانت الحراسة مناوبة بين ثلاثة من المسلمين من بينهم محمد بن مسلمة الذي ظفر بخمسين رجلا من قريش، خرجوا ليصيبوا غرة من المسلمين فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي الخمسون حتى بعثت قريش بعثمان وعشرة معه من المهاجرين[2].

ولما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق العيون بمجيء قريش يوم أحد أمر صلى الله عليه وسلم بحراسة المدينة حراسة قوية، وبات سعد بن معاذ وأسيدابن حضير وسعد بن عبادة وعليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. وقد يكون في جيش المسلمين حراسة على الحراسة زيادة في الأمن واحتياطا للأمر، وإبعادا للعدو.

---

(١) امتاع الاسماع ص/٢٦٣

(٢) امتاع الاسماع ص/٢٩٠.

(٣) امتاع الاسماع ص/٤٧٠.

وكان صلى الله عليه وسلم استعمل على حرسه بتبوك عباد بن بشر ، وكان يطوف في أصحابه بالعسكر مدة إقامته صلى الله عليه وسلم فسمع صوت تكبير من ورائهم في ليلة. فإذا هو سلكان بن سلامة ، خرج في عشرة على خيولهم يحرسون الحرس فقال صلى الله عليه وسلم رحم الله حرس الحرس في سبيل الله فلكم قيراط من الأجر على من حرستم من الناس جميعا أو دابة »[1]

المظهر الثالث - السرايا ومهمتها:

من الأمور العظيمة التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقر في المدينة - وعلى رأس سبعة أشهر من تمام هجرته - إرسال البعوث والسرايا إلى أماكن متعددة وكانت أعداد هذه السرايا مختلفة ، فقد تزيد حتى تصل إلى ثلاثمائة ، وقد تقل حتى يصل عددها إلى ستة نفر من المسلمين.

وهذه السرايا كان لها أغراض كثيرة متعددة ، من هذه الأغراض إظهار المسلمين بمظهر القوة والمنعة ، وأنهم أصبحوا يتحركون هنا وهنالك ، وقد أمدهم الله بالقوة

---

(١) امتاع الاسماع ص/٤٧٠

والعون،.. ولا بد أن تعلم قريش بهذا التغيير الذي طرأ على الجماعة المسلمة بعد هجرتهم، فقد بدلهم الله من ضعف إلى قوة، ومن قلة إلى كثرة ومن فقر إلى غنى، ومن تحمل للعذاب والصبر عليه وعدم مقاومة الظلم والبغي، إلى إذن بالقتال وحرب هؤلاء المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

وهذه السرايا التي أرسلها الرسول (ﷺ) أخذت تجوب الجزيرة هنا وهنالك تتعرف على الأرض وعلى الشعاب، وعلى مواطن القبائل المتفرقة، وعلى القوة التي تتمتع بها هذه القبائل.

فبعد أن كان الرسول يعرض نفسه في مكة وفي المواسم وفي الأسواق على الناس ليحموه حتى يبلغ دعوة الله أصبح معه أتباع وأصحاب كرام يحملون التبعة معه ويجوبون هذه المناطق معه مرة، ووحدهم مرة أخرى.

وكانت هناك سرايا مهمتها الدعوة إلى الله، يتضح ذلك من حادثة بئر معونة ويوم الرجيع. فقد ذكر ابن هشام عن ابن اسحاق - قال: حدثنا عاصم بن عمرو عن قتادة قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة. فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابعث

معنا نفرا من أصحابك. يفقهوننا في الدين، ويعرفوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الاسلام، فبعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم معهم نفرا ستة - يقول ابن اسحاق، فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرجيع... غدروا بهم، فاستنصروا عليهم هذيلا فلم يرع القوم، وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف... » وكانت النهاية أنهم قتلوا ثلاثة، وأسروا ثلاثة، وقتل واحد من الثلاثة في الطريق إلى مكة والاثنان - زيد وخبيب - قتلتهما قريش بعد الحبس والتعذيب في مكة[1].

وحادثة بئر معونة لا تختلف عن هذه غدرا وخيانة، وذلك أن عامر بن مالك بعد أن عرض عليه الرسول فلم يسلم ولم يبعد، قال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فبعث أربعين رجلا، فكانت نهايتهم الغدر، واستشهدوا جميعا، ولم يبق منهم إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق وعاش حتى قتل يوم الخندق وعمرو بن أمية الضمري، وأنصاري كانا في سرح القوم، فقتل الأنصاري وذهب

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص/١٢٥.

عمرو بن أمية وأخبر الرسول بقصتهم، وما حدث لهم.[1]

وبعض هذه السرايا التي تتصل بقريش من قريب أو بعيد في لقاء حربي، أو لقاء بدون حرب من شأنها أن تعرف شيئا عن المسلمين المستضعفين في مكة أو الذين لم يستطيعوا الخروج مهاجرين، ويتحينون أقرب فرصة يخرجون فيها إلى المدينة.

فكان من هؤلاء المؤمنين الموجودين في مكة من يخرج في متاجر قريش عساهم أن يجدوا سبيلا لأن يلحقوا بالمؤمنين إذا كانت الهجرة فاتتهم عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم فإنها لن تفوتهم من بعد. فقد حدث عند التقاء سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بعير قريش التي انصرف الفريقان فيها ولم يتقابلا، أن فر من القرشيين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرائي حليف بني زهرة، وعتبة ابن غزوان بن جابر المازني وكانا مسلمين، ولكنها توصلا بالكفار إلى المسلمين ليأمنا الايذاء»[2].

وكان من مهمة هذه السرايا تأديب بعض القبائل التي اشتركت مع قريش في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) بتصرف من سيرة بن كثير جـ٣ ص/١٤١ - ١٤٢.

(٢) أبو زهرة - جـ٢ ص /٤٨.

والمسلمين، كما فعل بنو أسد، فقد اشتركوا مع قريش يوم الأحزاب فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا من بني أسد وهو عكاشة بن محصن إليهم ولكنه لم يجدهم حيث قد ارتفعوا إلى أعالي الجبال، فاستاق ابلا لبعضهم عاد بها إلى المدينة.

ولتأديب بعض القبائل التي اعتدت على الدعاة، وقتلوهم كما حدث في بئر معونة وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه لتأديب بني لحيان الذين قاموا بهذه الفعلة الشنعاء ولتأديب القبيلة التي اعتدت على (دحية بن خليفة الكلبي) مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيصر بعد عودته، فسلبوا كل ما معه ولم يبقوا عليه إلا ثوبا خلقا.

وهناك بعض الشخصيات قامت بايذاء النبي صلى الله عليه وسلم والتعرض له بكل قول قبيح، أو تأليب القبائل على المسلمين، وشر هؤلاء لن يقف عند حد، وهم حجر عثرة في تبليغ دعوة الله، وإذا بقوا فسيزدادون عتوا وفسادا، ولا بد من مؤاخذتهم من قريب فاتجهت بعض السرايا للتخلص من (ابن عتك) اليهودي. وسرية لقتل (كعب بن الأشرف) وسرية عبد الله بن عتيك لقتل مؤلب

الاحزاب (أبي رافع) اليهودي.

يقول الشيخ الغزالي مبينا الحكمة من هذه السرايا في كتابه فقه السيرة، والحكمة تتلخص في أمرين:

أولها: أشعار مشركي يثرب ويهودها، وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم... ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها. فإن التربص بالإسلام في المدينة كثر، ولن يصدهم عن النيل منه إلا الخوف وحده.....

والأمر الثاني: من حكمة بعث السرايا - إنذار قريش عقبى طيشها، فقد حاربت الإسلام، ولا تزال تحاربه، ونكلت بالمسلمين في مكة، ثم ظلت ماضية في غيها. فأحب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة ستلحق بهم الأضرار الفادحة، وأنه قد مضى - إلى غير عودة - ذلك العصر الذي كانوا يعتدون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص[١].

ويقول الشيخ أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين: «ولكن هذه السرايا كانت لمناهضة زعماء قريش، إذ كانوا أصحاب

---

(١) فقه السيرة ص ٢٢٨ - ٢٢٩

المتاجر التي تحملها العير من وقت لآخر. ولأن أولئك الزعماء أخرجوا المؤمنين من ديارهم، وأموالهم، فكان حقا على هؤلاء أن يعاملوا الذين أخرجوهم من أموالهم معاملة بالمثل. أو ليأخذوا مقابلا لبعض ما أخذوه، وليذيقوا أولئك الزعماء وبال ما صنعوا».

ويقول: «وكانت هذه السرايا الأولى في السنة الأولى من الهجرة إشعارا لهم بأن الإسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ليرهبوه، ما داموا لم يسالموه بل إنهم لم يرغبوه، وكذلك كانت غزواته الأولى في الأبواء والعشيرة وغطفان، وبدر الأولى فقد كانت خالية من القتل والقتال بل كانت لهذا الإشعار[1].

---

(١) أبو زهرة - جـ٢ - ص /٥٢، ٥٣، ٥٤



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة ـ محرم ١٤٠٠هـ

خاتمة:

إن أهم ما يراد من دراسة هذه السيرة العطرة والسنة المطهرة هو إظهار الأخلاق التي كان عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم وبيان عظيم سلوكه، وتوضيح مواقفه الخالدة، وشرح أعماله المجيدة، وانجازاته المتعددة في الميادين المختلفة.

وإن أعظم ما يجتني من وراء هذه الأبحاث، وابراز خصائص الشخصية المحمدية بكامل مقوماتها، وما كان لها، هو إيجاد -أو المحاولة الصادقة لإيجاد - لبنات مؤمنة صالحة نقية، طاهرة، ونماذج رفيعة وأمثلة حية تصطحب النبي صلى الله عليه وسلم في كل شأن من شئونها، وترجع إليه في كل أمر من أمورها، تحيا مع الأنفاس الربانية، وتعيش مع وحي السماء متمثلة في حياتها أخلاقه، وأعماله وتصرفاته وسلوكه، وكل أنماط حياته.

هذا هو الدور الهام الذي تقع تبعاته على كل فرد مسلم صاحب رأي أو صاحب كلمة، أو صاحب قلم أو صاحب ادارة مسئول رسمي، أو غير رسمي.

إن أهم عمل قام به صاحب هذه السيرة العطرة ﷺ هو إيجاد جيل واع مؤمن بصير، أعده صلوات الله وسلامه عليه للإعطـاء والبـذل والتضحيـة بالمـال والنفس والنفيس

والوقت ، من أجل هذا الإسلام . . .

فلما وجد هذا الجيل اعتدل ميزان العالم ، وتبدلت صفحته ، وتحولت معالمه ، لأن النفس البشرية قد تغيرت وتحولت ، ونظر الإنسان إلى السماء . . . . .

الرّسول والقدوة العُليا

للأستاذ عليوَه مصطفى عليوَه
« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسول صلى الله عليه وسلم
والقدوة العليا

دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع، ما رأيته وأراه من حاجة المسلمين إلى القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، التي أشار اليها القرآن الكريم في قوله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا». الاحزاب/٢٣.

وأمتنا المسلمة تفتقد المثل الأعلى الذي تتخذه منارا في مسيرتها، ودليلا يهديها رشدها، ويصحح لها أخطاءها، وينبهها على ما يجب أن تكون عليه، لتتجنب العثرات، وتحذر العقبات. وليس أرشد للانسانية من إمام يدعوها بعمله أكثر مما يدعوها بقوله، فيكون هو الرائد الذي لا يكذب، والدليل الذي لا يضل، والحذر الذي لا يزل. وقد ضاعت أقوال الدعاة سدى، حين كانوا يقولون مالا يفعلون، أما أولئك القلائل، الذين كانوا كالشمس للدنيا والعافية للناس، فهم أولئك الذين كانت حياتهم مثالا

للايمان والعمل، وهداية في العقيدة والسلوك، ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فسعدت بهم البلاد والعباد، وكانوا كالغيث أينما نزل نفع وجرى الخير في أثره حيثما وقع..

ورسولنا صلى الله عليه وسلم، اصطفاه ربه لحمل أمانته، وتبليغ رسالته، وبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وختم به الرسالات، وأتم به النعمة وأكمل به المنة... فكان جديرا بأن يكون قدوة للانسانية معا «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» اصطنعه الله على عينه، وهيأه لقيادة الدنيا ودعوة الخلق الى الحق..

(الله أعلم حيث يجعل رسالته)

كان قدوة قبل البعثة:

يقول ابن كثير في السيرة النبوية، ص ٢٤٩ جـ١ : وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع أبي طالب يكلؤه ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته..

حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما وأمانة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم عن الفحش والأذى.

ما رؤى ملاحيا ولا مماريا أحدا، حتى سماه قومه الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة،وقد حفظه الله من أوضار

الجاهلية وأرجاسها، وكان صلى الله عليه وسلم يحدث عما كان الله يحفظه به، في صغره وأمر جاهليته فقال: (السيرة لابن كثير جـ١ ص٢٥٠): (لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره وجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لا كم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك - قال: فأخذته فشددته عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي).

ثم يقول ابن كثير: وهذه القصة شبيهة بما في الصحيح عند بناء الكعبة حين كان ينقل هو وعمه العباس، فإن لم تكنها، فهي متقدمة عليها كالتوطئة لها.

أما قصة الكعبة، فيقول ابن كثير: (لما بنيت الكعبة، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينقل الحجارة، فقال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة، ففعل، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: إزاري، فشدَّ عليه إزاره).. أخرجاه في الصحيحين.

ولقد صان الله شبابه، وحفظه من عبث الجاهلية

ولغوها، ومجونها ولهوها - يقول صلى الله عليه وسلم - ابن كثير جـ١ ص ٢٥٣: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء، إلا ليلتين عصمني الله عز وجل فيهما قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، أسمر فيها كما يسمر كل الفتيان) فقال: بلى، قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير؛ فقلت: ما هذا قالوا: تزوج فلان فلانه، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلاّ مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل، فدخلت.. فلما جئت مكة، سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته)..

وقد روى البيهقي بسنده، عن زيد بن حارثة قال: كان

صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا، فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألم تنه؟ قال البيهقي: زاد غيره عن محمد بن عمرو باسناده، قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنما قط، حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه.

وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مع بحيرى، نجد كيف كان يبغض الأصنام فحين قال له بحيرى: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزَّى، إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضها..

حلف الفضول:

تتجلّى القدوة الصالحة في شهوده صلى الله عليه وسلم، ورضاه عنه، والحث على ما يرمى إليه من رد المظالم، والأخذ على أيدي المعتدين، والوقوف مع المظلومين والضعفاء، يدل على ذلك قوله: «لقد شهدت في دار عبد

الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت ».

سبب تسميته بذلك:

يذكر ابن هشام في سيرته المجلد ١ ص ١٣٣ : (تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده، بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا، على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف، حلف الفضول).

ولقد كان حلف الفضول ذا أثر عملي بين الناس، لا يحابي الأقوياء، ولا يخذل الضعفاء، بل كان ينصر المظلومين، ويأخذ لهم حقوقهم وينصفهم.

يذكر ابن هشام جـ١ ص ١٣٤ : «أنه كان بين الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وبين الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان - والوليد يومئذ أمير على المدينة، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه - منازعة

في مال كان بيْنهما بذي المروة (اسم قرية) فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الحسين: احلف لتنصفني من حقي، أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون بحلف الفضول - قال: فقال عبد الله بن الزبير، وهو عند الوليد، حين قال الحسين ما قال: وأنا أحلف بالله، لئن دعا به لآخذن سيفي، ثم لأقومن معه، حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا، قال: فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي، فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة، أنصف الحسين رضي الله عنه من حقه حتى رضي»..

وذكر صاحب «الروض الأنف» في سبب هذا الحلف - هامش ابن هشام ج١ ص١٣٣ - سمى بذلك لأنهم تحالفوا على أن ترد الفضول على أهلها وألا يغزو ظالم مظلوما. وكان حلف الفضول هذا قبل البعثة بعشرين عاما، وكان أكرم حلف وأشرفه، وأول من تكلم به ودعا إليه، الزبير بن عبد المطلب، وكان سببه أن رجلا من زبيد، قدم مكة، ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه

الزبيدي، الأحلاف: عبد الدار، ومخزوما وجمح، وسهما، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزبروه «انتهروه» فلما رأى الزبيدي الشر، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يـــا آل فهر لمظلوم بضاعتـــه
ببطن مكـة نـائي الـدار والنفر
ومحرم أشعـث لم يقـض عمرتـه
يا للرجال وبين الحِجْرِ وَالْحَجَرِ
إن الحرام لمن تمت كرامتـــه
ولا حرام لثوب الفاجر الغـدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مـرة في دار بن جدعان، فصنع لهم طعاما وتعاقدوا، وكان حلف الفضول، وكان بعدها أن أنصفوا الزبيـدي من العاصي.

تحكيمه في وضع الحجر الأسود:

يذكر ابن كثير في السيرة النبوية جـ١ ص ٢٧٣ و ص ٢٧٤ عن «علي بن أبي طالب» قال: لما انهدم البيت بعد

جرهم بنته قريش، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه؟ فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلـم من باب بني شيبة، فأمر بثوب، فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه».

تزكية خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم:

بعد أن جاءه الملك وهو بغار حراء، فقال: «اقرأباسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرجف فؤاده، فدخل على خديجة فقال: زملوني، زملوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، (إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق،) أليس في هذه الكلمات الحسان ما يرشحه للقدوة والإمامة؟ وإنها لكلمات خديجة التي اختارته زوجا لها، على حين رفضت من طلب يدها من الأغنياء والعظماء.

وأنذر عشيرتك الأقربين:

من شأن الداعية أن يأخذ أهله وعشيرته بما يدعو إليه، ليكونوا قدوة طيبة، وأسوة حسنة، إذ كيف يدعو الأباعد، قبل أن يقنع الأقارب، فهم أولى الناس بالاتباع، وأحقهم بالاقتناع، ولقد سار الرسول صلى الله عليه وسلم على الطريق الأمثل في ذلك.

يقول ابن كثير في المجلد الثاني، من مختصر تفسير ابن كثير ص ٦٦١ للأستاذ محمد علي الصابوني.. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل «وأنذر عشيرتك الأقربين» أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فصعد عليه، ثم نادى «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا: نعم - قال: «فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: «تبت يدا أبي لهب وتب». أخرجه الإمام أحمد، ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق بمثله، وروى الإمام أحمد عن

عائشة قالت: لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية «وأنذر عشيرتك الأقربين» دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا، فعم وخص فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله، لا أملك لكم من الله شيئا، إلا أن لكم رحما سأبلها ببلاها»، رواه مسلم وأحمد والترمذي...

إنه قدوة في تحمل المسئولية والمجاهرة بالحق والتعرض للخطر:

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على طعام صنعه لهم، ثم قال لهم: «يا بني عبد المطلب، إني والله، ما أعلم شابا من العرب، جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»، رواه البيهقي وقد رواه أبو جعفر

ابن جرير ، وزاد بعد قوله: «وإني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي».

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبيه ، فذكر القصة على نحو ما تقدم ، إلى أن قال: وبدرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام ، فقال: «أيكم يقضي عني ديني ، ويكون خليفتي في أهلي».

يقول ابن كثير في السيرة النبوية ، جـ١ ص ٤٦٠ ، ومعنى قوله في هذا الحديث « ومن يقضي عني ديني ، ويكون خليفتي في أهلي » ، يعنى إذا مت ، وكأنه صلى الله عليه وسلم ، خشي إذا قام بابلاغ الرسالة إلى مشركي العرب ، أن يقتلوه فاستوثق من يقوم بعده ، بما يصلح أهله ، ويقضي عنه وقد أمنه الله من ذلك في قوله تعالى: « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » المائدة/٦٧

قدوة في الثبات على الحق:

جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن اخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا ، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له يا ابن أخي ، إن قومك قد

جاءوني ، وقالوا كذا وكذا ، فابق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عم لو وضعت الشمس في يميني ، والقمر في يسارى ، ما تركت هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك في طلبه ، » ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي ، فأقبل عليه ، فقال : امض على أمرك ، وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

قدوة في نصر الضعفاء .

قال يونس بن بكير : عن محمد بن اسحق ، حدثنا عبد الملك بن أبي سفيان الثقفي ، قال : قدم رجل من أراش بإبل له الى مكة ، فابتاعها منه أبو جهل ابن هشام ، فمطله بأثمانها ، فأقبل الأراشي حتى وقف على نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في ناحية المسجد ، فقال يا معشر قريش ، من رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام ، فاني غريب وابن سبيل ، وقد غلبني على حقي ، فقال

أهل المجلس: ترى ذلك - إلى رسول الله - يهزأون به صلى الله عليه وسلم، لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب اليه فهو يعديك عليه. فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رأوه قام معه، قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع.. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد فاخرج، فخرج إليه، وما في وجهه قطرة دم، وقد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرجل حقه، قال: لا تبرح حتى أعطيه الذي له، قال فدخل، فخرج إليه بحقه فدفعه إليه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال للأراشي: الحق لشأنك، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرا، فقد أخذت الذي لي.. وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجبا من العجب والله ما هو ألا أن ضرب عليه بابه، فخرج وما معه روحه، فقال: أعط هذا الرجل حقه، فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فأخرج إليه حقه فأعطاه ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل، فقالوا له: ويلك ما لك، فوالله ما رأينا مثل ما صنعت، فقال: ويحكم: والله ما هو إلا أن

ضرب على بابي ، وسمعت صوته فملئت رعبا ، ثم خرجت إليه ، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته - أصل رقبته - ولا أنيابه لفحل قط ، فوالله لو أبيت لأكلني.

قدوة في تحمل الأذى في سبيل الله:

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أوذيت في الله ، وما يؤذى أحد ، وأخفت في الله ، وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة ، ومالي ولبلال ما يأكله ذو كبد ، إلا ما يوارى إبط بلال » وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث حماد ابن سلمة ، وقال الترمذي حسن صحيح. وقال البخاري بسنده عن عروة بن الزبير - سألت ابن عمرو بن العاص فقلت :أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، وأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا

يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب» - سورة غافر ٢٨ - ابن كثير في السيرة جـ١ ص ٤٧٠ وما بعدها.

قدوة في تصبير أصحابه على الأذى.

قال ابن إسحاق: فكانت بنو مخزوم، يخرجون بعمار ابن ياسر وبأبيه وأمه وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول - فيما بلغني -: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا بنان وإسماعيل قالا: سمعنا قيسا يقول: سمعت خباباً يقول: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: «لقد كان من قبلكم، ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه ولكنكم

تستعجلون » السيرة لابن كثير جـ١ ص ٤٩٦ .

قدوة في عزوفه عن المغريات:

إن المؤمن بدعوته ، المخلص لعقيدته ، يقف كالطود الأشم، لا يني عن الجهاد في سبيلها ، لا ينظر إلى الحياة ، وما تحفل به من المغريات ، ولا يعبأ بما تزين به من شهوات ، كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد عرضوا عليه ما تظمأ إليه النفوس من مظاهر الغنى والسلطان .

وروى البيهقي بسنده عن محمد بن كعب ، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا حليما ، قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده بالمسجد ، يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد ، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة - الشرف - في العشيرة والمكان والنسب ، وإنك قد أتيت قومك ، بأمر عظيم فرقت جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال:

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا أبا الوليد، قل، أسمع » قال يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وان كنت تريد به ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يتداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: اسمع مني، قال: أفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، فلما سمع بها عتبة أنصت لها، وألقى بيديه خلفه، أو خلف ظهره معتمدا عليها، ليسمع منه. حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى السجدة فسجدها، ثم قال: « سمعت يا أبا الوليد؟ قال: سمعت قال: « فأنت وذاك ».

ثم قام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف

بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغيّر الوجه الذي ذهب به، فلما جلسوا إليه، قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال:ورائي أني والله قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل، وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم - السيرة لابن كثير جـ١ - ص ٥٠٣ وما بعدها.

قدوة في أمر أصحابه بالهجرة الى الحبشة:

كان صلى الله عليه وسلم عزيزا عليه أن يرى أصحابه يعذبون في دين الله ويفتنون في عقيدتهم، واشتد بلاؤهم في سبيل دينهم، إنهم أحرص على إسلامهم من وطنهم وديارهم وأموالهم، فليتحملوا الصعاب وليركبوا الأخطار وليمخروا البحار وإنه لامتحان عصيب، يدل على مدى ما وصل الإيمان في نفوسهم، وأشربوا حبه في قلوبهم، وربما يظن من في قلبه ريب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغامر بهؤلاء المهاجرين، ويعرضهم للأخطار، ولكن كيف يدفعهم

إلى ذلك ، وفيهم رقية زوج عثمان بن عفــان رضي الله عنه ؛ فقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وحين أبطأ خبرهما عليه ، سأل امرأة من قريش كانت قادمة من هناك عنهما فقالت: يا محمد.. قد رأيت ختنك - صهرك - ومعه امرأته ، قال: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه - الدبابة - أي الضعيفة ، والتي تدب في المشي - وهو يسوقها - فقال صلى الله عليه وسلم: صحبهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام.

قال محمد بن اسحق:

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله عز وجل ، ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة،. فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

فخرج بعد ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله الله بدينهم (السيرة لابن كثير جـ٢ ص ٤).

قدوة في اتخاذ الأسباب وتوكله على الله: « في الهجرة »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ في الأسباب، ويتبع أمر ربه ويسلك سبيل هدايته، فهو سبحانه الذي خلق الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج وما على العبد إلا أن يعمل ويجد، ويجتهد معتمدا على ربه، أو إلى ركنه ويستعين به، والله تعالى هو المقدر وهو المريد، والرسول صلى الله عليه وسلم خطط لهجرته، اتخذ الزاد والراحلة، والصاحب والرفيق والخبير بدروب الطريق، وأعد المكان الذي سيكون فيه هو وصاحبه، وجعل في مكة من يتسمع ما يقول الناس ومن يعفى الأثر بالغنم وهو عامر بن فهيرة وكان في ذلك كله يضرع إلى الله ويلتجىء اليه. روى أبو نعيم من طريق ابراهيم ابن سعد عن محمد بن اسحاق قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجرا إلى الله يريد المدينة قال: « الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئا، اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام، اللهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى صالح خُلُقي فقومني، واليك ربي فحببني وإلى الناس فلا تكلني، رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي

أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل على غضبك، أو تنزل بي سخطك، لك العقبى عندي خير ما استطعت ولا حول ولا قوة الا بك» (السيرة لابن كثير جـ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها).

قال ابن اسحاق: ثم عمدا الى غار ثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر الصديق ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ويريحها عليهما إذا أمسى، فيخبرهما الخبر، وكان عامر بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبدالله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفى عليه.

وقد حكى ابن جرير عن بعضهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبق الصديق إلى غار ثور، وأمر عليا أن يدله على مسيره ليلحقه، فلحقه في أثناء الطريق.

قال ابن اسحاق: وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما، وقد كان

صلى الله عليه وسلم وهو في الغار، يقوي من عزم صاحبه، فحين قال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

قدوة في العمل مع أصحابه:

حينما يكون سيد القوم معهم يشاركهم العمل، يشد سواعدهم، ويقوى عزائمهم ويثير هممهم، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يشترك مع أصحابه في بناء مسجد المدينة، ويأبى إلا أن يدفع ثمن الأرض لأصحابها.

جاء في صحيح البخاري عن الزهري عن عروة، أن المسجد كان مربدا - وهو بيدر التمر - ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة، وهما سهل وسهيل، فساومهما فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى حتى ابتاعه منهما، وبناه مسجدا. (السيرة لابن كثير جـ٢ ص ٣٠٣ - قال: وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول وهو ينقل معهم التراب:

هـــــذا الحمال لاحمال خيـــــبر
هـــــذا أبر ربنـــــا وأطهر.

ويقول:

لا هم إن الأجر أجر الآخرة

فارحم الانصــــــــار والمهاجره

وروى البيهقي بسنده عن الحسن قال: لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد أعانه عليه أصحابه وهو معهم يتناول اللبن حتى اغبر صدره، فقال: ابنوا عريشا كعريش موسى، فقلت للحسن: ما عريش موسى؟ قال: إذا رفع يديه بلغ العريش يعنى السقف.

قدوة في الحدب على أصحابه والدعاء لهم:

إن إمام المسلمين يعيش بهمومهم، ويشاركهم البأساء والنعماء، والضراء والسراء، فكيف بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه ربه بقوله: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وبقوله: «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم» التوبه/١٢٨.

روى البخاري بسنده عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعك أبو بكر وبلال، قالت: فدخلت عليهما فقلت يا أبت كيف تجدك؟ قالت: وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كـــل امرىء مصبـــح في أهلـــه
والموت أدنـــى من شراك نعلـــه.

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليـت شعري هـل أبيـتن ليلة
بواد وحولي إذخر وجليـــــــل
وهـــل أردن يومـــا حيـــاة مجنـــة
وهـــل يَبْدُوَنَّ لي شامـــة وطفيـــل

قالت عائشة: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة» (السيرة لابن كثير جـ٢ ص ٣١٩)..

قدوة في تأليف قلوب أصحابه بالمؤاخاة بينهم:

لم تعرف الدنيا إيثارا ومحبة بين الناس كما عرفت بين المهاجرين والأنصار وما عرف التاريخ تكافلا وتراحما ومودة كما شاهد بينهم، ولم تكتحل عيني الزمان بمثل هذه الصفوة المختارة من الأبرار الأطهار..

روى الامام أحمد عن أنس قال: قال المهاجرون يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في

قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم »، وقال البخاري: عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: « لا » فقالوا أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا إليكم » فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو غير ذلك؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: « هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا: نعم يا رسول الله.

يقول صاحب ظلال القرآن رحمه الله، في قوله تعالى: « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وأموالهم، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ». الحشر/٨ وهي صورة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، وقد خرجوا تاركين أموالهم وديارهم » يبتغون فضلا من الله

ورضوانا، لا ملجأ لهم سواه ولا جناب لهم الا حماه وهم مع أنهم مطاردون قليلون «ينصرون الله ورسوله» بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات، وأضيق الأوقات «أولئك هم الصادقون» الذين قالوا كلمة بألسنتهم وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه صادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس: «والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر /٩.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للانصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى الآفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاما طائرة، ورؤى مجنحة، و مُثُلاً عليا قد صاغها خيال محلق.

«والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم» أي دار الهجرة يثرب مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوؤا فيها الإيمان، وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما

يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون اليه، ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن الى الدار » يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الانصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الايواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصارى إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الايواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع، ومن مال يختصون به كهذا الفيء، فلا يجدون في أنفسهم شيئا من هذا، ولا يقول حسدا ولا ضيقا إنما يقول « شيئا » مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم، والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئا أصلا. « ويؤثرون » على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الانصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا.

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » فهذا الشح شح النفس، هو المعوق عن كل خير، لأن الخير بذل في صورة من الصور، بذل في المال وبذل في العاطفة وبذل في الجهد، وبذل في الحياة عند الاقتضاء، وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائما أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي، ومن يوق شح نفسه، فقد وقى هذا المعوق عن الخير، فانطلق اليه معطيا باذلا كريما وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ».الحشر/١٠

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين كما تبرز أهم خصائص الأمة المسلمة على الاطلاق، في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار، ولم يكونوا قد جاءوا بعد نزول الآية في المدينة، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان، سمة نفوسهم إنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها، ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على

وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته ودعائه بهذه الرحمة وتلك الرأفة (ربنا إنك رؤوف رحيم).

قدوة في استشارة أصحابه:

استشارتهم في غزوة بدر

قال محمد بن اسحاق (تفسير ابن كثير لسورة الأنفال).

لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم: بأبي سفيان مقبلا من الشام، ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليهـا لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يلقى حربا وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمدا قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدا، قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، حتى بلغ واديا

يقال له ذفران، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنـــه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعـدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالـذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد، يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم، خيرا، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشيروا على أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، انا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فاذا وصلت إلينا، فأنت في ذمامنا؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتخوف إلا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدد من بلادهم، فلما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ذلك، قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، فقال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله، يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقول سعد، ونشطه ذلك ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر الى مصارع القوم».

قدوة في أخذه برأى الحباب وإن خالف رأيه:

قال ابن اسحاق: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر، نزل به.

قال ابن اسحاق: فحدثت عن رجال من بني سلمة، أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال يار سول الله، أرأيت هذا المنزل، منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن تتقدم ولا تتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو

الرأي والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله، فان هذا ليس بمنزل، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه، حوضا فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضا على القليب، الذي نزل عليه فملىء ماء ثم قذفوا فيه الآنية..

قال ابن اسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر، أنه حدث أن سعد ابن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، ثم نلقى عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصرونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له بخير، ثم بُنِيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش كان فيه (السيرة لابن كثير جـ٢

ص ٤٠٢ وما بعدها).

قدوة في استشارته أصحابه في الأسرى:

يقول ابن كثير في تفسير سورة الأنفال، عند قوله تعالى: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم..».

لما كان يوم بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، فقدمهم واضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم نارا، ثم ألقهم فيه. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرد عليهم شيئا، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ثم خرج. عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: «فمن

تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم » وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام ، قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال: « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح علىه السلام قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق.

وفي رواية للامام أحمد ذكرها ابن كثير في السيرة جـ٢ ص٤٥٨ فلما كان من الغد ، قال عمر: فغدوت الى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان ، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، فقد عرض عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة.

وأنزل الله تعالى: « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة

والله عزيز حكيم لولا كتاب سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ». الأنفال/ ٦٧/ ٦٨.

وصيته ﷺ بالأسارى:

قال ابن اسحاق: وحدثني نبيه بن وهب أخو بني عبد الدار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل الأسارى فرقهم بين أصحابه وقال: « استوصوا بهم خيرا » قال: وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى - قال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك قال أبو عزيز: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم، خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز، إلا نفحني بها، فأستحي فأردها فيردها عليَّ ما يمسها.. قال ابن هشام: وكان مصعب حين قال لأبي اليسر وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك (السيرة لابن كثير جـ٢ ص ٤٧٥).

قدوة في استشارة أصحابه يوم أحد:

قال صاحب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين (ﷺ) ١٥٢:

لما وصلت الأخبار باقتراب المشركين- من المدينة - جمع عليه السلام أصحابه وأخبرهم الخبر، وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار، ورأى أيضا عبد الله بن أبي.

أما الأحداث، وخصوصا من لم يشهد بدرا منهم، فأشاروا عليه بالخروج، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب.

وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم، لأنهم الأكثرون عددا والأقوون جلدا، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خلون من شوال، وحضهم في خطبتها على الثبات والصبر، قال لهم: «لكم النصر ما صبرتم» ثم دخل حجرته، ولبس عدته فظاهر بين درعين - لبس درعا فوق درع - وتقلد السيف وألقى الترس وراء ظهره. ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج لأمرهم - وقالوا: ردوا الأمر لرسول الله، فما أمر ائتمرنا،

فلما خرج عليه السلام قالوا :يا رسول الله نتبع رأيك ، فقال : ما كان لنبي لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

قدوة في القتال في صفوف المسلمين:

لقد كان صلى الله عليه وسلم يقف مع أصحابه في صفوفهم يشجعهم ويحرضهم على قتال أعداء الله ، ففي غزوة بدر كان يحرض الجيش قائلا : « والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، ومن قتل قتيلا فله سلبه » فقال عمير بن الحمام وبيده تمرات يأكلها : بخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، وقاتل حتى قتل .

وفي غزوة أحد يقول صاحب نور اليقين ص ١٥٥ :

ثم عدل عليه السلام الصفوف ، وخطب المسلمين ، وكان فيما قال: القى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء، وان أبطأ عنها، فاتقوا ربكم وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، اذا اشتكى تداعى له سائر جسده .

ويقول: ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة منهم أبو طلحة الانصاري استمر بين يديه يمنع بجحفته، وكان راميا شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ويقول: وجهي لوجهك فداء، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول عليه السلام: انثرها لأبي طلحة وكان ينظر إلى القوم ليرى ماذا يفعلون، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي ،لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ،نحري دون نحرك ،وممن ثبت سعد بن أبي وقاص، فكان عليه السلام يقول له: ارم عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس، ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري تترس على رسول الله فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن حتى يكثر فيه. وكان يقاتل عن رسول الله زيادة بن الحارث حتى أصابت الجراح مقاتله، فأمر به فأدنى منه، ووسده قدمه حتى مات، وقد أصابه عليه السلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات. أقبل أبي بن خلف يريد قتله، فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه، وقال: خلوا طريقه، فلما قرب منه، ضربه ضربة كانت سبب هلاكه وهو راجع، ولم يقتل رسول الله غيره، لا في هذه الغزوة ولا في غيرها...

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفرا وغطاها ليقع

فيها المسلمون، فوقع الرسول في حفرة منها، فأغمي عليه، وخدشت ركبتاه، فأخذ علي بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله وهما ممن ثبت حتى استوى قائما، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته، فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله، وشج وجهه عليه السلام، وجرحت وجنتاه، بسبب دخول حلقتي المغفر فيهما من ضربة ضربه بها ابن قميئة غضب الله عليه، فجاء إبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما فكسرت في ذلك ثنيتاه، وقال حينئذ عليه السلام: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم؟ فأنزل الله في سورة آل عمران «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون».

وكان أول من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة، كعب ابن مالك الأنصاري، فنادى: يا معشر المسلمين أبشروا، فأشار إليه الرسول أن اصمت، ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب، ومعهم جمع منهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة. وأقبل عليه اذ ذاك عثمان بن عبد المغيرة، يقول أين محمد لا نجوت إن نجا، فعثر به فرسه، ووقع في حفرة فمشى إليه الحارث ابن الصمة وقتله. ولما وصل الشعب جاءت فاطمة، فغسلت

عنه الدم، وكان علي يسكب الماء، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم. ثم أراد عليه السلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب، فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه، فحمله طلحة بن عبيد الله حتى أصعده، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال: لا ينبغي لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك. إه

قدوة في أخذه برأي سلمان رضي الله عنه في حفر الخندق في غزوة الأحزاب وعمله معهم:

أخذ يهود بني النضير على عاتقهم أثارة الأحزاب لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فان بني النضير لم يقر لهم قرار بعد جلائهم عن ديارهم وارث المسلمين لها بعد أن كان في نفوسهم دائمًا أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم، فذهب جمع منهم الى مكة وقابلوا رؤساء قريش، وحرضوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعوهم المساعدة، فوجدوا منهم قبولا ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحا، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، يحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري

وعددهم أربعة آلاف، معهم ثلاثمائة فرس وألف بعير، وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن، الذي جازى إحسان رسول الله كفرا، فقد كان أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمه حتى اذا سمن خفه وحافره، قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه، وكان معه ألف فارس، وتجهزت بنو مرة يرأسها الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع، يرأسهم أبو مسعود بن رخيلة، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وعدة الجميع عشرة الآف محارب، قائدهم العام أبو سفيان.

ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أخبار هذه التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع، أيمكث بالمدينة، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل خندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه. وعمل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا

إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته، رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتسابا له.

قال ابن اسحاق: وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له جعيل، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرا فقالوا:

سماه من بعد جعيل عمرا

وكان للبائس يوما ظهرا

فإذا مروا «بعمرو» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عمرا، وإذا مروا «بظهر» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ظهراً.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل التراب متمثلا بشعر ابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قـــد بغوا علينـــا

وإن أرادوا فتنـــــة أبينـــا

وقال البخاري عن حميد، سمعت أنسا قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة» فقالوا مجيبين له:

نحن الـــــذين بايعوا محمـــــدا

عـــلى الجهـاد مـا بقينـا أبـدا

ثم قال البخاري عن البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر.

وقال البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: أتيت جابرا فقال: انا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة - القطعة الصلبة من الأرض - فجاءواالنبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا

نذوق ذواقا - شيئا من مأكول أو مشروب - فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا أهيل أو أهيم - سائل - ابن هشام ص ١٨٦ ص١٨٧ جـ٢ .

قال ابن اسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسي أنه قال: ضربت ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة ورسول لله صلى الله عليه وسلم قريب مني، فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ، نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، قال: قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان - قال قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح علي باب اليمن، وأما الثانية فان الله فتح علي باب الشام، والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق.

قدوة في استشارة أصحابه في التنازل عن ثلث ثمار المدينة للمشركين:

قال ابن هشام: ص ٢٣٣ من المجلد الثاني:

فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم، كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ومن لا أتهم عن محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له: يا رسول الله، أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا، والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

قدوة في الزام أهل بيته بالتقشف:

يقول جل شأنه: «يأيها النبي قل لأزاجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما». الاحزاب ٢٨/٢٩.

قال النسفي في تفسيره: أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغمّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت.

وقال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة:

وهذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت: فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك - وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: «يأيها النبي قل لأزواجك» الى تمام الآيتين- فقلت له: ففي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت عائشة رضي الله عنها: أنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأةٍ من نسائه، فقال صلى الله عليه وسلم: «إني ذاكر لك امرا فلا عليك إلا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى قال: «يأيها النبي قل لأزواجك» الآيتين، قالت: عائشة رضي الله عنها: فقلت أفي هذا أستأمر أبوي؟ فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن.

وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل

أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس بالباب جلوس، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فدخلا، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه، وهو صلى الله عليه وسلم ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، وقال: «هن حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال: «إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي حتى تستأمري أبويك، قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها «يأيها النبي قل لأزواجك» الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك

ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى لم يبعثني معنفا، ولكن بعثني معلما ميسرا، ولا تسألني أمرأة منهن ما اخترت إلا أخبرتها».

(في غزوة بني المصطلق)

في هذه الغزوة ظهرت قدوته الفريدة في ثلاثة أحداث:

(أ) تأليف قلوب أعدائه حتى أسلموا:

يقول صاحب نور اليقين ص ١٧٤: بلغه عليه السلام، أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشا على حرب المسلمين، في أحد، يجمع الجموع لحربه فخرج له عليه السلام في جمع كثير،وولى على المدينة زيد بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة، وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قط في غزوة قبلها، يرجون أن يصيبوا من عرض الدنيا وفي أثناء المسيرة عليه السلام التقى بعين بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله، ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه وأنهم قتلوا جاسوسه، خاف هو وجيشه خوفا شديدا حتى تفرق عنه بعضهم، ولما عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا فتراموا بالنبل ساعة ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل

واحد، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالا واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة الآف، استعمل الرسول على ضبطها مولاه شقران، وعلى الأسرى بريدة. وكان في نساء المشركين برة بنت الحارث سيد القوم، وقد أخذ من قومها مئتا بنت أسرى وزعت على المسلمين، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم، فان بني المصطلق من أعز العرب دارا، فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جدا، فأراد النبي عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم. فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية، فقال المسلمون: أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمنوا عليهم بالعتق، فكانت جويرة أيمن أمرأة على قومها، كما قالت عائشة رضي الله عنها، وتسبب عن هذا الكرم العظيم، وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم»

(ب) قدوة في محافظته على وحدة المسلمين:

ويقول صاحب نور اليقين في ذلك ص ١٧٥.

إن أجيرا لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج، فضرب الأجير الحليف حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه

الخزرج، واستصرخ الأجير بالمهاجرين، فأقبل الذعر من الفريقين وكادوا يقتتلون، لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ وهي ما يقال في الاستغاثة يالفلان، فأخبر الخبر فقال: دعوا هذه الكلمة فانها منتنة، ثم كلم المضروب حتى أسقطه حقه، وبذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبد الله بن أبي هذا الخصام غضب، وكان عنده رهط من الخزرج فقال: ما رأيت كاليوم مذلة؟ أو قد فعلوها؟ نافِرونا في ديارنا، والله ما نحن والمهاجرين الا كما قال الاول: سمن كلبك يأكلك، وأما والله (لئن رجعنا الى المدنية ليخرجن الأعز منها الأذل) ثم التفت الى من معه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أَحْلَلْتُمُوهم بلادكم، وقاسمتوهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم عرضا للمنايا دون محمد، فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده. وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه، وقال: يا غلام لعلك غضبت عليه، فقلت ما قلت، فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته، قال: لعله أخطأه سمعك. فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أبي، أو أن يأمر

أحدا غيره بقتله فنهاه عن ذلك، وقال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر. يقصد بذلك عليه السلام شغل الناس عن التكلم في هذا الموضوع. فجاءه أسيد بن خضير وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت؟ فقال: أو ما بلغك ما قال صاحبكم به زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز الأذلّ، قال: أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثا حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما. وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبي في أن يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسه واستكبر. وهنا نزل على الرسول سورة (المنافقون) التي فضحت عبد الله بن أبي وإخوانه وصدقت زيد بن أرقم، ولما بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله ابن أبي استأذن رسول الله في قتل أبيه حذرا من أن يكلف بذلك غيره، فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان إلى أبيه.

(جـ) قدوة في التثبت وعدم الأخذ بالشبهة وذلك في حديث الافك:

يقول صاحب نور اليقين ص ١٧٧

وذلك أنهم لما دنوا من المدينة أذن عليه السلام ليلة الرحيل، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها، فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين أنها فيه، لأن النساء كن اذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم، فلم يستنكر القوم خفة الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها وليس بالمنزل داع ولا مجيب، فغلبتها عيناها فنامت، وكان الذي يسير وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المعطل، فأصبح عند منزلها فعرفها، لأنه كان قد رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه، وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحلة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان، والذي تولى

كبر الإفك عبد الله بن أبي ، ولما قدموا المدينة ،مرضت عائشة شهرا والناس يفيضون في قول أهل الإفك ، وهي لا تشعر بشيء ، وكانت تعرف في رسول الله رقة إذا مرضت ، فلم يعطها نصيبا منها في هذا المرض ، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم؟ مما جعلها في ريب عظيم ، فلما نقهت خرجت هي وأم مسطح بن أثاثة أحد أهل الافك للتبرز خارج البيوت ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقالت عائشة : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟فقالت : يا هنتاه أو لم تسمعي ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك ، فأخبرتها الخبر فازدادت مرضا على مرضها ،ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض في بيت أبيها ، فأذن لها ، فسألت أمها فيما يقول الناس ، فقالت : يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقالت عائشة : سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا ؟ وبكت تلك الليلة وأصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، وفي خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته ، فيما يفعل ، فقال له أسامة بن زيد : لما يعلمه من براءة عائشة : «أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيرا » وقال علي بن أبي

طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة، وقال لها: هل رأيت من شيء يريبك؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمضه غير أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجينها فتأتي الدواجن فتأكله، فقام عليه السلام من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي، فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أعذرك منه، فان كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقال سعد بن عبادة الخزرجي، وقال: كذبت لعمرو الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فانك منافق تجادل عن المنافقين وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج، لولا أن رسول الله، نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكنوا، أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، وبينما هي مع أبويها إذ دخل النبي عليه السلام فسلم ثم جلس

فقال: أما بعد يا عائشة ،فإنه بلغني عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ، وتوبي إليه ، فان العبد إذا اعترف وتاب ، تاب الله عليه ، فتقلص دمع عائشة وقالت لأبويها أجيبا رسول الله ، فقالا : والله ما ندري ما نقول ، فقالت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم أني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ،فوالله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حيث قال: « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ثم تحولت واضطجعت على فراشها ، ولم يزاول رسول الله مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقة «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم... الآيات الى قوله « والله يزكي من يشاء والله سميع عليم » النور ١١ - ١٤ فسري عن رسول الله وهو يضحك ، وبشر عائشة بالبراءة ، فقالت لها أمها: قومي فاشكري رسول الله ، قالت: لا والله ، لا أشكر إلا الله الذي برأني ».

قدوة في السياسة والنظر في عواقب الأمور، كما حصل في صلح الحديبية:

يقول عباس العقاد في كتابه، عبقرية محمد ص ٨٨ جـ١ ثانية.

ففي الحديبية تجلى تدبير محمد في سياسة خصومه، وسياسة أتباعه، وفّى على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود، بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره في هذه السنة على المسلمين المصدقين برسالته، بل شمل به كل من أراد الحج، من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها وفصل بذلك بين دعواها، ودعوى القبائل الأخرى، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من: إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية، فليس محمد وأصحابه أناسا معزولين عن النخوة العربية، يضعون من شأنها، ويبطلون مفاخرها، ولكنهم عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم، فاذا خالفوا قريشا في شيء فذلك شأن

قريش وحدهم، أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة وليس هو بشأن القبائل أجمعين... ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من اغضاب العرب على الاسلام بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج، ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها، فها هو ذا محمد نفسه، يأخذ معه المسلمون إلى مكة كما يأخذ معه من يشاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد بيت الله الحرام، فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين.. وقد سمعنا كثيرا في العصور الحديثة على غير وجه الحق والحجة، سمعنا بها في الحركة الهندية التي قام بها غاندي، وتابعه فيها بعض مريديه، حتى كان لها من الأثر في إزعاج الحكومة البريطانية، ما لم يكن للقنابل ولا المشاغبات الدامية...وقيل يومئذ إن غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة على المصلح الروسي الكبير ليو تولستوي.. وقيل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي تحرم إيذاء الحيوان فضلا عن الانسان، قبل أن يشرع ليو تولستوي مذهبه الجديد.. والذين قالوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق

المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندي وتبشيره بتلك المقاومة السلبية، لاعتقادهم أن الاسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكن المثل الذي قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه.. فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع وهو الحكم المتصرف. حيث يختار، وليس الآلة التي يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار... وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجا لا غازيا... يقول ذلك ويكرره، ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد بين العرب وقريش فحسب.. بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك في دفعه أو قبوله أو مهادنته وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه، بالمسالمة والصبر، منعا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى

الصفوة المختارين.

ولما اتفق الطرفان - المسلمون وقريش - على التعاهد والتهادن ،وكانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة (الدبلوماسية) كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين.. دعا بعلي بن أبي طالب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: أمسك، لاأعرف الرحمن الرحيم، بل أكتب: باسمك اللهم.. ثم قال: أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.. فقال سهيل: أمسك: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك...

وروي أن علياً تردد فمسح ما كتب النبي بيده وأمره أن يكتب: محمد بن عبد الله في موضع: محمد رسول الله، ثم تعاهدوا على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه.. ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه من عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه ،ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا سلاح غيرها، ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد

قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب، فيعترف المشركون كرها أو طوعا بصفة النبوة، ولا يردون أحدا من مواليهم، أو قاصريهم يذهب إلى النبي ويلحق بالمسلمين.

ولكنه عهد مهادنة، أو عهد إيقاف أعمال العداء، إلى حين كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر.. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية، في أمثال هذه العهود من إثبات صفة المندوبين التي لا إرغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه، واستئناف مسعاه.. فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله، لنقض بذلك دعوى الهداية الاسلامية، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين.. فان المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشا ليس بمسلم ولكنه مشرك، يشبه قريشا في دينهاوهي أولى به من نبي الاسلام.. أما المسلم الذي يرد إلى المشركين مكرها فانما الصلة التي بينه وبين النبي الإسلام، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع فيه بالبعد والقرب.. فان كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه، فلا خير فيه، وإن كان وثيق الدين فبقي على دينه، فلا خسارة على

المسلمين.. وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط التي حسبته غنما لها وخذلانا لمحمد صلوات الله عليه، فإن المسلمين الذي نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده، قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي أمان في عهد الهدنة بين الطرفين، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبي، لأنهم كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية، ولو قضى العهد بولاية النبي على من ينفر من مسلمي مكة، لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه..

وتم العهد، وعرف من لم يعرف، ما أفاء على الاسلام بعد قليل.. فجهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه..

واستراح النبي من قريش، ففرغ ليهود خيبر وللمالك الاجنبية، يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه، ممن أنكروا بغي قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حربا يبتلون فيها بما لا يطيقون ويوم نزلت الآية الكريمة على إثر اتفاق الحديبية: «إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما سورة الفتح/١ » لم يفقه

الكثيرون معناها في حينها، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم.. ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين، وعلموا ان من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى البعيد..

قدوة في تواضعه ورحمته وعفوه يوم فتح مكة:

يتحدث الأستاذ الغزالي في كتابه فقه السيرة ص ٢٨٨ الطبعة ٢:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله على ناقته، تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله، وبدا عليه التواضع الجم، حتى كاد عثنونه يمس واسطة الرحل، وإن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الفارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين، ليذكره بماض طويل الفصول، كيف خرج مطاردا، وكيف يعود اليوم منتصرا مؤيدا.. وأي كرامة عظمى حفه الله بها في هذا الصباح الميمون، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله تواضعا، وازداد على راحلته خشوعا وانحناء، ويبدو أن هناك عاطفة أخرى

كانت تجيش في بعض الصدور، فان سعد بن عبادة زعيم الأوس، ذكر ما فعل أهل مكة وما فرطوا في جنب الله، ثم شعر بزمام القوة في يده فصاح: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا.. وبلغت هذه الكلمة مُسامع الرسول فقال: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشا، وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفع الى ابنـــه مخافة أن تكون لسعد جولة في الناس، وسار رسول الله فدخل مكة من أعلاها، وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الاخرى.

وسكنت مكة، واستسلم سادتها وأتباعها، وعلت كلمة الله في جنباتها ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق فطوف به، وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله يضربها بقوسه ظهرا لبطن، فتقع على الأرض مهشمة مبعثرة متناثرة، كانت هذه الحجارة قبل ساعة، آلهة مقدسة، وهي الآن جص وتراب وأنقاض يهدمها نبي التوحيد وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن البـاطل كان زهوقا».. ثم أمر بالكعبة ففتحت، فرأى صورا تملؤها، وفيها صورتان لإبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال: - ساخطا على المشركين - قاتلهم الله. والله ما استقسما بها قط، ومحا

ذلك كله، حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف يرقبون قضاءه فيهم، فأمسك بعضادتي الباب - باب الكعبة - وهم تحته فقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم قال: فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء...

قدوة في ثباته يوم حنين، وفي كرمه، وفي معرفته بطبائع الناس:

في كتاب نور اليقين ص ٢٥٤ قال المؤلف:

بهذا الفتح العظيم، وسقوط دولة الأوثان، دانت للاسلام جموع العرب، ودخلوا فيه أفواجا.

أما قبيلتا هوازن وثقيف، فأدركتها حمية الجاهلية، واجتمع الأشراف منهم للشورى، وقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولوا رياستهم مالك بن عوف النصري، فاجتمع له من القبائل جموع كثيرة، فيهم بنو سعد ابن بكر الذين كان رسول الله مسترضعا فيهم، وكان في القوم

دريد بن الصمة المشهور بأصالة الرأي وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي،ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، فلما علم بذلك دريد، سأل مالكا عن السبب. فقال: سقت مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم، لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه، فقال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟إن كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، فلم يقبل مالك مشورته، وجعل النساء صفوفا وراء المقاتلة ووراءهم الإبل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين..

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيفا يستعدون لحربه، أجمع رأيه على المسير اليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غاز، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء، يمشين من غير ضعف يرجون الغنائم، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو، صف عليه السلام الغزاة، وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب،ولواء الخزرج للحباب ابن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، وكذلك أعطى ألوية

العرب الأخرى ، ثم ركب عليه السلام ، بغلته ولبس درعين والبيضة والمغفر .. هذا وقد أعجب المسلمون بكثرتهم ، فلم تغن عنهم شيئا ، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو ، فخرج لهم كمين كان مستترا في شعاب الوادي ومضايقه ، وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر ، فلووا أعنة خيلهم متقهقرين ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت على بغلته في ميدان القتال ، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيع ابن الحارث ،ومعتب بن أبي لهب . وكان العباس آخذا بلجام البغلة وأبو سفيان آخذ بالركاب ، وكان عليه السلام ينادي: إليّ أيها الناس ولا يلوى عليه أحد ، وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت ، أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالاسلام ، والذين لم ينزعوا ربقة الشرك ، فمنهم من فرح ، ومنهم من ساءه هذا الإدبار ، فقال أبو سفيان بن حرب لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال أخ لسفيان بن أمية: الآن بطل السحر ، فقال له صفوان - وهو على شركه - اسكت فض الله فاك - والله لأن يربني رجل من قريش خير من أن يربني رجل من هوازن ، ومر عليه رجل من قريش ، وهو يقول: أبشر بهزيمة

محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبدا ، فغضب صفوان وقال: ويلك أتبشرني بظهورالأعراب ، وقال عكرمة بن أبي جهل لذلك الرجل كونهم لا يجبرونها أبدا ليس بيدك ، الأمر بيد الله ، ليس لمحمد منه شيء ، أن أديل عليه اليوم ، فإن العاقبة له غدا فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث ، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء ، وعقولنا ذاهبة نعبد حجرا لا يضر ولا ينفع ، وبلغت هزيمة بعض الفارين مكة ، كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول:

أنـــا النـــبي لا كـــذب
أنـا ابن عبد المطلـب

ثم قال للعباس: وكان جهوري الصوت: ناد بالانصار يا عباس، فنادى: يا معشر الأنصار ، يا أصحاب بيعة الرضوان ، فأسمع من في الوادي ، وصار الأنصار يقولون: لبيك لبيك ، ويريد كل واحد منهم أن يلوى عنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، وينزل عن بعيره ، ويخلي سبيله ، ويؤم الصوت حتى اجتمع حول رسول الله جمع عظيم منهم وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم يروها ، فكر المسلمون على عدوهم يدا واحدة ، فانتكث فتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا

يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فأخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيرا من المحاربين، وهرب من هرب وجرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوه من عناية الله بالمسلمين.

ثم أمر عليه السلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وجمع ذلك كله بالجعرانة ثم رجع عليه السلام إلى الجعرانة - بعد غزوة الطائف - حيث ترك السبي فأحصاه وخمسه وأعطى منه شيئا كثيرا لأناس ضعف إسلامهم يتألفهم بذلك، وأعطى أناساً لم يسلموا ليحبب إليهم الإسلام، ومن الأولين أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب، ومائة من الابل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد، فقال له: بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب، ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال: يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ

أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا.. فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه، وأعطى عليه السلام عيينة بن حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، وأعطى صفوان بن أمية شعبا مملوءا نعما وشاء كان رآه يرمقه، فقال له: هل يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: هو لك، فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد، وكان سبب إسلامي، وكان عليه السلام يقصد من هذه العطايا، تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية، حتى جعل من الصدقات قسم للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظمى، فإن كثيرين ممن أعطوا في هذا اليوم، ولم يكونوا أشربوا في قلوبهم حب الإسلام، صاروا بعد من أجلاء المسلمين وأعظمهم نفعا، كصفوان بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان والحارث بن هشام وغيرهم، ثم أمر عليه السلام زيد بن ثابت، فأحصى ما بقي من الغنائم وقسمه على الغزاة، بعد أن اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: اقسم علينا حتى ألجؤوه إلى شجرة، فتعلق رداؤه فقال: «ردوا ردائي أيها الناس، فوالله إن كان شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا». ثم قام إلى بعيره وأخذ وبرة من سنامه وقال: «أيها

الناس، والله مالي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة ولا الخمس والخمس مردود عليكم، فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عارا وشقاء ونارا يوم القيامة» فصار كل من أخذ شيئا من الغنائم خلسة يرده ولو كان زهيدا، ثم شرع يقسم، فأصاب الرجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، والفارس ثلاثة أمثال ذلك، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فغضب عليه السلام حتى احمر وجهه، وقال: «ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟» فلم يؤده غضبه أن ينتقم لنفسه، حاشاه عليه السلام من ذلك، بل لم يزد على أن نصح وحذر. وقال له عمر وخالد بن الوليد: دعنا يا رسول الله نضرب عنقه - فقال: لا، لعله أن يكون يصلي: فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال صلى الله عليه وسلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم، ولما أعطى رسول الله من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب، وترك الأنصار غضب بعضهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجب، يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.. فبلغه ذلك، فأمر بجمعهم وليس معهم غيرهم، فلما اجتمعوا قال: يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين

قلوبكم بي؟ إن قريشا حديثو عهد بكفر ومصيبة، واني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أغضبتم يا معشر الأنصار، في أنفسكم، لشيء قليل من الدنيا ألفت به قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزلزل،ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى محلكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلك الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف عليه السلام وتفرقوا.

قدوة في عطفه وودّه وصداقته.

يقول:الأستاذ عباس العقاد في كتابه عبقرية محمدﷺ ١٢١ جـ٢

إذا كان الرجل محبا للناس أهلا لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها.. وإنما تتم له أداة الصداقة بمعيار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانيةومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء، فلا يكفي يأن يحب الناس ليحبوه لأنه قد يحبهم، وفي ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم في حبه..

ولا يكفي أن يكون محبا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها، فقد يكون محبا محبوبا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي نزرا ضعيفا لا تدوم عليه صداقة ولا تستقر عليه علاقة..

إنما تتم أداة الصداقة، بالعاطفة الحية، والذوق السليم، والخلق المتين، وقد كان محمد في هذه الخصال جميعا، مثلا عاليا بين صفوة خلق الله.. كان عطوفا يرأف من حوله ويودهم، ويدوم لهم على المودة طول حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام... كان صبيا في الثانية عشرة يوم سافر عمه فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده، فاصطحبه في سفره، وكان شيخا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى، وليس في سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها، وقد جاوز الأربعين، فيلقاها هاتفا بها أمي أمي ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده.. كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من جميل، ويعطيها من الإبل والشاء ما يغنيها في السنة الجدباء، ولقد وفدت عليه هوازن، وهي مهزومة في وقعة حنين، وفيها عم له من الرضاعة.. لأجل هذا العم من الرضاعة، تشفع النبي إلى المسلمين أن يردوا

السبي من نساء وأبناء واشترى السبي ممن أبى رده إلا بمال.. وحضنته في طفولته جارية عجماء، فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه فقال لأصحابه: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن» وما زال يناديها: يا أمه يا أمه كلما رآها، وتحدث إليها، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله، وهي لا تدري كيف تدعو بلكنتها الأعجمية فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغى اليها ويعطف عليها.. وكان هذا عطفه على كل ضعيف، ولو لم يذكره بحنان الطفولة، ورحم الرضاع، فما نهر خادما، ولا ضرب أحدا، وقال أنس: «خدمت النبي عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته ولا لشيء تركته: لم تركته»... وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسا، صافي القلب إذا كره شيئا رؤي ذلك في وجهه، وإذا رضي عرف من حوله رضاه.. وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة، ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوي الرحم، فكان يصفى الاناء للهرة لتشرب. وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه، وأوصى المسلمين: «إذا ركبتم هذه الدواب فاعطوها حقها في المنازل ولا

تكونوا عليها شياطين، وكرر الوصايا بها أن: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة» وقال: «إن الله غفر لامرأة مومسة، مرت بكلب على رأس ركي يلهث قد كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك».. وقال في هذا المعنى: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».. لا بل شمل عطفه الجماد، كأنه من الأحياء، فكانت له قصعة يقال لها الغراء، وكان له سيف محلى يقال له ذو الفقار، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول، وكان له سرج يسمى الداج، وبساط يسمى الكز، وركوة تسمى الصادر، ومرآة تسمى المدلة، ومقراض يسمى الجامع وقضيب يسمى المشوق.. وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء، معنى الالفة التي تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأنها لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها. كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب..

هذه العاطفة الإنسانية التي رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هي كل أداة الصداقة في تلك

النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم، يضارعها رفعة ونبلا، ويتمثل- فيما يرجع إلى علاقات النبي بالناس- في رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود..

« كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده، وناوله إياها، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده »..

« وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال ».. « وإذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته »..

« وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، وأصبر الناس على أقدار الناس » يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه: « من اطلع في كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع في النار » ومع العاطفة الانسانية، والذوق السليم والأدب الكريم سمت جميل ونظافة بالغة، وحرص على أن يراه الناس في أجمل مرآه..

ومع هذا كله، أمانة يثق بها العدو، فما بال الصديق؟ وحسبك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد في سربه، حتى رد الأمانات إلى أصحابها، وقد يكون في ردها ما

ينبههم إلى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة، وهذا إلى اشتهاره بالأمانة في صباه، حتى سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغي لداعيها أمثال هذه الصفات.

وزيد بن حارثة الذي خطف من أهله وهو صغير، ثم اهتدى إليه أبوه، واهتدى هو إلى أبيه، على لهفة الشوق بعد يأس طويل، فلما وجب أن يختار بين الرجعة إلى آله وبين البقاء مع سيده «محمد» اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته، وهو شريد لا يرى ذويه، ولا يدري من هم ذووه.

وكان لا يغني من لا زموه أن يلزموه في الحياة، حتى يثقوا من ملازمتهم إياه بعد الممات فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه، وألح عليه الحزن في ليله ونهاره. فلما سأله السيد العطوف، يستفسره علة جزنه ونحوله، قال في طهارة الأبرار: «إني إذا لم أرك اشتقت واستوحشت وحشة عظيمة فذكرت الآخرة، حيث لا أراك هناك لأني ان دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، فلاأراك» ورويت هذه القصة في أسباب نزول الآية الكريمة: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » النساء/ ٦٩ .

وأدرك الموت بلالا ، فأحاط به أهله يصيحون: وا كرباه وهو يجيبهم: واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه » .

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الانسان والانسان ، لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه في هذا الباب ، فقد بلغ من امتلاء القلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب ، أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة ، فينعى اليها خاصة أهلها وهي تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبي وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الاخوة وبني الأم الاَّ أننا عنينا محبة الصداقة في هذا الباب لأنها هي المحبة التي جعلت كثيرا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم إياه واطمئنانهم اليه ، فكانت سابقة في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والايمان .

لقد غدرت قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا إليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره ، لا إكراه له ولا بغي عليه ، فقتلوا جميعا وجيء بأحدهم زيد بن الدثنة أسيرا ليباع ،فاشتراه صفوان بن

أمية ليقتله بأبيه، ونصب للقتل، فسأله أبو سفيان مستهزئا: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا الآن عندنا في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فأجابه زيد:
« والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي »... فصاح أبو سفيان دهشا: « ما رأيت من الناس أحدا يحب أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمدا ».

قدوة بين أتباعه في العمل والرحمة وكل ما يخفف عنهم:

كان صلى الله عليه وسلم يدين نفسه، بما يدين به أصغر أتباعه.. روى أنه كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل يا رسول الله عليّ ذبحها وقال آخر: عليَّ سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال عليه السلام: وعليَّ جمع الحطب - فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، قال: علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » وها هو صلى الله عليه وسلم، يجعل قضاء حوائج الناس أمانا من عذاب الله أو كما قال: «إن لله تعالى عبادا اختصهم بحوائج الناس، يفزع إليهم الناس في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله ».

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات، ولكنه علم كذلك» ان الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس، أفسدهم، فوكل الضمائر الى أصحابها وإلى الله وحاسب الناس بما يجدي فيه الحساب.

سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم قائلا: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النارفليأخذها أو فليتركها».

وإذا كان اللاغطون اليوم يكثرون من الحديث عن حرية الفكر، ويحسبونها كشفا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به ما لم يتكلموا أو يعملوا...

فهذا الذي يحسبونه كشفا من كشوف العصر الأخير، قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرنا، وشرّعه لأمته في أحاديثه، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به» وزعموا أن تقديم الرحمة على العدل في تطبيق الشريعة، دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها، وهي دعوة النبي العربي التي كررها ولم يدع قط إلى غيرها فقال:

«إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي» وقال: إن الله تعالى رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه مالا يعطي على العنف» وقال: «إن الله تعالى لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا «وروى عنه صاحب من أصحابه، أنه ما خير بين حكمين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه خرق للدين».

وكان يوصي بالضعفاء ويقول لصحبه: «ابغوني في الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم «ويذم الترفع على الخدم والفقراء» فما استكبر من أكل مع خادمة وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاة فحلبها».

لكنه مع الرحمة بالصغير، لا ينسى حق الكبير: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا».

قدوته كزوج:

يجعل الرسول صلى اللهوسلم حسن المعاملة للزوجة قاعدة لأتباعه فيقول: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخيارهم خيارهم لنسائهم». ويأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن «المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها».

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها في المنظر الـذي يروقها فقال عليه السلام مما قال في هذا المعنى وهو كثير: «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم». وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة، أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور «اذا خطب أحـدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنّه يخضب».

وبلغ من رعاية شعورها، ومداراة خجلها التي فطرت عليه، أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه، لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلب الرجل منها،: «فاذا جامع أحدكم أهله، فليصدقها، ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها، فلا يعجلها حتى تقضي حاجتها».

وكان تأديبه للمسلمين في هذه الصلة، غاية في الكياسة والترفق، فقال مما قال في هذا المعنى: «اذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة.. الكيس الكيس»

وكان صلى الله عليه وسلم قدوة لأتباعه، ومثلا أعلى لهـم، كان يشفق على نسائه أن يرينه غير باسم في وجوههن،

ويزورهن جميعا في الصباح وفي المساء وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ، ضحاكا بساما » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ولم يجعل من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه ، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهم يخاطبن رسول الله في بعض الأحايين ، فكانت منهن من تقول له أمام أبيها : « تكلم ولا تقل إلا حقا » ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها .. ومن تبلغ في الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته ، فيعجب لهن ، ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترىء ، كما يجترىء الزوجات الأخريات ، وإذا رأى النبي غضبا كهذا من جرأة كتلك ، كف من غضب الأب وقال له : « ما لهذا دعوتك » .. وكان يتولى خدمة البيت معهن ، أو كما قال : « خدمتك زوجتك صدقة » .

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن ، وهو ميل قلبه « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك » .

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن ، بعث اليهن فتلطف في سؤالهن : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » ليقلن له عند عائشة ، ويأذن له في الإقامة ببيتها ، ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض

لما كان في ذلك من حرج.

قدوة في أبوته:

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم، أكرم الآباء بما طبع عليه من رحمة وبما صاغه الله عليه من رأفة «بالمؤمنين رؤوف رحيم».

يقول العقاد في كتابه عبقرية محمد ص ١٨١ جـ٢: ومن الناس من لا يكون صديقا صالحا، ولا سيدا صالحا، ولا زوجا صالحا، ولكنه أب صالح بربنيه.. لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام إلى المودة، وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لا يشفق على أحد.. فكيف تكون الأبوة في نفس صلحت للصداقة، وصلحت للسيادة، وصلحت للزوجية، لأنها تصلح للعطف الذي يعم القريب والغريب، ويشمل القوي والضعيف؟ ذلك أن نعلم كيف يفرح بأبنائه.. ونعلم كيف يحزن حين يفجع في أولئك الأبناء، ومن الراجح أن العطف الأبوي لم يتمثل قط في مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل في مولد ابنه الذي سماه باسم جده الأكبر أملا في أن يصبح بعده خليفته الأكبر، وفعل العطف الأبوي قد تمثل في تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله في استقبال يوم ميلاده..

ثم يقول: ص ١٨٨ وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال، كان الحزن الوجيع يوم الوداع..

خرج الرجل الذي اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه، خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجرة الأبوي قبل أن يودعه حجر التراب وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال: يا جبل، لو كان بك مثل ما بي لهدك، ولكن إنا لله وانا اليه راجعون..

أي والله، إنها لأحدى الفواقر التي يحملها اللحم والدم، ولا تحملها صخور الجبال، وصرخ أسامة حين بكى رسول الله، فنهاه رسول الله وقال: البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان.. حزن كما ينبغي أن يحزن... أما الحزن الذي لا ينبغي له فهو الصراخ الذي نهى عنه، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم، فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته، ويقول الأب الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه، كلا.. إن الشمس والقمر، آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته.

ثم يقول: ص ١٨٩:

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة، وقد دخل عليه فركب ظهره، وهو ساجد في صلاته - إن النبي في صلاته لهو

النبي في المقام الأسنى، وإن النبي في مقامه الاسنى ليشفق أن يشغل الصبي عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل، الصبي عن ظهره غير معجل، ويسأله بعض أصحابه: لقد أطلت سجودك؟ فيقول: إنَ ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله..

أرأيت أن فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد؟.. أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها في مشيته وسمته... تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات.. يختصها النبي مناجاته في عشية وفاته: إني مفارق الدنيا فتبكي.. إنك لاحقة بي فتضحك.. في هذا الضحك وفي ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة، أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء.. سرها بنبوته، وسرها بأبوته، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء.. وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء، وأكرم الآباء.

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعلم أتباعه كيف تكون رحمة الله بعباده..روى البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب: قدم على رسول الله بسبي، فاذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها، إذا وجدت صبيا في السبي، فألزقته ببطنها فأرضعته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال: فالله تعالى أرحم من هذه بولدها». وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة: «قبل رسول الله الحسن أو الحسين بن علي، وعنده الأقرع ابن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا قط، فنظر إليه رسول الله وقال: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم» وفي رواية «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك»؟

ولقد أكرم الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا العاص ابن الربيع زوج ابنته زينب رضي الله عنها، حيث وقع أسيرا إكراما لابنته..

يقول ابن هشام ص ٦٥٢ المجلد الأول: وكان الاسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت، وبين أبي العاص بن الربيع إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرق بينهما فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما صارت قريش إلى بدر صار فيهم أبو العاص بن الربيع، فأصيب في الأسارى يوم بدر، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن اسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم، رق لها رقة شديدة، وقال: أن أردتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها، فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها.

قدوة في معاملته للخدم والرقيق.

لقد كانت وصيته بهم، وحدبه عليهم، مما لم تعرفه الإنسانية في تاريخها ولم تكتحل عين الدنيا بأروع ولا أجمل من معاملته لهم، وإحسانه إليهم، يقول صلى الله عليه وسلم: «هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم، واتقوا الله في الضعيفين: النساء والرقيق».

يقول العقاد في كتابه: عبقرية محمد ص ١٩٥ جـ١:

إن كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التي ظفر بها خدم محمد وعبيده، ومن من الآباء يحسن إلى أبنائه خيرا من إحسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة؟ فقد أعتق زيدا ورآه أهلا للزواج بعقيلةٍ من أقرب قريباته إليه، وأولاهن بحدبه وتوقيره، وهي التي رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لديه، فلم يعطه الحرية وكفى، ولم يعطه المساواة في العيش وكفى، بل رفعه إلى المنزلة الاجتماعية التي يرتفع إليها السادة، ولا يثبتها شيء كما يثبتها شرف المصاهرة.

ثم حفظ هذا البر الأبوي لابنه أسامة، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين، وفي الجيش طائفة من أبناء الصحابة، فلو كان للنبي ولد في سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة، ولا ميَّزه أشرف من هذا التمييز.

ثم لم نعد الواقع، ولا تجوزنا في الوصف، حين قلنا إن الابن لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده، فقد عرف زيد فعلا أن محمداً خير من أب، وخير من أسرة كاملة، يرجع إليها وترجع إليه، فبقي معه ولم يذهب مع أبيه، ولم يبق معه ايثارا لبركة النبوة، فان محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد، وآثره على جميع آله، وإنما بقي

معه لأنه الإنسان الذي يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الانسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند الآخرين.

إن حب الوالد لولديه، وراثة ألوف الألوف من الأجيال، بل وراثة الحياة في جميع الأحياء، فاذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوي من القوة، فقد بلغ الذروة العليا التي لا متسع فوقها لراق.

لقد خيَّرت شريعة الاسلام المحسنين بين المن واعتاق الأسرى، وبين الفداء بالمال أو المبادلة، فأيها اختار المالك، فهو إحسان.

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه، فأعتق كل أسير صار إلى حوزته، وزاد على العتق، تلك الرحمة الأبوية التي شملت كل منتم إليه، ولم يستبح في غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزير، وربما كانت كلماته للخادم المخالف أقرب إلى الملاطفة منها إلى العقاب، ومن ذلك قصة الوصيفة التي أرسلها فأبطأت في الطريق،. فما زاد على أن قال لها حين عادت: «لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك». ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشيء الكثير.

ولكن محمدا يخشى القصاص اذا استباحه في معاملة وصيفة تهمل أمره وهو الذي لا يهمل له أمر عند سيادة الشرفاء.

وروى أنس أن النبي أرسله في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق «واذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابي من ورائي فنظرت إليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فقال: يا أنيس اذهب حيث أمرتك» كلمة أمر لا يقولها لخادمه، إلا وقد ناداه مدللا، وقابله ضاحكا، كأنه يعتب على قرين، وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام.. أهـ.

وعن أبي مسعود البدري: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي: اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الخادم، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله تعالى، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار».

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يكره أن تقبل يداه، مخافة أن تجري العادة بهذا بين الناس، فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم، فاشترى سراويل، وقال للوزان: زِنْ وأرجح.. فوثب الوزان إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذب يده، وقال:

هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله، فقال: « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » ولقد قال صلى الله عليه وسلم:
« انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد »

وها هو صلى الله عليه وسلم يزور خادمه أنس، ويداعب أخاه الصغير أبا عمير.... قال أنس بن مالك رضي الله عنه « دخل النبي عليه السلام على أمي، فوجد أخي أبا عمير حزينا، فقال: يا أم سليم ما بال أبي عمير حزينا »؟فقالت: يا رسول الله، مات نغيره - تعنى طائرا كان يلعب به - فقال صلى الله عليه وسلم: أبا عمير ما فعل النغير؟ وكان كلما رآه قال له ذلك..

قدوة في مزاحه ودعابته.

كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا.. وكان يبتسم لدعابة وقعت من أصحابه، ويدخل عليهم السرور..... جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل المسجد، وأناخ راحلته بفنائه، فقال بعض الصحابة « لنعيمان » وهو ابن عمرو أشهر الانصار بالدعابة، لو نحرتها فأكلناها؟ فإنا قد قرمنا إلى اللحم - اشتدت

شهوتنا إليه - ويغرم النبي صلى الله عليه وسلم حقها، فنحرها نعيمان وخرج الأعرابي فرأى راحلته، فصاح واعقراه يا محمد.. فخرج النبي يسأل: من فعل هذا؟ قالوا: نعيمان ،فأتبعه النبي حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد، فأشار إليه رجل ورفع صوته: ما رأيته يا رسول الله «وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تعفَّر وجهه بالتراب فقال: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني» فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك، ثم غرم ثمن الراحلة.

ونعيمان هذا هو الذي باع عاملا لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل إلى النبي لا محالة.. سافر أبو بكر الى بصرى تاجرا ومعه نعيمان، وسويط بن حرملة عامله على زاده، فجاءه نعيمان وطلب إليه طعاما فأباه عليه حتى يأتي أبو بكر فأقسم نعيمان ليغيظنه، وذهب إلى قوم وقال تشترون مني عبدا لي؟ قالوا: نعم - قال: «انه عبد له كلام، وهو قائل لكم: لست بعبده، أنا رجل حر.. إلى أشباه ذلك، فان كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه منه ولا

تفسدوا علي عبدي، قالوا: لا، بل نشتريه ولا ننظر في قوله فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم أراهم إياه، فوضعوا عمامته في عنقه ولم يحفلوا بقولـــــه، وجعلوا كلما قال لهم: أنا حر إنه يتهزأ ولست أنا بعبده » سخروا منه وقالوا: بل عرفنا خبرك، فدع عنك اللجاجة.. فلما جاء أبو بكر سأل عنه، فقص عليه نعيمان قصته، وذهبوا جميعا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه، ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعلة نعيمان وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه.

وقال صلى الله عليه وسلم لعمته صفية: لا تدخل الجنة عجوز.. فبكت فقال لها وهو يضحك: الله تعالى يقول: « إنا أنشأناهن إنشاء، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » ففهمت ما أراد، وثابت إلى الرضا والرجاء.

وطلب إليه بعضهم أن يجعله على بعير، فوعده أن يحمله على ولد الناقة، فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة، فقال: وهل تلد الإبل الا النوق؟ وكان صلى الله عليه وسلم يقول لحاضنته السوداء، أم أيمن وهي عجوز: « غطى قناعك يا أم أيمن ».

وسمعها في يوم حنين تنادي بلكنتها الأعجمية: « سبت الله أقدامكم » فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغي إليها

ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف وأقبل عليها يقول: اسكتي يا أم أيمن، فإنك عسراء اللسان » فكانت هذه الدعابة في ذلك الموقف المرهوب، كأنها ترتيب سيد الفصحاء، على تلك اللكنة البريئة

قدوة في آدابه الاجتماعية:

يقول العقاد، رحمه الله، في كتابه عبقرية محمد ص ٢١٨ جـ٢

وكان في آدابه الاجتماعيـة قدوة الرجل المهذب في كل زمان، فلم ير قط مادا رجليه بين أصحابه، وتعود كلما زار أحدا ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ في طعام ولا شراب، ولا يتنفس في إناء، وإذا أخذه العطاس، وضع يده أو ثوبه على فيه. وربما نهض بالليل، فيشوص فاهه بالسواك، ولا يزال يستاك ويوصي بالاستياك، بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب ويتحرى النظافة، ويقول لصحبه: «اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار ».

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل في شئون عرضية، لا تتصل بلباب الذوق والشعور، فيأكلون في جيل بأصابع اليد، ويأكلون في الجيل الآخر بالشوكة

والسكين، ويخرج أناس بالثياب السود، ويخرج غيرهم بالثياب البيض، هي عرضيات يقاس بها عرف البيئة، ولا يقاسيها تهذيب الطباع فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة، ومن جيل لجيل، وإنما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن، وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب في كل أمة وفي كل زمان ومكان.. فلم يكن يهفو في حق أحد، ولم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل في أصدق معانيه.

قدوة في الزهد والإيمان:

يقول العقـاد رحمه الله في كتابه «عبقرية محمد» ﷺ ١٢٢ جـ٢:

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس، ويزهد في نعمة العيش وهي لله بين يديه، فقد ثبت أن محمدا لم يستمتع بدنياه، ولم يشبع ثلاثة أيام تباعا حتى مضى لسبيله.. وقالت عائشة رضي الله عنها: «لقد كنت أبكي رحمة له مما أرى به أو أمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول: نفسي لـك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك» فيقول: «يا عائشة، مالي وللدنيا.. إخواني من

أولى العزم من الرسل، صبروا على ما هو أشد من هذا».

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته في بيته ليلة عرسها: «... فإذا جرة فيها شيء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب، فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته في البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه».

رآه عمر، وقد أثر في جنبه حصير فقال له: «يا رسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا الحصير، وفارس والروم، قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله».. فاستوى جالسا وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».

ولقد مات ودرعه مرهونة، ولا ميراث لأهله، مما ترك من عقار.، وهو قليل...

قدوة في ضراعته وذكره لله تعالى في كل حال:

كان صلى الله عليه وسلم، اذا خرج من المنزل كما تقول أم سلمة رضي لله عنها: ما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيتي، إلا رفع طرفه إلى السماء وقال: «اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو

أظلم، أو أجهل أو يجهل علي » رواه الأربعة - وقال الترمذي: حسن صحيح.

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه عند دخول المنزل فيقول فيما أخرجه أبو داود عن أبي مالك الأشعرى: « إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، بسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهل منزله ».

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من النوم يقول: « الحمد لله الذي ردَّ اليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره ».

وكان إذا انتهى من الطعام يقول: « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ».

وكان إذا عاد من الخلاء يقول: « الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه ».

وكان إذا لبس ثوبا جديدا يقول: الحمد لله الذي كساني هذا ، ورزقني إياه من غير حول مني ولا قوة ».

وكان إذا عاد من سفر يقول: « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ».

وكان إذا عصفت الريح يقول فيما روته عائشة رضي الله

عنه: « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » رواه مسلم.

وكان اذا سمع صوت الرعد يقول: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك » رواه الترمذي.

وكان يقول إذا رأى الهلال: « الله أكبر، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربنا وربك الله » خرجه الترمذي.

وكان يقول في وداع المسافر ما رواه ابن عمر، كان رسول الله صلى الله عليه ولم، يودعنا فيقول: « استودع الله دينك وإيمانك وخواتيم أعمالك ».

وكان يقول إذا أراد السفر، فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان اذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، كبَّر ثلاثا ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا الى ربنا لمنقلبون، اللهم إني أسألك في سفرنا هذاالبر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا

بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل »أخرجه مسلم.

وكان يقول في القرية أو البلدة اذا أراد دخولها، وفي المنزل ينزله: « اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها » أخرجه النسائي.

وكان يقول في دعائه للمتزوج :بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير » رواه الترمذي.

وكان يقول إذا نظر في المرآة: « الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله، وكرم صورة وجهي فحسنها، وجعلني من المسلمين ».

وكان يقول في رؤية باكورة الثمر: اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا، ثم يعطيه أصغر من يحضر من الولدان » رواه مسلم.

« ان الله

وملائكته يصلون

على النبي يا أيها

الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا

تسليما »

(.. وآخر دعوانا.. أن الحمد لله رب العالمين).

عظمة محمد

صلى الله عليه وسلم

مجمع العظمات

للأستاذ مصطفى أحمد الزرقا

« سوريا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن لعظماء البشر ميادين مختلفة تبرز فيها عظمتهم، ويتجلى فيها سموهم وتفوقهم، فهناك عظماء العلم، وعظماء الحرب، وعظماء الجود، وعظماء الفلسفة، وهناك حقول كثيرة غير ذلك من منابت العظمة.

وإن عظمة العظماء في جميع منابتها تقوم على أسس هي أسباب لها كما ينبت جذع الشجرة على الجذور. وبحسب ما يكون في تلك الأسس والأسباب من كثرة وقوة تكون قيمة العظمة وشأنها وخلودها، كالجذع تكون قوته وضخامته وثباته في وجه الرياح والأنواء بقدر ما لجذوره من كثرة تغذية، وقوة تمسكه.

واذا أحصينا أسباب العظمة الحقيقية وحللناها نرى أنها، بالمقاييس الصحيحة للحياة البشرية، انما تقوم على دعائم أهمها أربع:

الأولى)- الصفات النفسية والأخلاق الشخصية في الشخص العظيم.

الثانية)- مدى الإبداع والسمو في المبادىء والأعمال التي أتى بها.

الثالثة)- مدى كفايته ونجاحه في تحقيق منهاجه الإصلاحي، أي مدى قدرته التنفيذية.

الرابعة)- مدى نجاح العظيم في تكوين جيل قيادي صالح مؤهل لحمل مسئولية المحافظة على المبادىء ومتابعة تنفيذها. ولا يكون للعظمة شمول واستيعاب، ولا يتحقق لها الكمال إلا باجتماع هذه الدعائم أو المقومات الأربعة. وكذلك بمقدار النقص في هذه الدعائم تنخفض درجة العظمة ويضيق أفقها.

وسنعرض فيما يلي عظمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على هذه المقاييس الأربعة، لنرى موقعها منها بدلالة الحقائق، وشهادة الواقع.

الدعامة الاولى

فأما الدعامة الأولى للعظمة، وهي الخصال النفسية والأخلاق الشخصية، فإن ما روى في التاريخ الثابت عما كان يتحلى به النبي عليه السلام من الصفات النفسية والشمائل والأخلاق ينبىء بأنها كانت أعظم مثال وأنبل صورة عرفها التاريخ البشري.

فقد كان قبل النبوة مثالا فريدا للشباب الصالح، والفطرة الكاملة السوية النقية، حتى لقبه قومه «بالأمين». لم يعرف عنه في نشأة شبابه، وهو في محيط جاهلي، أنه شرب خمرا، أو عبد صنما من أصنام قومه، أو أنه لها لهوا فاسدا، واتبع هوى من أهواء الشباب، ولم ينسب إليه شيئا من ذلك أحد من قومه الذين أصبحوا بعد دعوته الإسلامية ألد أعدائه. وكان محبا للفقراء عطوفا على الضعفاء. ناصرا للمظلومين، حتى إنه دخل في حلف الفضول الذي تعاهد فيه فريق من ذوي الكرم والنجدة من قريش في الجاهلية على إغاثة الضعفاء المظلومين، وتخليص حقوقهم التي يهضمها الأقوياء المستبدون من زعماء العشيرة.

وبعد البعثة وصفته عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها)

بأنه كان خلقه القرآن، أي كما جاء في القرآن العظيم من تعاليم.

وقالت أيضا: انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يغضب لنفسه. الا أن ينتهك شيء من حرمات الله، فيغضب عندئذ لله.

ومن قبل ذلك حين نزل عليه الوحي لأول مرة في غار حراء. وعاد إلى بيته مرتاعا مما رأى وسمع يرتجف فؤاده، وأخبر زوجه خديجة الخبر قالت له: «والله ما يخزيك الله ابداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وبعد هذه الصورة الإجمالية العامة لأخلاقه الشخصية نشير الى أربع شمائل معينة عظيمة الأهيمة، تحلى بها صلى الله عليه وسلم مما يندر أن ترى واحدة منها - فضلا عن توافرها جميعا في واحد من العظماء، ولا سيما ذوي السلطان والحكم منهم:

(أ) - لقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم جمعاً فريدا في التاريخ بين أعلى درجات التنقية الروحية بالاجتهاد في عبادة الله تعالى، وأعلى درجات النشاط والعمل جهادا وبناء: فكان يجتهد في التعبد عبادة خشوع ودموع وخشية

من الله وحسابه في اليوم الآخر، وخلوص في التوجه إليه وابتغاء مرضاته بالتضرع والتذلل له، صلاة وصياما وزهدا وجودا بالصدقات والعطايا بلا حدود. فكان يوزع كل ما يأتيه من أموال، ويطوي هو وأهل بيته على الطوى الأيام المتتالية، ويعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويقوم ليلا في الصلاة النافلة - والتهجد حتى تتورم قدماه، ويصوم الوصال يوما على يوم دون إفطار، وينهي أصحابه عن ذلك خشية أن لا يتحملوا، ويقول لهم: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

وقد سألته مرة زوجه عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) عن سبب اجتهاده في العبادة مع أن الله سبحانه قد أمنه في قرآنه العظيم بأنه قد غفر له ما تقدم وما تأخر، أي كل تقصير مما يمكن قد صدر منه أو سيصدر في مدى حياته؟ فكان جوابه لها: أفلا أكون عبدا شكورا؟

وكان يقول لأهله وأصحابه: لو تعلمون من الله ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. وقضية تعبده وبلوغه فيه المزيد مما لا يطيقه سواه أخبارها مستفيضة مشتهرة في سيرته العطرة

وكل ذلك الاجتهاد في العبادة لم يمنعه من أن يكون

مبادرا لكل عمل في حينه الواجب أو المناسب، من الأعمال الإعدادية أو الانشائية، إدارية وتشريعية واقتصادية وسياسية وعسكرية. فلم تكن تفوته فرصة دون أن يغتنمها بما يجب أن يملأها من عمل أو قول.

ففرصة مرور أبي سفيان بقافلة التجارة الكبرى السنوية العائدة من الشام قد اغتنمها الرسول صلى الله عليه وسلم خير اغتنام مع أن هجرته إلى المدينة إنما كانت في أول عهدها لم يكن قد بنى القوة العسكرية اللازمة للمصادمة مع الأعداء الأكثر عددا وقوة، ولم يكن قد صحا مما أحدثته تلك الهجرة من مشكلات وبلبلة في الفكر، وفي وسائل المعيشة والحياة. فكان من النتائج الخالدة الأثر لاغتنام هذه الفرصة وعدم النوم عنها معركة بدر الكبرى التي خضدت شوكة كفار قريش، وحطمت بيضتهم، وأطاحت بأهم الرؤوس من صناديدهم وبسطت الهيبة للمسلمين

ثم بعد ذلك في معركة أحد الثأرية لما انكسر المسلمون بعد الانتصار بسبب مخالفة بعضهم لأمر الرسول في المحافظة على مواقعهم - وعاد المسلمون إلى المدينة موهنين، خشي الرسول (ﷺ) أن يظن الأعداء بهم الضعف فيطمعوا بهم،

فبادر إلى الخروج بالمسلمين الذين لم يكادوا يضعون أسلحتهم قاصدا معسكر الكفار لاستئناف المعركة معهم. فلما علم الأعداء بالخبر توجسوا وبادروا مسرعين بالرجوع إلى مكة، قانعين بما وصلوا اليه، وعاد المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة، وقد استعادوا إلى أنفسهم ثقتهم وقوتهم المعنوية بعد أن جرحتها الهزيمة التي كانوا هم سببها، وكان ذلك لهم درسا واعظا امتد نفعه على مستقبل حياتهم العسكرية كلها.

(ب) - ومن أبرز خصاله الشخصية النادرة بين العظماء ذوي السلطان مزيد التواضع والحياء والإيثار.

- فكان من تواضعه ابتعاده عن كل صور الأبهة ومظاهر التعاظم التي يتميز في العادة بها الحكام والرؤساء، ويحرصون عليها أشد الحرص وذلك على مزيد هيبته ورغبة أصحابه رضي الله عنهم في تعظيمه وتوقيره.

- فكان صلى الله عليه وسلم يتساوى مع أتباعه في المظهر والملبس والمجلس والأعمال البدنية، ويكره أن يتميز عنهم في شيء، ففي غزوة الخندق كان يحفر فيه مع الناس وينقل التراب، وفي الأسفار كان يجمع لهم الحطب حين يقومون لإعداد الطعام، وكان يدخل الأعرابي الوافد عليه

إلى مجلسه بين أصحابه في المسجد فيسألهم: أيكم محمد؟ فيشيرون إليه لأنه بينهم كأحدهم.

- أما حياؤه فقد وصفه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها»

- وكان من إيثاره وزهده أنه يأتيه ما يملأ الوادي من الأموال والهدايا والغنائم فيوزعه كله من فوره، ويبيت ليس عنده منه شيء. ويشعر أحدهم بجوع الرسول صلى الله عليه وسلم فيهدي إليه قعبا من اللبن. فيدعو إليه أهل الصفة (وهم أفقر فقراء المسلمين) فيديره عليهم، ثم يكون هو آخر من يشرب فضلهم!

وقد روى عن عائشة رضي الله عنه أنها قالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير ثلاث ليال متوالية!! وقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة بدين عليه لرجل يهودي كما روى البخاري ومسلم.

وهذه الخليقة من الزهد والايثار نادرة بل مفقودة بين الحكام والرؤساء، فإنهم اعتادوا - حتي في البلاد ذات النظم الديمقراطية أو الاشتراكية - الاستئثار من دون الناس بأفضل المساكن والمراكب وسواها من أصناف النعم،

علاوة على جمع الثروات الضخمة من طريق السلطة والنفوذ .

(ج) -والثالثة من خصاله النادرة اذعانه للحق على نفسه فقد اقترض من يهودي، فجاء يقتضيه دينه، ولم يكن لدى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يفي به، فأغلظ اليهودي له القول: فهم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: دعه يا عمر فإن لصاحب الحق مقالا .

ومما يتصل بهذه الخصلة الكريمة، ويندر بين العظماء ذوي السلطان صبره صلى الله عليه وسلم على ما يسيء ويؤذي من غلظة بعض الجهال والجفاة. وقصة الأعرابي الذي جاء يطلب منه العطاء وأمسك بتلابيبه حتى حز زيق القميص في عنق الرسول صلى الله عليه وسلم هي وأمثال لها معروفة في السيرة النبوية، وقد تحمل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك من الأعرابي وأعطاه برحابة صدر .

د - وكان من أهم ما يميز سيرته المثالية بين سير العظماء التزامه الشديد بتطبيق الأخلاقيات في السياسة التزاما لا استثناء فيه دون أي تناقض بين الدعوة والسلوك .

فلم ينقض عهدا مع عدو، ولم يحاول غدرا بخصم مهما

كان يائسا منه ويخشى غدره، ولم يكذب في سبيل كسب نصر في معركة حربية.

وأما قوله الثابت عنه: «الحرب خدعة» فليس فيه ما ينافي هذه الأخلاق المثالية في السياسة، لأن معناه أن تخدع عدوك بطريق الإيهام دون أن تكذب، وذلك كترتيب الصفوف في المعركة توهم كثرة العدد، وأحداث ضوضاء في ليل توهم العدو مجيء نجدة، ونحو ذلك. ومن صور هذا الخداع الشريف للغدو أنه عليه السلام كان إذا خرج لحرب قوم يبتدىء السير بجيشه في اتجاه آخر ثم يتحول خلال الطريق إلى الجهة المقصودة، لتعمية أخباره عن العدو. وفي كل ذلك حكمة وحسن تدبير، وليس في مثل هذا الخداع الحربي ما ينافي الأخلاق المثالية في السياسة والتدبير الحربي.

ومن أروع ما يروى في السيرة أن أحد المشركين هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح أسلم ثم ارتد وافترى على الرسول صلى الله عليه وسلم، فأهدر دمه يوم فتح مكة وأمر بقتله أينما وجد. فلجأ إلى عثمان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة، فجاء به إلى الرسول ليبايعه، فكف الرسول يده وبصره عنه ثلاث مرات، ثم بايعه بعدها. فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم: «ألم يكن فيكم رجل يقوم إليه حيث

كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا يا رسول الله: ألا أومأت إلينا بعينك. فقال لهم: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين».

الدعامة الثانية

وأما الدعامة الثانية من دعائم العظمة، وهي مدى الابداع والسمو فيما يأتي به العظماء، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم له فيها أعظم الآثار. فقد بنى القواعد الخالدة للحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية، وأقام هذه الحياة في جميع ميادينها على النظم الصالحة بذاتها والمكفولة النجاح في معترك الحياة العقلية والعملية بحسب فطرة البشر. وقد أرسى جميع الأسس الإصلاحية الجديدة في أرض خواء بدءا من الصفر، وفي جو سلبي مقاوم عنيف.

ونلخص هذه القواعد المتينة الناجحة بأنه عليه الصلاة والسلام قد أتى بالنظام الذي يجمع بين الواقع والمثل الأعلى ويوفق بينهما توفيقا بديعا، وينظم منافع العناصر المتضادة في الحياة، فلم يهمل أحد الضدين، لأن كلا منهما قوة تفيد إذا أحسن استعمالها في محلها المناسب.

وبيان ذلك أن الحياة في هذا المجتمع البشري المملوء

بالخير والشر....وبالأخبار والأشرار تحتاج إلى عناصر متضادة: فكما يحتاج الزرع إلى الحر والبرد وإلى الكفاف والمطر. وإلى الشمس والندى... تحتاج الحياة البشرية كذلك إلى الرحمة والقسوة، إلى اللين والشدة، إلى الصفح والكبح، إلى العمل والراحة، إلى الحرب والسلم، إلى التواضع والاعتزاز، إلى التخيير والاجبار، إلى الموعظة الحسنة والمقامع الخشنة، وهكذا...

وإن الفضيلة والحزم من الفرد والجماعة والحكام إنما يقومان على حسن استعمال جميع العناصر المتضادة، والإفادة من كل منها في المحل والوقت المناسب له، ولا يقومان على الأخذ بأحد الطرفين المتضادين من هذه الوسائل الحيوية وإهمال الآخر. فإن الاعتماد على أحد هذه العناصر المتضادة في نظام الحياة دون ضده قد يوصل الإنسان إلى موطن لا تصلح فيه الحال إلا باستعمال ذلك الضد. فاللين الدائم يفسد النتائج، والرحمة الدائمة تنبت الفوضى، والعفو الدائم يشجع على الجريمة. والمسالمة الدائمة تطمع العدو، وهكذا...

فالنبي عليه الصلاة والسلام يتميز في تاريخ البشرية وفي النبوات والمذاهب الإصلاحية بأنه قد أتى بشريعة جمعت بين هذين الطرفين: الواقع والمثل الأعلى جمعا عجيبا،

وألفت بينهما تأليفا بديعا، وسخرتهامعا لحاجات.. الحياة تسخيراحكيماً يكفل مداواة عللها، وإصلاح خللها بهما معا، ويستخدم كلا منهما في موقعه الضروري من حاجات الحياة.

ولننظر هذا الجمع والتسخير الحكيم في الأمثلة التالية من شريعته عليه السلام:

(أ) - قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة وعممها حتى على الحيوان، وجعل في إطعام الحيوان أجر الصدقة إذ يقول: «في كل كبد رطبة أجر» ومنع تعذيب المقتول من الانسان بحق، والمذبوح من الحيوان فقال: «اذا قتلتم فأحسنوا القتلة، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» حتى وصل في الرحمة الى مثل قوله عليه السلام: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض». وكان يصغي الاناء،، بيده للهرة لتشرب.

ولكن إلى جانب هذه الرحمة المتناهية في محالها المعقولة شرع عكسها عند الحاجة إليه، كالقصاص وقتل المؤذين وعقوبة المجرم.

(ب) - وكذلك أمر صلى الله عليه وسلم بالسلم والمودة بين الأفراد والشعوب. وتعارفهم وتعاونهم على الأهداف

الكريمة. وجاء في القرآن العظيم: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وجاء فيه أيضا: «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها».

ولكن إلى جانب هذا الاتجاه السلمي النبيل جاءت شريعته بالمحاربة لمن يكيد للاسلام ويبغي حربه، وأمرت ببذل الوسع في الاستعداد لمقاومته، فجاء في القرآن العظيم أمر المؤمنين بذلك في قوله: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم». وقديما قال المثل: «الحديد بالحديد يفلح».

(ج) - وكذلك أمر عليه السلام بالتواضع للإخوان بقوله: «من تواضع لله رفعه» ولكنه الى جانب ذلك شرع الاعتزاز على العدو المغالب، إذ قال القرآن العظيم: «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منا».

(د) - وكذلك ندب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العفو عن المسيء في الحقوق الشخصية الخاصة لأنه فضل ومكرمة، وقال القرآن العظيم: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله».

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جانب ذلك قد شدد وقسا قسوة الحزم في الحقوق العامة فمنع العفو عن حقوق الله تعالى في إقامة الحدود، ونها عن الشفاعة فيها.

هذه المجموعة من الأمثلة يقتطفها الناظر من ثمر جم، وهي تدل على مبلغ ما في شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم من تقدير لضرورة العناصر المتضادة، وعلى أن الحياة البشرية الصالحة لا تستغني بأحد الضدين منها عن الآخر، لأن كليهما في الحاجة العملية كالحقائق المختلفة في الحقائق العلمية. فإذا علم الانسان إحدى الحقائق في موطنها، وجهل الموطن الذي تنعكس فيه كان علمه ناقصا، وقياسه خطأ.

تساؤل وجوابه:

وبعد هذه الأمثلة الناطقة قد يرد على الذهن السؤال التالي: إن هذا الموقف الحكيم من العناصر المتضادة في الحياة، والاستفادة من كل منها في الموطن المناسب هو من القواعد التشريعية في نظام الإسلام.

وهذا النظام في عقيدة المسلمين وحي من الله لرسوله، وليس من وضع الرسول وتدبيره وتقديره، لأنه ينطق عن الهوى، ولا سيما في أحكام الشريعة، «إن هو إلا وحي

يوحى ». وبعض هذه القواعد جاءت به نصوص القرآن المنزل، وليس مصدره السنة النبوية وحدها.

فما وجه اعتباره من جوانب عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ليس من صنعه؟

والجواب عن ذلك أننا إنما نعرض هذه الجوانب من عظمة محمد صلى الله عليه وسلم بالنظر الذاتي إليها من حيث كونها حقيقة واقعية في تاريخ البشرية جاء بها إنسان مصلح رائد قائد بقطع النظر عن مصدرها.

فالمسلم يرى فيها العظمة من جهة مصدرها الالهي بحسب عقيدته، ومن جهة من اختير لحملها وأدائها، فإنه لا يمكن تحمل المهمات الجسيمة للضعفاء أو للعاديين من الناس، وإلاّ باءت بالفشل والخيبة، فعظائم الأمور عهدة العظماء.

وأما غير المسلمين ممن يعتقدون أن هذا النظام الإصلاحي العظيم الذي أتى به محمد هو من صنعه، فلا مجال لهذا السؤال منهم، إذا لا اشكال في اسناد العظمة لمن صنع الشيء العظيم.

وهذه المزية في قواعد الشريعة التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، أي الاستفادة من جميع العناصر المتضادة كل في الموطن المناسب له، إذ أسميناها بالتوازن في نظام

الإسلام، وجدها متمثلة في ذات الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق تمثل، إذ كان في جميع أحواله ومواقفه وأخلاقه مثالا حيا لهذا التوازن. فقد استخدم عليه السلام في سلوكه العملي كلا من تلك الأضداد في الموطن الذي يناسبه أو يقتضيه:

فالمزح والجد، واللين والشدة، والرحمة والقسوة، والتواضع والترفع، والزهد والاستمتاع، والمحاسنة والمخاشنة، والمسايرة والتأبي، والمسارعة والتأني، والوداعة والتنمر، والحلم والغضب، والملاطفة والمجابهة، إلى كثير غير ذلك من المتضادات، كلها موجودة في سيرته وسلوكه يستعمل كلا منها في محله المناسب حيث يكون هو من مكارم الأخلاق وحسن التقدير وحكمة السلوك ومقتضى الحال ويكون ضده هو الخطأ أو سوء التقدير.

ولنعرض في هذه الناحية بعض صور من هذا السلوك الحكيم المتوازن في الأمثلة التالية:

(أ) ثبت في سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يمزح في بعض الأحيان والمناسبات ولكنه لا يقول في مزاحه إلا الحق والصدق. من ذلك قوله لا مرأة مسنة: «لا تدخل الجنة عجوز». فلما ظهر عليها الحزن

والاكتئاب ضحك وبين لها أنها لا تدخل وهي عجوز، بل يعود إليها شبابها فتدخلها شابة.

(ب) كان عليه الصلاة والسلام يتنزل الى مستوى الأطفال فيداعبهم بما يسرهم. وكان يضع ظهره لسبطيه الحسن والحسين في طفولتهما ليركبا عليه، ويقول لهما «نعم الجمل جملكما، ونعم الحملان أنتما». وكان يصفهما بأنهما ريحانته من الدنيا، ولكنه حينما وضع أحدهما في فمه تمرة الزكاة (وهي محرمة على الرسول وآله) لم يمكنه من ابتلاعها، بل استخرجها من فمه.

(ج) كان النبي صلى الله عليه وسلم أرحم الناس، وقد وصفه القرآن بأنه: «بالمؤمنين رؤوف رحيم». وصح عن النبي أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء».

وروى ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر... فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة تعرش فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها رياض الصالحين للنووي، الحديث، ١٦٠٧).

وروى الشيخان البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: « بينما كلب يطيف بركية - أي بئر-قد كاد يقتله العطش اذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها - أي خفها - فاستقت له به فسقته، فغفر لها به. »

فهذه الرحمة ورقة القلب والرفق كان إلى جانبها في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم الشدة والبأس في الأمور التي تفسدها الرأفة، فقد قاتل الأعداء المقاومين للدعوة وصمد لهم وقتل منهم، وعفا عمن توقع أنه قد يصلحه العفو. وكان في المعارك الحربية إذا اشتد البأس يكون هو الأقرب من أصحابه إلى صفوف العدو وشوكته.

ولما سرقت المرأة الشريفة المخزومية، وأراد بعض أصحابه أن يتشفع فيها استنكر صلى الله عليه وسلم منه ذلك، وأطلق كلمته الخالدة المشهورة: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه: « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة،

ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى» (رواه مسلم).

(د) جمع النبي صلى الله عليه وسلم في سلوكه الفعلي بين التوكل على الله وبين الأخذ بالأسباب المادية العادية جمعا حكيما يوضح المقصود بالتوكل في شريعة الإسلام، ويميز بينه وبين الإهمال والكسل والتواكل. ففي الهجرة اتخذ عليه السلام كل وسائل التكتم والتخفي والتمويه في سلوك الطريق إلى المدينة لتضليل الأعداء عن مساره وآثاره إذا تبعوه، وتوكل على الله تعالى في انجاح هذه الوسائل التي يستطيعها، وتيسير مالا يستطيعه منها، وازالة العوائق المحتملة التي لا يملك هو القدرة على منعها أو ازالتها.

ثم في غزوة أحد ظاهر عليه السلام بين درعين (أي لبس احداهما فوق الأخرى) زيادة في التوقي من سلاح العدو.

وكذلك لما سأله رجل: هل يترك ناقته مطلقة بلا عقال، ويتوكل على الله في حفظها، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «اعقل وتوكل» وهكذا كان فعله وتعليمه أكمل صورة وأحكمها في الجميع بين اتخاذ الأسباب المادية كافة

دون تهاون، وبين التوكل على الله فيما وراء ذلك مما هو فوق قدرته من عوامل النجاح.

إن هذه التوازن الذي يبلغ الغاية والنهاية في دقة التمييز بين الأحوال المختلفة، وتوزيع المواقف المتضادة عليها بحسب طبيعة كل منها وظروفها ومقتضياتها بالحكمة والاعتدال، كيلا يصبح التسامح فسادا، والرأفة ضعفا، وقلة المبالاة خللاً ومضيعة للحقوق والواجبات والمصالح - هذا التوازن في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسلوكه كان صورة تطبيقية دقيقة لذلك التوازن في الشريعة الكاملة التي جاء بها.

الدعامة الثالثة

وأما الدعامة الثالثة من دعائم العظمة، وهي القدرة التنفيذية، أي مدى كفاية العظيم في تحقيق منهاجه الإصلاحي، فالمقصود بها القوة على نشر الدعوة الإصلاحية تطبيقها في المحيط المحارب لها، وإدخالها إلى القلوب المتحجرة والأدمغة الصماء حتى تلين وتقلبها، مع تحمل ما في سبيل ذلك من أعباء ومصاعب وأهوال ومتاعب.

فالواقع ان قدرة التنفيذ وقوته لدى النبي صلى الله عليه وسلم منقطعة النظير، ولا يعرف الإنسان مداها إلا بقدر ما

يعرف من حال المحيط الذي قام فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته.

فقد لقي عليه السلام من أذى قومه وافترائهم عليه وسخريتهم به مالا يصبر عليه أحد، وتآمروا بقتله مرات فأنجاه الله، واستمر حتى يئس منهم. ولكن هذا اليأس لم يصرفه عن دعوته كما ينصرف اليائسون ويقعدون، بل هاجر إلى قوم سواهم وأسس لدعوته قوة، ثم كر عليهم بالحق قويا بعد أن صدوه عن الحق ضعيفا، وقلب جزيرة العرب من بؤرة ضلال وجحيم فساد إلى مركز إشراق نفذت أشعة أنواره إلى الخافقين، وعمَّت العالم.

وسنشير فيما يلي إلى أهم ما تم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم من تنفيذ وانجاز، قلبا وهدما، وتأسيسا وبناء، وتصحيحا وتغييرا في سبيل إقامة الحياة الانسانية على الطريق الصحيح السوي الذي يسود فيه الأمن، ويتحقق العدل، وينمو العقل وتنتعش مكارم الأخلاق:

(أ) كان المجتمع العربي جاهليا تعبد فيه الأصنام عبادة عمياء، وتعشش في عقول أهله الخرافات. فهدم بدعوة الإسلام الذي جاء به تلك الأصنام جميعا وطهر البيئة العربية منها كما طهر عقول العرب ونفوسهم من عبادتها ومن

سائر الخرافات، وأقام مكانها عقيدة التوحيد على أساسين:
الأول) الايمان بالله خالق الكون، الأحد الصمد المتصف بالكمالات المطلقة والعلم المحيط بعوالم الغيب والشهادة، لم يلد ولم يولد، ولا شريك له، ولا معبود سواه، وليس كمثله شيء، وهو على كل شيء قدير، والاستدلال على كل ذلك بالدليل العقلي الذي يدور عليه الحوار القرآني.
الثاني) الإيمان باليوم الآخر، يوم الحساب والثواب والعقاب على الأعمال في الحياة الدنيا من خير وشر، والإيمان بسائر كتب الله المنزلة قبلا، وبرسله السابقين.

وكان هذا الانقلاب الجذري الذي نسف الشرك والوثنية والخرافات نسفا، وحرر العقل العربي، وانتقل في أقصر وقت من المجتمع العربي إلى سائر الأقطار والأمم أساسا للحضارة الإسلامية التي غطت وجه المعمورة كلها بآثارها الخالدة أو بظلالها.

(ب) تكوين مجتمع إسلامي جديد بمفاهيم ومقاييس اجتماعية جديدة، العبرة والقيمة فيه وفي قياداته للأهليه والكفاية والأمانة والتقوى، لا للعصبية القبلية والأنساب (كما كان في المجتمع الجاهلي السابق) يترابط أبناؤه ويتعاطفون بالاخاء الاسلامي ثم الإنساني، وهم فيه جميعا كأسنان المشط أمام

الحق والنظام.

فهذا زيد بن حارثة - وهو مولى كان مملوكا فأعتق - يوليه الرسول صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش في غزوة مؤتة إلى الروم في بلاد الشام، وكانت من أعظم الغزوات خطرا، وبعد شقة، وعظم مشقة، وكان فيها تحت إمرة زيد جعفر بن أبي طالب بن عم رسول الله من ذؤابة قريش وذروتها نسبا وشرفا ومركزا اجتماعيا، وفيها أيضا خالد بن الوليد المخزومي، وناهيك بخالد من هو!! فتولية عبد معتق إمارة جيش خطير فيه أمثال هؤلاء من سادات العرب يعتبر تغييرا في التقاليد الجاهلية يتجاوز حدود الخيال.

ثم هذا أسامة بن زيد بن حارثة بعد ذلك يوليه الرسول صلى الله عليه وسلم قيادة جيش الغزوة الثانية إلى مؤتة، وفي الجيش تحت إمرته من كبار الصحابة أبو بكر وعمر، وهو شاب حدث السن.

ثم لما حال دون خروج الجيش وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان من أول أعمال خليفته الأول أبي بكر بعث جيش أسامة وخرج أبو بكر الخليفة في وداع الجيش وقائده الشاب إلى ضواحي المدينة، وكان أبو بكر يمشي راجلا في

ركاب القائد الشاب يودعه ويوصيه ويأبى عليه أن يترجل ويماشيه.

وهذه زينب بنت عمة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعالي قريش نسبا وشرفا يزوجها من زيد بن حارثة مولاه المعتق، وكان كل ذلك وأمثاله أبعد من مستحيل في العهد الجاهلي.

وهذا سلمان الفارسي، وقد دخل تحت الاسترقاق في البيئة العربية وامتلكه أحد يهود المدينة حتى يحرر نفسه بالمكاتبة على مبلغ من المال أداة لسيده اليهودي بمعاونة الرسول صلى الله عليه وسلم فيوليه عمر رضي الله عنه في خلافته الامارة على مدائن كسرى.

وكل هذا السلوك الذي قلب مفاهيم العرب وتقاليدهم في العنصرية.. والعصبية القبلية والطبقية إنما كان تطبيقا عمليا لقول القرآن العظيم: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه من استعمل رجلا من عصابة (أي ولاه عملا على قوم) وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

وواضح إن المقصود ما اذا كان الذي ولاه يعلم بوجود من هو أصلح منه. وقال عليه السلام أيضا: «ما من عبد

يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » (رياض الصالحين للنووي - الحديث/ ٦٥٢). وأي غش للرعية أعظم من تولية أحد عملا من المصالح العامة مع العلم بأن هناك من هو خير منه وأصلح لهذا العمل؟

(ج) ومن التغييرات العظيمة التي حول بها الرسول صلى الله عليه وسلم المجتمع الجاهلي عن تقاليده السيئة الراسخة تغييره وضع المرأة ومركزها الاجتماعي فيه. فقد كانت المرأة قبل الإسلام، الإ ما ندر، أشبه بالمتاع: ينتفع به وليس له حقوق. ولا يعرف قبل الإسلام مجتمع أو نظام صان المرأة وضمن لها حقوقها الإنسانية وحريتها الحقوقية، وركز وضعها الصحيح في المجتمع تركيزا تشريعيا وعمليا، وحفظ كرامتها أما وزوجة وبنتا، مع مراعاة حقيقة ما تقتضيه الفروق الطبيعية بينها وبين الرجل في توزيع الوظائف، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم في نظام الاسلام. وكان تحقيق هذا المركز القانوني والاجتماعي للمرأة في تلك الظروف وملابساتها وتقاليدها العمياء، وفي فترة قصيرة أشبه بمعجزة.!

(د) كان المجتمع الجاهلي فوضى بين القبائل فكون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم دولة إسلامية على أسس جديدة

كـل الجدة، لها خزينتها وأجهزتها المتنوعة من إداربة واقتصادية ومالية وسياسية وعسكرية وسواها، يضبطها جميعـا نظام شرعي متكامل مرن يتمشى مع اختلاف الظروف الزمانيـة والمكانية، ولا ينبو ولا يضيق عن حاجة.

(هـ) أشاد الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن العلم أيّما إشادة، وزاد عـلم الشريعة تخصيصا بالتنويه به والتوجيه إليه لأنه النبراس الذي يضيء طريق الحياة الصحيحة.. والنظام والسلوك الانساني.

ثم رفع الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة العلماء، وحـض على نشر العلم بالتعليم والتعلم بدءا من القرءاة والكتابة حتى التفقه والرسوخ، وأعلن تحريم كتمان العلم، وهدد بالعقوبة على الامتناع عن التعلم والتعليم.

وقـد كان لهذه الموجة الاصلاحية ومدها أثر خالد في التاريـخ اللاحـق أنـار وجـه الارض بالعلوم والمعارف الإسلامية.

هذه لمحة إجمالية عن جوانب مهمة من القدرة التنفيذية في تحقيق المنهاج الإصلاحي الذي أتى به ودعا إليه وقام على تنفيذه محمد صلى الله عليه وسلم لم نعمد فيه الى

الاستقصاء،وإنما أردنا إعطاءصورة ذات ملامح تكفي للتقدير والحكم في مدى العظمة من هذه الناحية.

وكم من دعوة حق خيرة نيرة دفنت في مهدها لأن داعيتها لم يكن مؤهلا بالقدرة والكفاية لتحقيق ما يدعو إليه فعلا، وتنفيذ منهاجه الإصلاحي.

هذا، ومن يريد أن يقدر عظمة النبي عليه السلام من هذه الناحية.. التنفيذية حق قدرها فلينظر فيما يلاقيه المصلحون في كل عصر ومصر من بني قومهم الذين يجمعهم وإياهم دين واحد وأسس متفق عليها. فلا يكاد يقوم مصلح، ولو كان حاكما، بتنفيذ خطة إصلاح حتى تصطدم بالمطامع والمنافع الفردية التي تتعارض مع منهاج الإصلاح فتقضي عليه في مهده.

هذا ما يلاقيه المصلحون في نواح فرعية بسيطة من عوائق التنفيذ القاهرة، فما بالك بتنفيذ شرع جديد يقلب الأوضاع والعقائدالوثنية والعادات والأخلاق والتقاليد المستحكمة في جميع نواحي الحياة العقلية والعملية رأسا على عقب في صميم الجاهلية الجهلاء، وبين الزعامات الفاسدة، حتى أنشأ في نفوس من كانوا يئدون البنات ويعبدون ما يصنعون، طهرا كطهر الملائكة وهمة في إحياء الحق ووأد

الباطل كانت كالغيث رحمة ونتاجا.

الدعامة الرابعة

وأما الدعامة الرابعة والأخيرة من دعائم عظمة العظماء، وهي مدى نجاح المصلح العظيم في تكوين جيل قيادي صالح للحفاظ على خط الدعوة ومتابعة تنفيذ مبادئها، فإنها قضية الخلافة التي يتوقف عليها استمرار حياة الدعوة وطول عمرها. وهي من الأهمية والشأن بمكان.

ذلك أنه لا يكفي أن يكون العظيم قد حقق دعوته، وقدر على تنفيذها وتطبيق مبادئها فعلا في حياته، لأنها عندئذ تموت بموته أو بانقراض الفئة والتي تلقتها منه وتأثرت به، ويكون عمرها قصيرا لا يعد شيئا يذكر في مدى التاريخ. فلابد لتوطيد دعائم العظمة ورسوخها من أن يكون العظيم قد هيأ.. بحكمته واهتمامه وحسن تربيته لأتباعه جيلا متفهما لأسس الدعوة متشبعا بها، بصيرا بأهدافها البعيدة، وبأبعادها وبامتداداتها، مؤمنا بمسؤوليته عن صيانتها من التغيير والتشويه، صالحا لنشرها ونقلها الى الأجيال اللاحقة لتستمر حياتها ويطول عمرها وتنتفع بها البشرية أطول ما يمكن.

إن إنشاء هذا الجيل القيادي الصالح بهذه الخلافة هو

بيت القصيد في كل مذهب اصلاحي وكل دعوة، وبالتالي في عظمة كل عظيم.

وقد كان لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن موقع كبير لم يكن مثله أو ما يدانيه لأي عظيم من عظماء التاريخ البشري. فقد ربى جيلا قياديامنقطع النظير في مقومات خلافة الدعوة والتضحية في سبيلها، وإيصالها إلى أجيال قيادية متعاقبة تشعر بمسؤوليتها عنها.

فشهادة الواقع كافية إلى اليوم فيما بلغته دعوة الإسلام على أيدي الجيل الأول الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم وأيدي الأجيال المتعاقبة التي كان كل منها خلفا لسابقه في حمل المسؤولية، من خلفاء حكام (رعاة) ومن رعايا مجندين لأداء واجب الدعوة وملء ساحتها.

ومن يقرأ تاريخ الصحابة الأول، وما كان منهم في جمع القرآن وصيانته في عهد الخليفة أبي بكر أولا، ثم في عهد عثمان ثانيا، وما بذل في سبيل ذلك من عظيم الجهود، ثم ما كان من حفظ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو الأصل الثاني لشريعته، ونقل هذا الحديث ثم تدوينه وتثبيته وتحقيقه وما يرى في ذلك من عجائب الأخبار والأعمال، من يقرأ ذلك تأخذه الدهشة ويكاد يظن أن ما

يقرأ أشبه بالخيال، وما هو إلا حقائق ووقائع عجيبة مذهلة، نتيجة للهمم التي تفل الحديد، والمنبعثة من فرط الشعور بمسئولية الحفاظ على الدين ونشره لدى أولئك الجبال من الرجال الذين رباهم وخرجهم اولئك الأصحاب من التابعين ثم من تابعهم جيلا بعد جيل، مما لم يعرف له مثيل في تاريخ المذاهب الفكرية والفلسفية، أو الدعوات الإصلاحية، أو النبوات.

والشواهد والأمثلة على ذلك معروفة مستفيضة فيما حفل به سجل التاريخ الإسلامي، ولاسيما في عصور المد والازدهار في مشارق الأرض إلى الصين، وفي مغاربها حتى المحيط الأطلسي، مع امتداداتها شمالا في أوروبة، وجنوبا في أفريقية.

ولينظر في ذلك من يشاء الأمثلة الباهرة من أعمال الأجيال في نقل الحضارة والثقافة الاسلامية المتميزة بطابعها، ثم في فتح آفاق العلوم الكونية، وذلك كله نتجية للعقيدة الإسلامية القائمة على العقل، والشريعة القائمة على العدل.

هذا ويظهر من تتبع السيرة والسنة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحرص كثيرا على أن ينمي في

أصحابه خصلتين من أهم ما يتوقف عليه نجاح الدعوة واستمرارها، أولاهما من الأهداف، والأخرى من الوسائل، وهما: (١) الحرص على هداية الغير. (٢) ومحبة الجهاد في سبيل الدعوة.

- فأما الأولى، هداية الغير، فقد وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته في مناسبات وأحاديث كثيرة، من أصرحها وأشهرها قوله لعلي رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم».

وحمر النعم تعبير عن أنفس الأموال التي كانوا يقتنونها، وهي نوع من الإبل نفيس أصيل جميل ثمين، وهذا التعبير بمثابة قولنا: خير من الدنيا وما فيها.

وليتأمل في كلمة (رجلا واحدا) وما فيها من دلالة على أهمية العناية بالفرد في التربية والتوجية، وأن هداية الغير إلى الصواب والخير في ذاتها لا يعد لها ثمن مهما قل عدد المستفيدين المستنيرين بها:

ويتصل بهذا الموضوع قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه المشهور:

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»

وما عدد فيه من أصناف الرعاة ومسؤولياتهم، وفي رأس

القائمة الإمام. حتى لم يبق أحد من أفراد المجتمع الإسلامي يستطيع أن يقول لنفسه: إنني من الرعية غير مسؤول عن سواي، والامام هو المسؤول عني وعن سواي. بل إن كل فرد في الاسلام هو رعية وراع في وقت واحد. فكما أن غيره مسؤول عنه في أمور هو أيضا مسؤول عن غيره في أمور. ومن أهم ما تتعلق به المسؤولية عن الغير.. هدايته الى الحق والخير والصواب. لأن هذه الهداية أساس لاستقامة طريق حياته كلها.

ومن هنا تفرعت مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي حملها الاسلام على كل فرد مكلف في المجتمع، وأكد عليها القرآن والرسول تأكيدا شديدا.

وأما الخصلة الثانية التي حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تنميتها في أصحابه الذين سيخلفونه في متابعة دعوته، وهي محبة الجهاد والاستعداد الدائم له فهي الوسيلة الوحيدة لحماية الدعوة وبقاء طريقها مفتوحا. وذلك لأن دعوة الاسلام في عقيدة المسلم رحمة للناس أجمعين، وهي آخر رسالات السماء الى الأرض، فيجب أن يبقى طريقها مفتوحا. وإن يكن «لا اكراه في الدين»

فان فقدت الدعوة درعها الواقية قتلها الأشرار الذين لا

يخلو منهم زمان ولا مكان. وعندئذ ينقطع حبل الهداية الذي هو حجة الله على الناس، لاختتام الرسالات الإلهية.
فلذا ركز القرآن العظيم والتوجيه النبوي على الجهاد في سبيل الله والدعوة إليه أعظم تركيز في واجبات المسلمين ومسؤولياتهم بأجيالهم المتعاقبة، وحببه إليهم بما وعدوا عليه في الآخرة من أعظم الثواب، حتى كان الصحابة يتمنى أحدهم الشهادة في الجهاد، ويغتم ويعد نفسه سيء الحظ ان لم ينلها.
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة».

ونصوص القرآن والحديث النبوي حول الجهاد تكاد بكثرتها وقوة تأكيدها توحي بأنه أعظم الواجبات الاسلامية شأنا بعد الإيمان، وأن مصير المجاهدين، ولا سيما من يستشهد منهم أفضل مصير عند الله في الجنة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يتمنى ويدعو الله أن يرزقه: «عيش السعداء، ونزل الشهداء».

فبتكوين هذا الجيل القيادي من الصحابة الذين رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم، جيل الخلافة والمتابعة الذين غرس في نفوسهم الحرص على هذين الأمرين الأساسيين:

هداية الغير. والاستعداد للجهاد في سبيل الله بأوسع معانيه، بذلك تمت لمحمد صلى الله عليه وسلم الدعامة الرابعة والاخيرة من دعائم العظمة ومقوماتها على أكمل وجه، وأصبح اتباعه اليوم يعدون بمئات الملايين.

أمور أساسية في طريق تكوين الجيل القيادي:

ان تكوين الجيل القيادي الصالح لخلافة الرجل العظيم في الحفاظ على ما بنى، وتنفيذ ما خطط، ومتابعة دعوته واستمرار حياتها من بغده ليس بالأمر الهين، بل هو أشق وأهم أعمال العظماء. وبه تتميز درجات العظمة. فهو يحتاج الى بصيرة وحكمة ومعرفة بطبائع الناس وأخلاقهم، وحسن تحليل للمواقف والظروف والمناسبات التربوية، وإلى فراسةٍ قوية في تحليل الأفراد ومعرفة قابلية كل منهم، ثم إلى قوة حجة وقدرة على الاقناع، لأن القناعة العميقة هي الأساس لصدق الالتزام بالمبادىء والأفكار، وللدفاع عنها باخلاص وتفان وللتضحيه في سبيلها.

وقد أوتي الرسول صلى الله عليه وسلم من كل هذه الخصائص مجتمعة مالم يتوافر في غيره ويبرز في طريق تربية الأجيال القيادية ثلاثة أمور هي من الأهمية بمكان:

(١) العناية بتكوين الفرد، وعدم الاكتفاء بالتوجيه

الجماعي الجماهيري، فإن من المقرر أن التربية البناءة ذات الحصيلة الثابتة في تكوين الجيل الصالح هي التي تبني الأفراد فردا فردا، لأن الفرد إذا نشأ نشأة سوية واعية مضمونة الاتجاه السليم السديد كان هو نواة ذات نتاج صالح موجه وتأثير كثير في أسرته وفي غيرها من الرفاق والمحتكين وذوي العلاقة والتكتلات.. العادية، وفي شتى المناسبات. وصلاح الجماعات الكبرى إنما هو بصلاح الأفراد الذين تتكون منهم، والعكس بالعكس، كالبنيان فإن قوته بقوة أساسه ولبناته. لابشكله الجميل الظاهري وحسن هندسته الخارجية.

(٢) حسن اغتنام الفرص التربوية، والظروف المناسبة التي يكون فيها التوجيه والموعظة والتوعية أبلغ، والاستعداد النفسي للتلقي أكبر. فكم من فرق بين أن يراق ماء السقاية على صخر لا يتسرب إلى داخله الماء ولا يتشربه وبين إلقاء هذا الماء على تربة متعطشة فتشربه بنهم وتسترطب به. هذا مثل ما يلقى من التربية والتوجيه في المناسبات والظروف الملائمة للتلقي والتقبل، أو غير الملائمة.

وكلا هذين الأمرين. أعني الاهتمام بالفرد واغتنام أحسن المناسبات للتوعية، كانا من أبرز ما يلحظه الدارس لطريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في التوجيه والتربية، وشواهده في السيرةوالسنة النبوية مستفيضة. من ذلك مثلا: قصة الرجل الذي رآه يسأل الناس الصدقة في المسجد وهو قادر على العمل. فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عما لديه في بيته، فلم يكن لديه سوى حلس (بساط) يفترشونه ويتلحفونه، وقدح من خشب يشربون به. فأمره.. باحضارهما وباعهما بالمزاد بدرهمين، وأمره إن يشتري بأحد الدرهمين طعاما لأهله، وبالآخر قدوما فيحتطب به من البرية، ويعود إليه بعد خمسة عشر يوما. فلما عاد كان قد وفر مما باع من الحطب بعد نفقته ونفقة عيالة خمسة عشر درهما. فعندئذ (لا قبل ذلك) لقنه الدرس.. النافع البليغ بقوله له: «هذا خير لك من ان تأتي يوم القيامة والمسألة (أي طلب الصدقة) نكتة سوداء في وجهك» (ر: سنن ابن ماجه في باب بيع من يزيد).

(٣) التوجيه إلى التزام المداومة على العمل الواجب وكل

عمل مطلوب بناء.

والمقصود بالمداومة ليس هو الدأب الشاق، بل عدم الانقطاع، لأن العمل الدائم، وإن قل ما يؤدي منه في المرة الواحدة، هو الذي يعول على حصائله المستمرة، بعكس العمل الدافق الذي يحصل من فورة قوية لا يمكن دوامها، إذ تكون نتيجته الحتمية هي الانقطاع والزوال. وهذا ما نبه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «أحب الأعمال إلى الله ماداوم عليه صاحبه وان قل». ذلك أن المداومة تجعل من القليل كثيراً كثيراً، فالجبال انما تتكون من حبات الرمال، والبحار من قطرات الماء.

هذا، وأخيراً طلع على العالم قبل عام تقريباً كتاب العالم الأمريكي (مايكل هارث) الذي اختار فيه أعظم مائة شخص ممن ظهروا وأثروا في التاريخ، ورتب ذكرهم في كتابه هذا بحسب مرتبة كل منهم في مقياس العظمة الذي بني عليه المؤلف تقديره، وكتب خلاصة عن كل منهم تبين وجه عظمته، والسبب الذي جعله يضعه في المرتبة التي وضعه فيها.

وقد جعل المؤلف اسم محمد صلى الله عليه وسلم في رأس قائمة المائة واعتبره اعظم العظماء في تاريخ البشرية. وقد دل الكتاب على سعة اطلاع المؤلف ودقة تحليله إلى درجة

تثير التعجب والاعجاب.

ولكن ما صنعه المؤلف المذكور هو غير هدفنا في هذا البحث. وذلك لأنه كما صرح نفسه به - لم يتخذ قيمة الأعمال التي أتى بها هؤلاء المائة، وكمالاتهم الشخصية مقياسا لعظمتهم، فلم يشأ أن يدخل في باب هذا التقويم لصعوبته ووعورته ومشكلاته، فيما يبدو، وإنما نظر الى درجة التأثير الذي أحدثه الشخص في العالم، ومدى دخله هو في هذا التأثير وسعته، سواء أكان ما أتى به خيرا للبشرية، أو شرا في الحقيقة والواقع.

فمحمد صلى الله عليه وسلم انطبق عليه مقياس هذه الناحية من العظمة وكان له فيها القسط الأكبر، فكان فيها أعظم العظماء.

لكننا أردنا بهذا البحث أن نعرض العظمة في مقوماتها الذاتية لا في درجة تأثير العظيم فقط، وأن نقوم ما تتكون منه عناصرها في المقياس الصحيح للحياة الإنسانية المثالية التي لا انحراف فيها ولا مساوىء، لتكون نموذجا يحتذي للكمال البشري والحياة الصالحة الخيرة، وهذا ما وجدنا أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد استجمع فيه دعائم العظمة كلها مما تفرق وتوزع بين عظماء البشر، فكانت عظمته صلى

الله عليه وسلم جماع العظمات من الوجهة الواقعية التاريخية ، وإن لم ينظر الى صفة النبوة التي ألقاها الله عليه وأيده بها في عقيدة المسلمين .

فالعظيم من رجال التاريخ إنما يشتهر غالبا في ميدان واحد أو اثنين من ميادين العظمة ، فقد يشتهر أحد الفاتحين بفتحه ، أو أحد الشجعان بشجاعته أو أحد المخترعين بفرط ذكائه الاختراعي ، أو أحد العلماء الحفاظ بوفور علمه وحفظه ، أو أحد الاسخياء الأجواد بفرط أريحيته وجوده ، أو أحد الخطباء ببراعة بديهته وبلاغته ، إلى غير ذلك ..... على أن كثيرا من هؤلاء العظماء أو في بقية النواحي التي ليس لهم فيها تبريز وشهرة ، فيكون الخطيب البليغ جبانا شحيحا ، ويكون الفاتح الشجاع ظالماً منتهكا للحرمات والأموال والأعراض ، ولكنه لمعت فيه مزية واحدة أورثته شهرة غطت معايبه الأخرى وصرفت الأنظار عنها وفقا للقانون النفسي في توجيه أنظار الرائين وانتباههم .

أما أن يكون المرء عظيما في الشجاعة ، عظيما في الحرب ، عظيما في السلم عظيما في العدل ، عظيما في الصدق ، عظيما في العقل وفي الحزم والحكمة .. والتدبير ، عظيما في الأخلاق الشخصية ظاهرا وباطنا في السر والعلن . عظيما في العلم ،

عظيما في الجود وفي الزهد وفي التجرد والاخلاص والايثار وحب الخير للغير، عظيما في معرفة داء الحياة ودوائها، عظيما في البلاغة وجوامع الكلم، عظيما في التشريع والقضاء إلى غير ذلك من ميادين العظمة، بحيث يكون هو الشاب المثالي الأمين المثالي، التاجر المثالي. الصديق المثالي، الزوج المثالي، الأب المثالي، ثم القائد المثالي، المحارب المثالي، المربي المثالي،، فان مثل هذه العظمة الشاملة هي فوق مراتب العظماء. إنها عظمة محمد صلى الله عليه وسلم و «الله أعلم حيث يجعل رسالته».

مصطفى أحمد الزرقاء


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في بيته

للدكتور عبد العظيم الديب
« مصر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



بسم الله وحده ولا شيء معه دائما وأبدا .

« ان الحمد لله ، نحمده ونستيعنه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،(يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) ،(ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا) ، (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)[١]

وبعد ،،

أشهد أن أشق لون من ألوان الكتابة ، هو الكتابة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما دار في خلدي أنني سأكتب في هذا المجال - على شدة حاجته إلى الكاتبين وخصوبته للدراسين - من مجالات الكتابة . ويرجع ذلك

---

(١) هذه خطبة الحاجة . وقد ورد بها أكثر من حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونستفتح بها احياء للسنة المطهرة .

إلى أكثر من سبب، لعل أول هذه الأسباب وأخطرها هو جلال الموضوع وعظمته. فكلما اقترب الانسان من أخباره صلى الله عليه وسلم يشعر بالهيبة والعظمة وتروعه الصورة المشرقة للنبوة ببهائها، وتملك عليه نفسه بروائها ونورها، ويجد المسلم نفسه مستغرقا متأملا بحيث يجد رسالة السماء كلها، بكل جلالها تجسدت فصارت سيرة محمد بن عبد الله، وخلق محمد بن عبد الله. وأنى للكلمات أن تعبر عن ذلك، أو للقلم ان يصوره، يقينا كل من حاول أو كتب عن المصطفى صلى الله عليه وسلم يشعر بعجز القلم (حقيقة لا مجازا) ويقينا يشعر بأن ما كتبه دون ما أحسه وشعر به.

ولعل السبب الذي يلي ذلك هو كثرة ما كتب ونشر عن سيرته صلى الله عليه وسلم وفي هؤلاء الكرام الكاتبين من كبار الائمة وصفوة الصالحين ومن معاصري الأساتذة ورجحاء الباحثين ما يجعل الإنسان يتردد أن يقف في صفّهم ويتهيب أن تبدو قامته بازائهم.

ترددت كثيرا من أجل هذا، وأصبحت فعلا وحقيقة، ولكني عدت فأقدمت، أقدمت ضعيفا أشعر بضعفي، عاجزا أشعر بعجزي، ولكن أعانني وشجعني، وفسح لي في الامل، أنه نبي الرحمة، وأنه كان يرحم الضعيف، ويقبل منه جهده

مهما قل، ويراه منه كافيا مجزيا، وكان حقا كما قال: (رحمة مهداة). ومنذ زمن بعيد يتردد بين جوانحي ذلك القول الحاني الحكيم:

صاح لا تأس أن ضعفت عن الطاعة
واستأثرت بهـا الاقويـاء
إن لله رحمة وأحـق النـاس
منـه بالرحمة الضعفـاء

من هنا استأذنت من باب الرحمة.

وحين جعلت همي أن أتناول موضوع (الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته) استشعرت الهيبة والرهبة مرة أخرى - بعد أن كنت قد خليتها - وانا أقترب من بيت النبوة، وإنها لرهبة أكبر وأعظم اذا كان الغرض من الاقتراب التعرف على ما في البيت الكريم ووصفه وتصويره، لقد كان صلى الله عليه وسلم مهيبا في نفوس أصحابه لا يرفعون اليه الطرف، ولا يحدون إليه النظر، ولا يملئون أعينهم منه، وكان ذلك من عظمة نفسه وروحه، لا من رهبة منظرة وجبروته، ولذلك كان أصحابه يزدادون له هيبة وخشية وإعظاما، كلما ازدادوا منه قربا وله مخالطة.

ولكني أقدم على محاولتي في الاقتراب من بيت النبوة

بإذن صاحب البيت، بل بأمره صلى الله عليه وسلم، أليس قد دعانا للبحث عن سنته وحفظها والعمل بها!؟

وهنا أجدني مدفوعا لتأكيد معنيين:

أولهما - أنه صلى الله عليه وسلم، ربما كان الإنسان الوحيد الذي كانت حياته كلها في الضوء، - بل هو بالقطع - الإنسان الوحيد الذي رأته الدنيا وعرفته البشرية يبيح معرفة ما كان منه، وما يكون في سر أو علن، مما يتصل بتقلبه في الحياة في أي جانب أو لون من جوانبها وألوانها.

هو الإنسان الوحيد الذي لم يكن له (سرّ)، هو الإنسان الوحيد الذي عرف الناس - كل الناس - كل تصرفه في كل شئونه.

فمن حق كل واحد منا أن تكون حياته - الشخصية كما يسمونها - ملكا له وحده، بل ذلك معدود من المروءة، وكرم الأخلاق. من حق كل واحد منا أن يستر عن الناس كيفية طعامه وشرابه، وماذا يأكل وماذا يشرب، ومن أين يحصل على ما يأكل وما يشرب ونظام ملابسه، وطريقة نومه وكيف يعامل أهله وأولاده، وما الوضع الذي يستقبل عليه ضيفانه، وماذا أطعمهم وكيف سقاهم.

ذلك حقنا، بل ذلك علينا، وهو معدود من علائم استقامة الطبع وسلامة الفطرة،أما النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم، فلم يكن له (سرّ)، ولم يكن عنده جانب مخبوء من حياته، بل كل حياته كانت في الضوء. فما الحكمة في ذلك؟

في تقديري أن لذلك هدفين:

أ - أن تكتمل الأسوة، والقدوة. «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» فلا يكون هناك جانب غير معروف من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - مهما كان ضيقا أو ضئيلا - فيلقى شيئا من الغموض، قد يظن ظان أن لهذا الجانب المستور أثرا في الجوانب الظاهرة، أعني أنه قد يقول قائل - ولو في نفسه -: مالنا ولرسول الله، فهو يأكل كذا، أو ينام كذا، أو تتنزل عليه الملائكة بكذا، فلسنا مثله فكيف نتأسى به.

ب - وأيضا لهذا الوضوح أثر آخر في الدلالة على صدق النبوة، فلو كان هناك جانب غير معروف، أو (حياة شخصية) مستورة ماذا كان يمكن أن يتقوله الأعداء ويفتريه المفترون، وينسجه خيال المناوئين على طول العصور، منذ البعثة إلى اليوم.

إن من رحمة الله أن كانت حياته صلى الله عليه وسلم

ملكا للرسالة، كل حياته في بيته، في خارج بيته، في حِلِّه في ترحاله في حربه في سلمه، حتى صفة غسله ووضوئه، بل استبرائه وتطهره، بل إزالة ما يكون على ثوبه مما يكون من الرجال. بل أبعد من هذا، ماذا يقول حين يأتي أهله، وها هو أمر السماء لامهات المؤمنين: (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) سورة الأحزاب: ٣٤

وستظل حياة نبينا نبعا ثرا، ومعينا لا ينضب لمن يدرس، ويتدبر، ويعي فيتعظ ويعمل.

وثاني المعنيين الذي أريد أن أؤكده هو بشريته صلى الله عليه وسلم، ففي تأكيدها تأكيد لعظمته، وأيضا التزام بالحق والصدق من سيرته، ذلك أن بعض كرام الكاتبين يكاد يجرد المصطفى صلى الله عليه وسلم من بشريته، يدنو به من مصاف الملائكة ويتصور بهذا أنه يزداد له تعظيما وإجلالا. وهذا على ما فيه من مخالفة الحق، ومجانبة الصدق: « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » سورة الأسراء ٩٣ « قل انما أنا بشر مثلكم يوحي الى...... » سورة الكهف: » وسورة فصلت: ٦ «إن أنا الا نذير وبشير » سورة الأعراف: ١٨٨

مع ما في نفي هذه البشرية المؤكدة عن الرسول المصطفى

صلى الله عليه وسلم من مخالفة للحق، فليس فيها أيضا التعظيم والاجلال الذي يرجونه من وراء نفيها، بل ان العكس هو الصحيح، أعني ان البشرية وتأكدها في حقه هي محل عظمته ومصدرها، حيث كان له ما في البشر، وكان فيه كل ما في البشر، ولكنه سما وارتفع عن نوازع الانسان، وارتقى مع ما في البشرية من ثقلة الطين، وعلا مع مافي البشرية من نزعة إلى الارض. هنا فعلا تكمن العظمة أن يكون بشرا، ويعلو فوق ما يقدر البشر.

منهج البحث:

حينما نقف أمام موضوعنا (الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته) سنجد أنه ليس موضوعا واحداً بل عدة موضوعات

هذا اذا أردنا الوفاء للعنوان وفاء كاملا وترجمناه إلى معانيه ومراميه كلها، فحينما نقف عند بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنرى ما يلي: -

- بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، شكلها، ومكانها، ومتى وكيف بنيت.
- أثاث بيته صلى الله عليه وسلم.
- كيف كان يدخل البيت.

- لباسه صلى الله عليه وسلم.
- تنظفه وتطهره وتزينه وتجمله.
- طعامه صلى الله عليه وسلم.
- استقباله للضيفان ومجلسه.
- أبوته لاولاده وأحفاده.
- زوجيته ومعاشرته لازواجه.
- نومه - ويقظته.
- تعبده في بيته.
- معاملته لخدمه وعبيده.

كل هذه الموضوعات وغيرها كثير مما يتصل ببيت النبي وينبع منه، وربما كان المتبادر إلى الذهن بعضها دون البعض، ولكن عند التحقيق والتدقيق سنرى أنها كلها متصلة ببيت النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا ندعى أننا قدرنا على الوفاء بها جميعها، ولا ببعضها. ولكنا حاولنا جهدنا، وقد أطلنا الكلام على جوانب تقديرا منا أنها لم تنل حقها من البحث والدرس من قبل. وأوجزنا الحديث عن بعضها تقديرا منا أنها درست مرارا وكثر فيها الحديث وصارت قريبة من الاذهان

والأفهام. ونرجو أن نكون قد أصبنا في تقديرنا، وتوقعنا.

ومع أننا سنحاول جاهدين أن نكون أوفياء لعنوان البحث، بحيث نكون دائما في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم لا نبرحه، ولا نخرج منه، الا أننا سنجد أنفسنا مضطرين أحيانا إلى أن نصحب المصطفى صلى الله عليه وسلم خارج البيت، ما دام الأمر يتصل بشأن من شئون البيت. كالتنظف والتعطر واللباس، فهي أمر متصل بالبيت، وتتم أساسا في البيت لكن مظاهرها وآثارها تمتد حتما خارج البيت، ولن نستطيع في هذه الحالة إلا أن نتتبعها، ونسير معها حيث هي، وأرجو ألا أكون قد بعدت عن البيت.

وأرجو أن يتحقق لى ما حاولته من الاعتماد على الأحاديث المقبولة صحيحة أو حسنة، وعزوها إلى من خرجها، والدلالة على موضعها من دواوين السنة، كذلك جعلت من منهجي ذكر الحديث كاملا بتمامه، ولو كان موضع الشاهد جزءا فقط. وربما حاولت أن أضيف في الموضوع الواحد نصوصا أخرى، قد تكون في نفس المعنى، وقد تكون درجتها أقل من حيث السند ولكني أرجو من وراء ذلك - غير التأكيد للنصوص المعروفة وتثبيتها - أن

أخرج من دائرة النصوص المألوفة الدائرة على الالسن. ولم تعد تلفت ذهنا، او تثير انتباها، فمثلا عندما نتحدث عن (عيش رسول الله وزهده) نجد من الحديث «ما شبع آل محمد من خبز البُرِّ ثلاثاً» عن عائشة رضي الله عنها: «إنا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول صلى الله عليه وسلم نار..» فمثل هذا من الحديث متفق عليه، ليس بحاجة إلى تأكيد، ولكن علينا أن نقدم في هذا المعنى أحاديث وآثارا أخرى - وأن كانت أقل درجة - إثارة للانتباه، وتنشيطا للأذهان، وإزالة لما قد يكون قد ملل نتيجة التكرير لحديث واحد والاعتماد عليه دائما.

ومرة ثانية اؤكد أن هذه محاولة جد متواضعة لأن نستأذن المصطفى صلى الله عليه وسلم ان نعيش في ارجاء بيته المطهر، نتنفس عبق النبوة الخالد، ونملأ عيوننا من نور الرسالة الفياض فتخشع القلوب، وتزداد ايمانا، وتزداد الطريق وضوحا، ونزداد بها استمساكا «والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير».

بيوت النبي صلى الله عليه وسلم

من المناسب قبل أن نستأذن في دخول البيت النبوي

الشريف أن نتعرف على مكانه: أين كان، وعلى صفته: كيف كان. وقد كان لنبينا صلى الله عليه وسلم في مكة بيت واحد، وفي المدينة عدة أبيات بعدد أزواجه رضي الله عنهن.

أما بيته في مكة، فقد أورد الطبري: ١٩٧,٢ وصاحب الرحلة الحجازية وصفا له، نقلته بنت الشاطىء [١] عنها حين قالت: «في جوار الحرم الاقدس، حيث دور قريش حافة بالمسجد الحرام مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى، قامت الدار التاريخية التي كتبت لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس، عائدا من غار حراء، بعد أن تلقى رسالة السماء. وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق. فينزل اليها بعدد من الدرجات توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو قدم، وطولها عشرة أمتار، أما عرضها فأربعة...

وعلى اليمين باب صغير، يصعد اليه بدرجتين، يؤدي الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين، وفيها ثلاثة أبواب:

---

(١) موسوعة آل النبي ص ٤٥٥.

يفتح اولها من الجانب الأيسر ، على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبي المختار صلى الله عليه وسلم محرابا ومعبدا ، ويؤدي الباب الأمامي الى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه اربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، أما الباب الثالث ، فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح في غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها اربعة ، وقد جعلت لبنات محمدصلى الله عليه وسلم وعلى طول هذا المسكن من الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا في سبعة أمتار ، ويرتفع عن الارض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة مضيفة لاستقبال الضيوف » ولا تعطينا المصادر التي تيسرت أكثر من ذلك ، على كثرة ما حاولنا أن نستنطقها ، لم نعرف عن بيت الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة أكثر من هذا ، فلم نر أثاث البيت ، ولا طريقة الطعام والشراب ، واستقبال الزوار والضيفان ، ذلك أن جل هذه الفترة كان قبل البعثة ، حيث لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم . قد نال شرف الرسالة بعد ، فلم يكن هناك ما يدعو لنقل ما يكون منه في عيشه وحياته ، وما كان بعد البعثة من هذه الفترة

المكية) كان مفعما بالجهاد والنضال والكفاح المثابر الصابر الصامد، فلم تتح الفرصة للمسلمين الأولين السابقين لالتقاط الانفاس وهدوء الأحوال، حتى يسجلوا ماكان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بيت النبي ﷺ في المدينة: -

أما في المدينة فنرى صورة بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أكثر وضوحا وتفصيلا. لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وتنافس الأنصار كل يقول يا رسول الله، هلم إلينا: إلى العدد والعدة والمنعة - ويأخذون بزمام ناقته قال صلى الله عليه وسلم: خلوا سبيلها، فانها مأمورة، حتى بركت عند موضع مسجده المبارك، واحتمل ابو أيوب رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، وأراده قوم من الخزرج على النزول عليهم، فقال: المرء مع رحله، فكان مقامه في منزل أبي أيوب حتى بنى له مسجده ومساكنه، (كذا) مساكنه بصيغة الجمع قاله ابن أسحاق، ورواه عنه ابن هشام (جـ٢ص ١٠٣ تحقيق طه عبد الرؤوف) وأيضا في عيون الأثر (ج ١ ص ١٩٥ طبعة دار المعرفة) وقاله أيضاً ابن كثير فيما نقله عنه أبو الحسن الندوي في (السيرة النبوية ص ١٥٥)، وقاله أيضا ابن عبد الوهاب في (مختصر سيرة

الرسول ص ١٣٥ من طبعة جامعة الامام محمد بن سعود)، وقالتـه بنـت الشاطىء، بل زادته تحديدا، إذ قالت: «تنافس المهاجرون والانصار في البناء حتى تم بناء مسجد المدينة، ومن حوله تسع حجرات» (موسوعة آل بيت النبي ص ٢٦٢).

ولكن الذي يبتدره العقل أنه لم تبن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم كلها وقت بناء المسجد، فلم تكن به حاجة إلى كل هذه الأبيات، فلعل هذا القول القائل: أنه أقام عند أبي أيوب حتى بنى مسجده و(مساكنه) وهم في الرواية أو تساهل في التعبير عن المفرد أو المثنى بصيغة الجمع.

وقد لفتت هذه الروايات الامام الحافظ شمس الدين الذهبي فقال في (بلبل الروض) فيما حكاه عنه الزركشي في (اعلام الساجد ص ٢٢٤): «لم يبلغنا[١] انه عليه السلام بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد، ولا أحسبه يفعل ذلك، إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين، ثم لم يحتج الى بيت آخر حتى بنى بعائشة في شوال سنة اثنتين، وكأنه عليه السلام بناها في أزمان مختلفة.

وهذا الذي قاله الذهبي أقرب الى المعقول، والى المعهود

---

(١) أي يقين.

من خلقه وسنته صلى الله عليه وسلم، فليس من المعهود ولا المعقول إن يبني تسعة أبيات من أول يوم ينزل فيه المدينة، ولم تكن به حاجة اليها.

حارثة وبيوت الرسول ﷺ:

وما قاله الذهبي من أنه صلى الله عليه وسلم بناها في أزمان مختلفة، وإن كان أقرب الى المعقول والمعهود إلا أنه معارض بما روى من أن هذه البيوت كانت لحارثة ابن النعمان الأنصاري، وكان جارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

جاء في كتاب (الرسول صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه)[1]: كان لحارثة بن النعمان الانصاري، رضي الله عنه منازل بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان بينهما تنور واحد يخبزان فيه سوية، وكان مسرورا بهذا الجوار ،يستمع لتلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث مولاه زيد ابن حارثة، وأبا رافع إلى مكة المكرمة واعطاهما خمسمائة

(١) تأليف وليد الاعظمي. وأشار الى أن مصادره في ذلك هي طبقات ابن سعد ٣و ٢/٥٣. ج ٨/١١٩. والاستيعاب ١/٣٠٦ - ٣٠٧. والمستدرك ٣/٢٠٨ وصفوة ١/١٨٧. حلية الاولياء ١/٣٥٦. الاصابة ١/١١٢. ووفاء الوفاء ١/١٨٨.

درهم وبعيرين. فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم بنتيه، وسودة زوجته، وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر، فلما قدموا المدينة أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت حارثة بن النعمان، وكان كلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تحول له حارثة عن منزل بعد منزل، حتى صارت منازل حارثة كلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحين دخل علي بفاطمة رضي الله عنها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أريد أن أحولك إليّ. قالت فاطمة: يا ابتاه لو كلمت حارثة أن يتحول لي عن منزله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بنية قد تحول حارثة عنا حتى استحييت مما يتحول لنا عن منازله، فبلغ ذلك حارثة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، بلغني انك تريد أن تحول فاطمة اليك. وهذه منازلي وهي أسقب (أي أقرب) بيوت بني النجار بك، وأنما أنا ومالي لله ورسوله، والله يا رسول الله للذي تأخذه مني أحبُّ إلى من الذي تدع.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدقت، بارك الله عليك، ثم حول فاطمة (ا.هـ) ولعلنا نرى ان التوفيق بين

هذا وبين ما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم بنى أبياته لنفسه، بأنه بنى أولا بيتا أو بيتين لسودة وعائشة، ثم تحول حارثة بن النعمان رضي الله عنه عن باقي أبياته، هبة أو بيعا، فلم تحدد الرواية نوع هذا التنازل من حارثة، وإن كان المفهوم أنه تنازل بطريق الهبة.

متى كان التحول لفاطمة:

لعل الذي يحتاج منا النظر والبحث ما دمنا بصدد التمييز بين الروايات، وما جاء في الرواية القائلة بان هذه المنازل كانت لحارثة - من قول النبي صلى الله «استحييت من كثرة ما تحول حارثة عن منازله» حيث يفهم من ذلك أنه كان بعد أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بنسائه أو على الأقل أكثرهن. مع أن زواج فاطمة بعلي رضي الله عنهما كان في السنة الثانية من الهجرة ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج من نسائه غير سودة وعائشة، فكيف يقول صلى الله عليه وسلم: استحييت من كثرة ما تحول لنا وفي تقديري أنه لا أشكال في الأمر، فليس من الضروري أن يكون تحول فاطمة الى جوار أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم كان عقب زواجها بعلي مباشرة بل لا مانع أن يكون بعد الزواج بسنتين، ولعل هذا هو المعقول، بعدما ولد

لها، وصار رسول صلى الله عليه وسلم يسعى إليها ليرى الحسن والحسين وأختيهما زينب وأم كلثوم، فأدركت فاطمة أن بعدها فيه مشقة على أبيها صلى الله عليه وسلم. وشاركها المصطفى صلى الله عليه وسلم في ذلك، وبلغ الحديث حارثة فكان ما كان.

ولعل الذي يؤكد استنتاجنا هذا من أن فاطمة رضي الله عنها لم تكن بجوار أبيها في أول زواجها، وظلت بعيدا حتى ولدت، الذي يؤكد هذا ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من النهار، لا يكلمني ولا أكلمه حتى جاء سوق بني قينقاع، ثم انصرف حتى أتى خبأ فاطمة (أي بيت فاطمة) فقال: أثم لكع؟ أثم لكع؟ (المراد بلكع هنا الصغير) يعني حسنا، فظننا أنه إنما تحبسه (اي تؤخره) أمه لأن تغسله، وتلبسه سخابا (السخاب قلادة من القرنفل والمسك والعود ونحوها، وقيل من الخرز) فلم يلبث أن جاء (أي الحسن) يسعى، حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه...»

فهذا الحديث يبين مكان بيت فاطمة في أول الأمر، وأنه كان بعد سوق بني قينقاع، أو على الأقل لم يكن بجوار

المسجد مع بيوت النبي صلى الله عليه وسلم.

صفة هذه البيوت:

هذا عن مكان بيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وتاريخ إنشائها، ووسيلة امتلاكها، أما صفة هذه البيوت، فكانت بعيدة عن الأبهة، والزخرفة والزينة، بل بعيدة عن المتانة وقوة البنيان، بعضها من جريد مطين بالطين، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض، وسقفها كلها بالجريد أيضا، وكان لكل بيت حجرة وكانت حجره أكسيه من شعر مربوطة في خشب عرعر[1]، وفي تاريخ البخاري أن بابه عليه السلام - كان يقرع بالاظافير، أي لا حلق، (اعلام المساجد ٢٢٤ وسيرة بن هشام ٢/١٠٣هـ٢)

وأما ارتفاع هذه البيوت، فكان أقل ارتفاع يمكن أن يسمح باستخدامها في غير مشقة، فقد قال السهيلي في الروض: ٢/١٣ قال الحسن بن أبي الحسن: كنت أدخل بيوت النبي عليه السلام وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي.

وأما مساحة هذه البيوت والحجرات، فيبدو أنها كانت ضيقة نوعا ما. يقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة

---

(١) العرعر شجر السرو

جـ٢ من المجلد الرابع ص ٤٥: « ...لا يزيد اتساعها على أثنى عشر قدما أو أربعة عشر قدما، ولا يزيد ارتفاعها على ثمانية أقدام». ولعل أصدق وأدل على ضيق هذه البيوت وحجراتها من كلام ديورانت أو غيره ما رواه الستة إلا الترمذي عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل، وأنا معترضة بينه وبين القبلة، كاعتراض الجنازة، فاذا أراد أن يوتر، أيقظني فأوترت».

وفي رواية أخرى من حديث متفق عليه عن عائشة أيضا.. «والله لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة، فتبدو لي الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنسل من قبل رجليه».

وفي حديث آخر أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجلاي في قبلته، فاذا سجد غمزني، فقبضت رجلي، فاذا قام بسطتها، والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح»

فهذه الأحاديث الصحيحة تؤكد أن بيوته صلى الله عليه وسلم لم تكن من السعة بحيث يجد مكانا يصلي فيه بعيدا عن زوجته النائمة بينه وبين القبلة ويضطرها لأن

تقبض رجليها كلما سجد.

وهذه البيوت كان ملحقا بها أو في فنائها خباء (خيمة) من سعف، وجاء ذلك فيما رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة، وأبو يعلي الموصلي عن رزينة مولاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حين قصت دعابة طريفة كانت بين عائشة وحفصة، وبين سودة رضي الله عنهن إذ روعتا سودة، بأن الدجال قد خرج، فأخذت ترتعد وتسأل عن مخبأ، فقالت حفصة: «عليك بالخيمة» خيمة من سعف يختبئون فيها.

فهذا يشير إلى أن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم أو بعضها كان ملحقا به مثل هذه الخيمة تأوي إليها نساؤه عندما يكون عنده الصحابة، وربما كانت تسع بعضا من متاع البيت مثل الرحى ونحوها.

وفي هذه الخيمة لا شك تخفيف من ضيق البيوت وتوسعة لها. ويؤكد وجود هذه الخيمة أيضا ما جاء في صحيح مسلم أن عبد الله بن عباس قال: أخبرتني ميمونة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح يوما واجما، فقالت يا رسول الله، لقد استنكرت هيئتك منذ اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن جبريل كان وعدني أن يلقاني الليلة، فلم يلقني، أما والله ما أخلفني» قالت: فظل رسول الله

صلى الله عليه وسلم يومه ذلك على ذلك، ثم وقع في نفسه جرو كلب تحت فسطاط لنا فأمر به فأخرج، ثم أخذ بيده ماء فنضح مكانه حتى أمسى لقيه جبريل..... وقال ولكنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة... »

فالحديث يشير إلى أن جرو الكلب كان تحت الفسطاط، ويشهد بأن هذا الفسطاط كان ملحقاً بالبيت، ومعتبرا منه، قال النووي في شرح مسلم نقلا عن القاضي أبي بكر الباقلاني: والمراد به هنا بعض حجال البيت.

مشربة رسول الله ﷺ:

جاء في قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نساءه التي رواها الشيخان أن رسول الله ﷺ كان معتزلا في مشربة، ونورد هنا وصفها، حتى لا يسبق الوهم إلى أنها كانت طابقا ثانيا فوق أحد أبياته، أو مصطافا جميلا، يقول عمر رضي الله عنه: فقلت لها (أي حفصة) أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا على اسكفّة المشربة مدلّ رجليه على نقير من خشب، وهو جذع يرقي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر... »

فها هي المشربة كما نرى، (خزانة) يرقي إليها بجذع، وإخالها لم تعد، ولم تهيأ للمعيشة بها وإنما لتكون خزانة لبعض ما تحتاجه الحياة (قرظ، جلود،... ونحو ذلك). فهي إذن لا تخرج البيوت النبوية الشريفة عن الصورة التي وصفناها.

رضى النبي ﷺ بهذه البيوت:

وسواء بنيت هذه البيوت للنبي صلى الله عليه وسلم كلها، أو أن أكثرها لحارثة بن النعمان، فتحوّل عنها للنبي صلى الله عليه وسلم - وهو ما نرجحه - فقد رضيها صلى الله عليه وسلم، وطاب بها نفسا، ولم يثبت أنه أدخل عليها تعديلا، أو توسيعا أو أعاد بناء شيء منها. أجل لم ترد أية أشارة إلى حدوث شيء من هذا، أو مجرد تفكير فيه، أو حديث عنه.

ولا يظن ظان أن هذه كانت بيوت البيئة كلها، فقد عرفت البيئة القلاع والحصون واخالها عرفت القصور على نحو ما، ويقينا عرفت البيوت القوية المتينة التي بها أكثر من طابق، فها هو بيت أبي أيوب الأنصاري الذي نزل عنده النبي صلى الله عليه وسلم سبعة أشهر حتى بنى المسجد والبيت - كان بيت أبي أيوب من طابقين وأراد أبو أيوب

رضي الله عنه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بالطابق الأعلى إكراما له، وكراهية أن يكون فوقه، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «يا أبا أيوب آن أرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون في سفل البيت». (سيرة ابن هشام ١٠٤/٢) نقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم رضي ببيوته هذه على ما وصفناها، وكان بوسعه - لو أراد - أن يستبدل بها أوسع منها وأقوى وأعلى وأجمل. وبخاصة بعد أن جاءته الأنفال والغنائم، ولكنه صلى الله عليه وسلم رضي بها زهادة وقناعة وتواضعا، وارتفاعا عن متع هذه الحياة الدنيا.

فلم يكن ذلك عجزا ماديا، ولا عجزا عن إدراك معنى السعة في البيت وجماله وهو الذي كان من دعائه الذي يكثر منه: «اللهم وسع لي في داري» (رواه النسائي باسناد صحيح) ولكنه أيضا القائل: «خيرت بين أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا، فأشار إلى جبريل عليه السلام أن أتواضع، فقلت: بل أكون عبدا رواه الطبراني عن ابن عباس باسناد حسن، والبيهقي، وابن حبان.

أثاث بيته ﷺ:

وبعد أن رأينا صورة بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعرفنا شكله ومكانه، سنحاول أن نراه من الداخل، ولعل أول ما تقع عليه العين عندما ندخل البيت- أي بيت- هو الأثاث، ومن هنا سنحاول أن نضع أعيننا على أثاث بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرشه، لنرى كيف كان؟ وماذا كان؟ ثم لم كان؟

- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه من أدم حشوه ليف» رواه الشيخان ورواه غير الشيخين مع اختلاف في اللفظ. (والأدم بفتحتين جمع أديم وهو الجلد) ووصفت الفراش بإنه الذي ينام عليه، حتى لا يتوهم انه للجلوس، أو لتفيد للأمرين معا.

وسئلت حفصة: ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك؟ قالت: مسحا نثنيه ثنيتين، فينام عليه (والمسح فراش خشن من صوف)، فلما كان ذات ليلة قلت: لوثنيته أربع ثنيات، لكان أوطأ له فثنيناه، بأربع إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات فلما أصبح قال: ما فرشتموني الليلة؟ قالت: هو فراشك الا اناثنيناه بأربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك. قال: ردوه لحالته الأولى، فإنه منعتني وطأته صلاتي الليلة».

- وفي حديث (١) ابن عباس الذي يصف فيه صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالليل، في الليلة التي بات فيها معه عند خالته ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، في هذا الحديث يقول ابن عباس: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شن معلقة، فتوضأ منها « فهنا أضاف ابن عباس إلى الأثاث (شنا) والشن (بفتح الشين) هو القربة الخلق الصغيرة.

- وفي الحديث المتفق عليه، الذي قدمناه عن عائشة، أنه كان يصلي في الليل وهي بينه وبين القبلة على السرير. فأي سرير هذا؟ «لقد كان خشبات مشدودة بالليف، بيعت زمن بني أمية، فاشتراها رجل بأربعة آلاف درهم قاله ابن قتيبة (سيرة ابن هشام ٢/١٠٣ هـ٢).

ولا منافاة بين قول عائشة السابق: كان فراشه صلى الله علية وسلم من أدم حشوه ليف وبين ذكر السرير، فقد يكون السرير استحدث فيما بعد، بل لا مانع من وجودهما معا.

---

(١) حديث صحيح رواه الستة (جمع الفوائد ١/١١٧).

- وفيما رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما: قال عمر رضي الله عنه:.. ... ... جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشربة (أي غرفة) وإنه لعلي حصير، ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وان عند رجليه قرظا مضبورا (أي مجموعا يدبغ به، وعند رأسه أهب معلقة، (أي جلود)...»

فقد أضافت هذه الرواية إلى الأثاث السابق حصيرا، وجلودا معدة للدباغ وقرظا يدبغ به. ولكن المؤكد أن هذا الأثاث لم يكن حيث يعيش رسول الله حياته اليومية، فالمعروف أنه صلى الله عليه وسلم كان يبغض الروائح الكريهة فكيف يطيق الأهب التي تدبغ، والقرظ؟؟ وإنما كان ذلك في (الخزانة) التي اعتزل فيها النبي نساءه، عندما تظاهرت عليه زوجتان من زوجاته، في القصة المعروفة، التي أشارت إليها سورة التحريم، وقد صرح هذا الحديث الذي ذكرناه بذلك.

وبهذا نكون قد رأينا أثاث بيت رسولنا صلى الله عليه وسلم، وهو كما ترى من القلة بحيث لا يحتاج إلى إحصاء أو تعداد. ولسنا في حاجة إلى أن نجهد أنفسنا في جمع

الروايات، والاحاديث الصحيحة التي تبين لنا شدة عيش النبي صلى الله عليه وسلم وخشونة فرَاشه، فذلك أمر صار معلوما بالضرورة، ويكفي ما قدمناه تأكيدا وإثباتا.

موقف الصحابة من هذا الأمر:

لقد كان صحابة النبي صلى الله عليه وسلم يرقون له، ويشفقون عليه حيث كان أحب إليهم من أنفسهم التي بين جنبيهم، فذلك من مقتضى الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين».

كان الصحابة رضوان الله عليهم يشفقون ويرقون ويبكون لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما يكابده من شظف العيش. جاء في الحديث الشريف الذي قدمنا جزءا منه عن رؤية عمر للنبي صلى الله عليه وسلم على الحصير، ما بينه وبينه شيء قول عمر: «فبكيت، فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أما ترضى أن تكون لهما الدنيا، ولنا الآخرة» (رواه البخاري).

وفي رواية صحيحة أيضا: أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم، وهي وسيلة

الانقطاع، وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا ».

وورد مثل هذا عن غير واحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد بكى لمثل هذا الذي بكى له عمر عبد الله بن مسعود فيما رواه الطبراني، وأبو بكر الصديق فيما رواه عنه ابن حبان في صحيحه (جمع الوسائل ٢/١٢٦).

ولم تكن نساء الصحابة رضي الله عنهن أقل تأثراً من الرجال، بل كن أكثر تأثرا وشفقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشهد لذلك ما أخرجه البيهقي عن عائشة قالت: دخلت عليّ أمرأة فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فبعثت إلى بفراش حشوه صوف، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ، فرآه فقال رديه يا عائشة، والله لو شئت أجرى الله معي جبال الذهب والفضة.

ويبدو أن هذا الموقف تكرر أكثر من مرة يشهد لذلك ما رواه ابن حبان في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم عن عائشة بلفظ: دخلت امرأة من الانصار، فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، عباءة مثنية، فانطلقت، وبعثت إلي بفراش فيه صوف، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما هذا؟ قلت: إن فلانة الأنصارية دخلت عليّ فرأت فراشك، فبعثت إلي بهذا،

فقال رديه؟؟، فأبيت، ولم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي، قالت: حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لاجرى الله معي جبال الذهب والفضة. قالت فرددته (جمع الوسائل ٢/١٢٦).

والذي نرتاح إليه أن ما رواه البيهقي حادثة غير التي رواها ابن حبان، وأن ذلك تكرر (ربما) غير المرتين، ففي رواية البيهقي لم تتردد عائشة وردت الفراش المهدى كما أمرها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول مرة، ثم لما تكرر الموقف شق عليها، أن يحرم من هذا الفراش، وكأنها رأت أنها أحق بالاشفاق عليه صلى الله عليه وسلم من الانصارية التي أهدته، فأبدت إباء وامتناعا، على أمل أن يجاملها النبي صلى الله عليه وسلم، ويرضى رغبتها - والأمر في نظرها يحتمل المجاملة - ولكن حينما تأكد لها عزم الرسول صلى الله عليه وسلم وجزمه، حينما كرر أمر الرد ثلاثا، أيقنت أن الأمر لا يحتمل المجاملة، فسمعت ورضيت وما كان لها إلا أن تفعل. رضي الله عنها.

موقف عائشة:

ويبدو أن عائشة رضي الله عنها، وكانت أصغر نسائه سنا، وأكثرهن حيوية، وأحظاهن عنده، ولم يسبق لها

الزواج بغيره صلى الله عليه وسلم - يبدو أنها رضي الله عنها كانت تحاول أن تستجيب لأنوثتها، وفطرتها النسائية السليمة، فكانت تحاول أن تهيىء بيتها، وتزينه، بما تقدر أنه يريح زوجها، ويرضيه، ويلفت نظرنا في قصة الفراش المردود قولها: «فأبيت، وأعجبني أن يكون في بيتي» (أعجبني)، (بيتي) فهي تضيف البيت لنفسها، وتتمنى ما يعجبها فيه.

ولم تكن هذه هي المحاولة الوحيدة لعائشة رضي الله عنها، فقد تكرر ذلك منها، تكرر منها محاولات تجميل البيت وتزيينه، وإلانة الفراش وتنعيمه، وفي كل مرة كان يأتيها رد النبي صلى الله عليه وسلم بما يناسبها، وسنحاول أن نعرض بشيء من هذه المحاولات، فيما يلي:

- فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة أنها اشترت نمرقة تصاوير فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب، فلم يدخل، فعرفت أو فعرفت الكراهيةَ، فقالت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله، فماذا أذنبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال هذه النمرقة[١]» فقالت: اشتريتها لك، تقعد عليها،

---

(١) النمرقة: وسادة صغيرة

وتوسدها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم» ثم قال: «إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة» ا.هـ واللفظ لمسلم.

- ومن ذلك أيضا ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: .. رأيته خرج في غزاته، فأخذت نمطا[٢] فسترته على الباب، فلما قدم فرأى النمط، عرفت الكراهية في وجهه. فجذبه حتى هتكه أو قطعه، وقال: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين» قالت: فقطعنا منه وسادتين وحشوتها ليفا، فلم يعب ذلك علي.

وقد يشكل هنا رفض النمرقة في الحديث السابق، ثم رضاه بها في هذا الحديث، وهي متخذة من نفس النمط (وكان فيه صورة الخيل ذوات الأجنحة كما صرح به في الرواية الاخرى) والجواب أن هتك النمط وقطعه أصاب الصورة وأتلفها، ويحتمل أنها عند عمل الوسادتين جعلت الصورة من الداخل.

- ومن ذلك أيضا ما رواه مسلم عن عائشة، قالت: كان لنا ستر فيه تمثال طائر، وكان الداخل إذا دخل استقبله

---

(١) النمط: بساط لطيف له خمل.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حولي هذا فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا».

وهذا أيضا قد يشكل مع غضبه صلى الله عليه وسلم وقطعه الستر في حديث الذي ذكرناه قبل هذا. وقد يجاب بأن المراد بالتحويل هنا الازالة - وليس مجرد نقله من مكانه في استقبال الداخل كما هو المتبادر - كما صرح بذلك في رواية البخاري عن أنس: «أميطي عني (قرامك) فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي» (والقرام ستر به نقوش فيها تصاوير.)

وأيا ما كان الأمر فحكم التصوير والستائر بحث فقهي [1] لسنا له الآن وإنما الذي نريد أن نقوله هو ما كان من محاولات عائشة رضي الله عنها المتكررة التخفيف من شدة عيش النبي صلى الله عليه وسلم، وأن تهيء له من الفراش ما يريحه ومن المناظر ما يبهجه، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم مالا يعلمون، ويدرك مالا يدركون، كان يرى الراحة والرضى في الارتفاع عن هذه الحياة بماديتها الغليظة والانفكاك من ثقلها، والتسامي على متعها.

---

(١) ارجع في هذا الى الكتاب الحلال والحرام للدكتور /يوسف القرضاوي ص ١١٥ ط٨ تجد تفصيلا شافيا ان شاء الله

موقفنا أمام بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وحين نقف أمام ما رأيناه من بيت المصطفى عليه الصلاة والسلام يجب أن نؤكد ما يلي :

١ - أننا لاندعو الناس لان يخرجوا من بيوتهم وأثاثهم، ويبحثوا عن بيوت من الجريد وفراش من الليف، فما أمر بذلك النبي وأصحابه، وإنما الذي نقوله، على ضوء فهمنا لهديه صلى الله عليه وسلم - إن للمسلم أن يعيش واقعه وحياته، وبيئته، على أن يكون في ذلك مقتديا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجعل متع هذه الحياة همه، ويتركها تستحوذ على فكره، ويصير يملأ عينيه من فراشه وأثاثه، وبيته وحجراته، ويشغل قلبه بصوره وألوانه، حتى ذلك يملأ ركنا من قلبه، ويمتلك جانبا من نفسه، والطامة الكبرى حين يجعل ذلك مصدر مباهاة ومفاخرة، وتعال وتكاثر.

٢ - أن من استطاع أن يسمو فوق رغباته، ويعلو على شهواته بحيث يكتفي من المسكن والأساس والفراش بما يحفظ عليه حياته وصحته، ويعينه على أداء واجبه نحو آله وقومه ودينه، ويحفظ عليه هيبته

ومكانته - فلا شك أنه أصاب السنة وٱستقام على الجادة.

٣ - أن هذا لم يكن من الرسول صلى الله عليه وسلم عجزاً مادياً، فلو أراد لكان فراشه من الديباج والإستبرق، ولكان بيته من الذهب والفضة «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة» صدق رسول الله.

٤ - كذلك لم يكن هذا من الرسول صلى الله عليه وسلم عجزاً نفسيا عن إدراك هذه المتع واستيعابها، بل كان قوة وقدرة، أن تكون بين يديه، ويسمو فوقها مؤثرا متعا أرقى وأعظم، متعة الروح والنفس، متعة البذل والعطاء.

٥ - ونؤكد أخيرا ونحن نرى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفراشه وأثاثه أنه كان بيتا رائع الجمال ظاهر الوضاءة، طيب الرائحة، مشرق النظافة لم تمنعه بساطة المظهر ولا خشونة الفراش وفقر الأثاث أن يكون بيتا جميلا وضيئا، عطرا نظيفا، وأعني بهذه الصفات الحسية لا المعنوية، أي الجمال الحسي والوضاءة الحسية والعطر الحسي والنظافة الحسية.

وحينما أقول ذلك أقوله على التحقيق واليقين لا على التخيل والتوقع، وتحققي ويقيني ينبع من أن صاحبه صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يعلم أصحابه النظافة ويدعو إليها، ويحب الطيب ويدعو اليه، فهو القائل: «إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود» (أخرجه الترمذي) وهو الذي رد الطعام إلى أبي أيوب الأنصاري وهو ضيف عنده لأن فيه ثوما أو بصلا، وارتاع أبو أيوب، وراح يسأل أهي حرام يا رسول الله؟ فيقول المصطفى عليه السلام: «لا، ولكني أناجي مالا تناجون» (السيرة النبوية ٢/١٠٤) وهو الذي قال فيه أنس: «ما شممت ريحا قط، ولا مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم (رواه احمد والبخاري) وهو الذي قال: «أخرجوا منديل الغمر من بيوتكم فإنه مبيت الخبيث ومسكنه» (الفردوس عن جابر)[1] ومنديل الغمر هو الخرقة لمسح الأيدي من وضر اللحم. والغمر هو زهومة اللحم، وما تعلق باليد منه، والخبيث في الأصل كما قال الراغب

(١) تكلم المناوي في ثلاثة من رواته في الفيض. ولكنه بهدي الرسول أشبه

الأصفهاني في مفرداته «ما يكره رداءة وخساسة، محسوسا كان أو معقولا» فالمراد هنا الشيطان، الهوام والحشرات أيضا.

ومعنى هذا الحديث بلغة العصر: أخرجوا القمامة لا تبيت في بيوتكم. وما زالت للآن كثير من البيوت التي تناطح السحاب، وتفرش بالنمارق والأرائك، والديباج والإستبرق، وتضاء بالكهرباء، ما زال كثير من هذه البيوت في حاجة إلى من يعلم أهلها كيف يخرجون القمامة لا تبيت معهم.

ونبينا أيضا هو القائل: «من نام وفي يديه غمر ولم يغسله، فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه» (أخرجه أبو داود والترمذي) فأي ترغيب في النظافة وطيب الرائحة أكثر من هذا.

ألا ما كان أجمل بيت رسول الله

ألا ما كام أنظف بيت رسول الله.

ألا ما كان أطيب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

النبي ﷺ عند دخول البيت:

لعل الترتيب المنطقي بعد أن رأينا بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمثلنا صورته من الداخل والخارج - لعل

الترتيب يقتضينا أن نسعد بصحبة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو داخل إلى بيته. فكيف كان وهو داخل إلى بيته.

كان صلى الله عليه وسلم يدخل بيته ذاكرا الله عز وجل، حامدا له شاكرا، يروى ابن السني في (عمل اليوم والليلة) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا رجع من النهار إلى بيته قال: «الحمد لله الذي كفاني وآواني، الحمد لله الذي أطعمني وسقاني، الحمد لله الذي من علي فأفضل، أسألك أن تجيرني من النار» هكذا شأنه دائما الذكر والحمد، داخل إلى بيته محفوف بنعمة الكفاية والحماية التي أنعم بها الله عليه في نهاره، فبفضل الله تقلب في نهاره، وبفضل الله كان سعيه، وبفضل الله كان جهاده، وبفضل الله كانت الحماية والرعاية والعناية، وهو داخل إلى بيته شاعر بنعمة الإيواء، والسكن والأمن (الحمد الله الذي أطعمني وسقاني) ثم الحمد يستتبع الحمد، والذكر يستتبع الذكر (الحمد لله الذي أطعمني وسقاني) ثم النعم لا تعد ولا تحصى (فالحمد لله الذي من علي فأفضل)، نعم. من. من بماذا؟ بكل ما أنا فيه، النعم منّ من الله أي إعطاء ومنح، ليست حقا وهي

زيادة، وهي غامرة، وهي سابغة، فكأن بعضها يكفي للشكر والثناء والخشوع والخضوع. ويعلم أمته أن تذكر الله مثله فيقول عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه: لامبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال، الشيطان: أدركتم المبيت.. » وهو عليه الصلاة والسلام هنا لا يحدد للذكر صيغة معينة، تيسيرا على أمته وتسهيلا، فيكفي ذكر الله، والمراد - قطعاً - الذكر بمعناه الحقيقي،استشعار عظمة الله سبحانه، وقدرته وجبروته، وملكه ورحمته وفضله ونعمه، وحينئذ سينطق اللسان بما ينبغي أن ينطق: بالتسبيح والتنزيه، والحمد والشكر والخضوع والخشوع، هذا هو المعنى المطلوب بأي لفظ، وبأي عبارة.

السلام على أهل البيت:

بعد أداء حق الله بالتعظيم والتحميد والتمجيد، بقي حق الأهل، وأهل البيت، حقهم في التحية، فقد يظن ظان أن التحية، تكون لمن بيننا وبينهم كلفة، أو عدم معرفة، فتشرع التحية، جلبا للألفة، وإزالة للوحشة، وأما أهل البيت حيث زالت الكلفة وتمت الألفة، فلا حاجة إلى تحية وسلام. ومن أجل هذا علم النبي صلى الله عليه وسلم

أمته، ونبههم إلى حق أهل بيتهم عليهم في السلام والتحية عند الدخول، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بني إذا دخلت على أهلك، فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك» (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح)

ملابسه ﷺ وزينته:

أعتقد أننا لم نبعد عن موضوعنا حين نحاول أن نرى كيف كانت ملابسه صلى الله عليه وسلم، وكيف كان تزينه ذلك أن الملبس والزينة، وإن كان يرى خارج البيت إلا أنه لا يبدأ إلا من البيت، ولا يتم إلا في البيت، فنحن إذا ما زلنا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في بيته

وحينما ننظر الى ملابس المصطفى عليه الصلاة والسلام، سنحاول أن نصف منها ما يلي: -

أ - شكلها وطريقة تفصيلها.

ب - كيف كان يلبسها.

جـ - لونها.

د - ما كان يقول من ذكر عند لبسها.

هـ - ماذا كان يكره من الثياب.

١ - شكل ملابسه ﷺ:

لم يتخذ عليه الصلاة والسلام شكلا معينا من الملابس، يلتزمه طول حياته، وإنما ورد أنه لبس (القميص) و(السروال) و(الرداء) و(الإزار) و(الجبة)، ولبس (العمامة) على (القلنسوة) وبدونها، و(عصب رأسه) و(تقنع) بلف رداء حول رأسه ووجهه فوق العمامة، واستخدم الحبرة والخميصة، والبرود، والشملات، والمرط[١].

وهذه كلها (أشكال) من الملابس و(أصناف) من الأنسجة. فلم يلتزم عليه الصلاة والسلام أيا منها، لا من حيث (الشكل) ولا من حيث (النوع). ولم يكن هذا أيضا خضوعا لضرورة الحياة، وواقع البيئة، حيث كانت الملابس والانسجة تجلب من الأسواق الخارجية، من اليمن وفارس والشام ومصر، ولم تكن تجارتها كما نراها اليوم منتظمة، توفر كل الألوان والأصناف بصفة دائمة، في معارض قائمة زاهرة. وانما كانت تتوفر بعض الأصناف حينا، وينقطع حينا آخر.

أقول: ليس هذا هو السبب في مراوحة النبي صلى الله عليه وسلم بين هذه الأصناف والأشكال فلو كان له أرب في لون وشكل وصنف معين، لما عز عليه أن يجلب منه ما

(١) كساء من صوف ونحوه يؤتزر به.

يكفيه دائما. وانما كان الذي يعنيه صلى الله عليه وسلم من الثياب حقيقتها ووظيفتها. ولقد ظهر من هديه صلى الله عليه وسلم في هذا المجال أن الذي يرجى من الملابس هو:

- الستر.
- التزين.
- مع الوقاية من الحر والبرد.

والذي يوضح ذلك ما روي من ميله إلى لبس القميص، فقد أخرج أبو داود والترمذي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص» [1] (جمع الفوائد: ١/٣٠٦)

قال الحافظ الزين العراقي: «فيه ندب لبس القميص» وأنه كان أحب إلى الرسول لله صلى الله عليه وسلم لما فيه من مزيد الستر لاحاطته بالبدن بالخياطة، بخلاف الرداء والشملة نحوها، مما يشتمل به، مما يحتاج الى ربط أو إمساك، أو لف أو عقد، إذ ربما غفل عنه لابسه فيسقط عنه بخلاف

---

(١) لا منافاة بين هذا، وبين ما ورد من حديث أنس من أحب الثياب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحبرة) فان القميص احب باعتبار (الشكل) أي طريقة التفصيل،(الحبرة) فهو نوع من البرود اليمنية تصنع من القطن (صنف) من الانسجة، وليس شكلا من الثياب، بل لا مانع من أن يتخذ منها نفسها القميص فيجمع بذلك بين الحديثين.

القميص » (شرح المناوي بها عن جمع الوسائل: ١/١٠٨)

ويؤكد هذا أيضا ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يأكل الرجل بشماله، أو يمشي في نعل واحدة، وأن يشتمل الصماء، وأن يحتبي في ثوب واحد كاشفا عن فرجه.

قال النووي نقلا عن أبي عبيد: الفقهاء يقولون: اشتمال الصماء هو أن يشتمل بثوب ليس عليه غيره ثم يرفعه من أحد جانبيه، وعلى ذلك يكون هدا الاشتمال حراما إن انكشف به بعض العورة، وإلا فيكره. وأما الاحتباء فهو أن يقعد الانسان على اليتيه، وينصب ساقيه، ويحتوي عليهما بثوب أو نحوه، وكان هذا الاحتباء عادة للعرب في مجالسهم، فإن انكشف معه شيء من عورته فهو حرام.١ هـ (شرح مسلم: ١٤/٧٦)

فالنهي عن هذه الهيئة أو تلك من اللباس، لأنها تفوت المقصود الأول من اللباس وهو الستر، فتعرض صاحبها لاحتمال كشف العورة.

ويدخل في هذا أيضا ما روي في شأن السراويل، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يشتريها ويلبسها - مع أنها لم تكن شائعة عند العرب آنذاك - فقد روى أصحاب السنن عن سويد

ابن قيس قال: «جلبت أنا ومخرمة العبدي بزا (أي ثيابا) من هجر، فأتينا به مكة، فجاءنا النبي صلى الله عليه وسلم، فساومنا بسراويل، فبعنا منه وزن ثمنه، وقال للذي يزن: زن وأرجح»

ولأبي يعلى الموصلي وللطبراني في الأوسط عن أبي هريرة نحوه، وفيه: «قلت يا رسول الله، وإنك لتلبس السراويل؟ قال أجل، في السفر والحضر، وبالليل والنهار، فإني أمرت بالستر، فلم أجد شيئا أستر منه» (جمع الفوائد: ٣٠٦/١)

التجمل بالملابس:

أما عن التجمل بالملابس، أو تجميل الملابس، فهذا واضح في سنته صلى الله عليه وسلم في ملابسه، كما هو واضح في تعليمه أصحابه رضي الله عنهم.

وأساس الجمال الأول هو النظافة، فمهما كان نوع الثوب، أو لونه، أو شكله أو قيمته، فلن يكون فيه شيء من الجمال إذا لم يكن نظيفا.

فقد ورد عن أنس رضي الله عنه «انه كانت للنبي ملحفة، وكان يدور على نسائه فاذا كان يوم هذه رشتها بالماء (أي غسلتها) واذا كان يوم هذه رشتها بالماء. رواه الطبراني في الأوسط (جمع الفوائد: ٣٠٧/١).

فأي نظافة أكبر من هذا؟ أي نظافة أكثر من ان تغسل الملابس يومياً؟

وبلغ من رغبته صلى الله عليه وسلم في النظافة واهتمامه بها ان كان يترك الثوب ويرفض لبسه، اذا كان من نسيج غير طيب الرائحة مثل أصواف الأغنام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بردة سوداء، فلبسها فلما عرق وجد منها ريح الصوف فقذفها» (رواه ابو داود: جمع الفوائد: ١/٣٠٤).

ولم يكن يحب النظافة في ثيابه وحده، بل كان يتطلبها في ثياب من حوله عليه الصلاة والسلام، ويحث عليها ويأمر بها، وشغله ان يكون أصحابه على نحو ما يحب ويرضى من النظافة. رأى رجلا عليه ثيابا غير نظيفة فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به‌ثوبه»(رواه داود [1] ولأبي نعيم نحوه) وكان يكره الرثاثة والكآبة والثوب الخلق، اذا لم يكن صاحبه مضطرا اليه، فعن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة ومعنا صاحب لنا نجهزه، يذهب يرعى لنا ظهرنا فجهزته ثم أدبر، وعليه بردان له

---

(١) راجع في اهتمام الاسلام بالنظافة وحثه عليها (الحلال والحرام ٦٥ - ٨٦ ط ٨)

قد خلقا (أي بليا) فنظر صلى الله عليه وسلم فقال: «أما له ثوبان غير هذين؟ فقلت: بلى له ثوبان في العيبة[٢] قال: «فادعه، فمره فليلبسها، فدعوته، فلبسها ثم ولى يذهب، فقال: صلى الله عليه وسلم: ما له ضرب الله عنقه، أليس هذا خيرا؟ فسمعه الرجل فقال: يا رسول الله، في سبيل الله، فقال صلى الله عليه وسلم «في سبيل الله» فقتل في سبيل الله. (رواه مالك في الموطأ) (وانظر الحديث بتمامة في جمع الفوائد: ١/٣٠٨).

وروى أصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وعليه أطمار، وفي رواية النسائي ثوب دون، فقال له: «هل لك من مال؟ فقال: نعم، فقال: من أي مال؟ قال: من كل ما آتى الله من المال: من الإبل والشياه، فقال: «فلتر نعمته وكرامته عليك» أي: فأظهر أثر نعمته عليك.

وفي السنن أيضا: «أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبدا» (جمع الوسائل ١/١١٩).

وروى أبو داود باسناد حسن أنه صلى الله عليه وسلم قال:... إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم،

---

(٢) قال اهل اللغة: العيبة وعاء يجعل فيه الانسان افضل ثيابه وانفس متاعه

وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش».

ووصيته صلى الله عليه وسلم لأصحابه، بالعناية بملابسهم وهيأتهم، وامرهم باتخاذ أجمل وأنظف الملابس في الاعياد والجمعة، كل ذلك مشهور معروف، فلا حاجة إلى تكلف مزيد الاستدلال عليه.

أوضح ما يشهد بأن التجمل باللباس كان مقصودا منه صلى الله عليه وسلم، ما ورد في دعاء لبس الثوب الجديد، إذ جاء فيه: «الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي» وهكذا أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي.

وقد عرف عنه الصحابة رضي الله عنهم ذلك، أي حبه لجمال الملابس ورونقها فيمر عمر بالسوق، فيرى رجلا يبيع حلة تعجبه بجمالها، وتبهره بمنظرها، فيكون أول ما يتبادر إلى ذهنه أن يذهب بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ليشتريها قائلا: «يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك» ولكن الحلة التي أعجبت عمر كانت من الحرير، ومن أجل ذلك رفضها النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: «إنما يلبس هذه من لا

خلاق له في الآخرة »[1] (أخرجه الستة الا الترمذي).

والذي يعنينا هنا ان عمر رضي الله عنه، في عمله هذا يدرك رغبة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعلم اهتمامه بحسن الهيئة، وجمال المنظر.

وقد يقال: انه وردت أحاديث تدعو الى التقشف، والتخشن والزهد، وتنفر من التزيُّن والتجمل، وجوابنا عن ذلك سيأتي قريبا ان شاء الله، حينما نتكلم عما كرهه صلى الله عليه وسلّم من الثياب.

ب - ألوان الملابس:

ولعلنا لا نكون قد بعدنا كثيرا عن الحديث في جمال الملابس ونحن نتحدث عن ألوانها.

لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على لون واحد، بل لبس أكثر من لون، وربما نقول لبس الألوان كلها. وأيضا لم يكن ذلك اضطرارا، وانما كان اختيارا. فهل معنى ذلك انه لم يفضل لونا على لون أو ألوانا بعينها؟ وهل معنى ذلك انه لم يكره ألوانا بعينها وينهى عنها؟؟

---

(١) من لا خلاق له: قيل: معناه من لا نصيب له في الآخرة، وقيل: من لا حرمة له، وقيل: من لا دين له. فعلى الأول يكون محمولا على الكفار. وعلى القولين الاخيرين يتناول المسلم والكافر. والله أعلم. أ هـ (شرح مسلم للنووي: ١٤/٣٨).

والجواب: انه فضل ألوانا ، وأثنى عليها ، وكره ألوانا ونهى عنها. فضل اللون الأخضر. وأثنى عليه، ولبسه، وفضل اللون الابيض، وأثنى عليه وأوصى بلبسه، ولبسه أيضا، فأي اللونين أفضل؟

وكره اللون الأحمر، المعصفر والمزعفر، ونهى عنه مع انه ورد انه لبسه فكيف هذا؟ والجواب بعد استعراض النصوص التي وردت في هذا الشأن وبدون ضرورة لذكر هذه النصوص، خوفا من التطويل - نستطيع أن نقول:

انه صلى الله عليه وسلم، أحب من الألوان أصفاها، وأرقها، وكره منها الالوان الصارخة مثل الأحمر (المزعفر والمعصفر) واما انه لبسه، فالجواب انه لبس (البرود) ولم تكن حمراء خالصة، وانما كانت مخططة بالأحمر، ثم كانت مصبوغة الخيوط قبل النسيج، أما المعصفر والمزعفر، فقد كان مصبوغا بعد النسيج، وقبل ان يعترض معترض قائلا: وما الفرق بين الصبغ قبل النسيج وبعده، نجيب قائلين: ان الصبغ للخيوط قبل النسيج يجعل الصبغة تنطفىء نوعا ما، ويذهب بريقها، وذلك لاحتكاك الخيوط أثناء النسيج، ومن هنا لبس صلى الله عليه وسلم (البرود) لانها كانت مما يصبغ قبل النسيج، ولان الحمرة لم تكن فاقعة قانية.

ويشكل أيضا ما ورد انه لبس المزعفر والمعصفر، والجواب انه لبسه بعدما حال لونه، كما ورد في الرواية التي ذكرت ذلك، ولا مانع ان يكون قد خفف من لونه بغسله عدة مرات أو تركه في الشمس أياما قبل أن يلبسه، وربما يشهد لهذا الاستنتاج ما روى عن الإمام الشافعي أنه نهى الرجل عن التزعفر بأي حال، وقال: وأمره اذا تزعفر ان يغسله (شرح مسلم: ١٤/٥٥) فدل ذلك على ان الغسل يذهب باشتداد الحمرة. اما لماذا كره الاحمر، ونهى عنه فقد صرحت رواية مسلم بانه كرهه لانه شعار الكفار، فعن جبير ابن نفير عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، علي ثوبين معصفرين[١] فقال: «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها».

وفي رواية أخرى لمسلم أيضا، ان عبد الله عمرو بن العاص قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليَّ ثوبين معصفرين، فقال: «أؤمك أمرتك بهذا؟ قلت أأغسلها؟ قال: بل أحرقها.

قال الإمام النووي: معنى أؤمك أمرتك بهذا أن هذا

(١) عصفر الثوب: صبغه بالعصفر. والعصفر نبات يستعمل زهره قابلا. ويستخرج منه صبغ أحمر يصبغ به (المعجم الوسيط).

من لباس النساء وزيهن ، وأخلاقهن ، واما الامر باحراقها ، فقيل: هو عقوبة وتغليظ لزجره ، وزجر غيره عن مثل هذا الفعل.

فهنا - على تفسير الإمام النووي لقوله صلى الله عليه وسلم. أأمك أمرتك بهذا؟ نجد سببا آخر للنهي عن اللون الاحمر ، وهو انه من لباس النساء.

ولكون هذا النهي - مع صراحته - معارض بانه صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء اختلف الفقهاء في حكم الثياب الحمراء (المحمرة بالعصفر) ، يقول النووي رضي الله عنه: «أباحها جمهور العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبه قال الشافعي ، وابو حنيفة ، ومالك ، ولكنه قال: غيره أفضل منه » ونقل النووي (في الموضع نفسه) عن البيهقي: ان الشافعي نهى بكل حال يتزعفر الرجل (أي يحمر بالزعفران) وقال البيهقي: لو اطلع الشافعي على هذه الاحاديث لتبع السنة في المعصفر كما تبعها في المزعفر ، بل في المعصفر أولى ».

وقد نقل ابن مفلح في الآداب الشرعية: ٥٢٢/٣ «أن مذهب ابي حنيفة والشافعي تحريم لبس الثوب المزعفر على الرجل» كما نقل عن الإمام أحمد انه نص على كراهية

الأحمر كراهية شديدة حتى النساء، إلا أن تريد به الزينة.

وواضح من كل ما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم يكره للمسلمين زي غير المسلمين، وللرجال زي النساء.

ولندع الكلام عما يكره من الثياب إلى موضعه الاتي قريبا. إن شاء الله. ولنعد إلى مقصود هذه الفقرة وهو ألوان ملابسه صلى الله عليه وسلم، فنقول: إن الذي يلوح لنا، ونرتاح إليه أن أحب الألوان إلى نبينا صلى الله عليه وسلم كان هو اللون الأبيض، ذلك أنه هو اللون الوحيد الذي أوصى به، جاء عن أنس رضي الله عنه: إنه صلى الله عليه وسلم قال: «خير ثيابكم البياض ألبسوها أحياءكم، وكفنوا فيها موتاكم» (حديث حسن رواه الدارقطني)؛، ورواه الحاكم عن ابن عباس، وصححه ابن القطان، وقال ابن حجر رواه أصحاب السنن عن أبي داود، والحاكم أيضا من حديث سمرة، ورواه ابن ماجة والطبراني في الكبير مع اختلاف وزيادات اخر.

وفي رواية الترمذي في الشمائل عن سمرة «البسوا البياض، فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم» ولعل أحسن تفسير لأطهر وأطيب: أنظف وأحسن أو أجمل فاللون الأبيض هو الذي لا يقبل ولا يطاق إلا اذا كان بالغ

النظافة فإن أي درن فيه يصرخ في وجه صاحبه مطالبا بالنظافة، وهو أجمل الألوان لمن يرى الجمال في الصفاء والنقاء، والهدوء والوقار، واللون الأبيض للآن ما زال عنوان النظافة والطهارة والجمال، ويتمناه كثيرون لكن من يطيقه قليل.

جـ - دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند لبس الثوب:

عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء، ثم يقول: اللهم لك الحمد كما كسوتنيه. أسألك خيره، وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له» (رواه ابو داود والترمذي).

وكان يوصي أصحابه صلى الله عليه وسلم، بنحو ذلك، فمن ذلك، ما أخرجه ابن ماجة والحاكم وصححه، والترمذي وحسنه، من حديث عمر مرفوعا: من لبس ثوبا جديدا، فقال الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتي، وأتجمّل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في حفظ الله وفي كنفه، وفي ستر الله حيا أو ميتا. (جمع الوسائل: ١/ ١١٤).

وروى أيضا عن معاذ بن أنس مرفوعا: من لبس ثوبا

فقال: الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله ما تقدم من ذنبه، أخرجه الامام أحمد، وابو داود والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن ماجة.

ومن ذلك ايضا ما أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اشترى عبد ثوبا بدينار، أو نصف دينار، فحمد الله عليه، الا لم يبلغ ركبتيه، حتى يغفر الله له. (قال الحاكم: هذا حديث لا أعلم في إسناده أحدا ذكر بجرح والله أعلم).

د - كيف يلبس ويخلع النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد كان صلى الله عليه وسلم يحب التيامن في شأنه كله، ويحث عليه، ويأمر به ومن أجل ذلك كان يبدأ في لبسه باليمين، ويبدأ في خلعه باليسار. جاء في حديث عائشة الذي رواه الترمذي في الشمائل: ١٣٦/١ قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب التيمن ما استطاع، في ترجله، وتنعله، وطهوره»

وروى الترمذي في سننه عن ابي هريرة قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا لبس قميصا بدأ بميامنه».

هـ - الثياب التي كرهها صلى الله عليه وسلم:

أولا: هناك من اللباس ما كرهه صلى الله عليه وسلم لذاته، ايا كان لونه، أو شكله، ورفضه رفضا باتا قاطعا بمعنى حرمه تحريما قاطعا، فلم يلبسه، وأعلن أنه لا يحل لمسلم ان يلبسه، وذلك ثياب الحرير، فقد رأيناه صلى الله عليه وسلم قال لعمر حين عرض عليه الحلة التي أعجبته (وكانت من حرير) ليشتريها يتجمل بها يوم الجمعة وللوفود: «انما يلبس هذه من لا خلاق له في الاخرة »رواه الشيخان.

وفيما رواه الشيخان أيضا: «لا تلبسوا الحرير، فان من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة. وعن علي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حريرا فجعله في يمينه، وذهبا فجعله في شماله. ثم قال: «ان هذين حرام على ذكور أمتي » رواه أبو داود باسناد حسن.

وفي حديث البراء بن عازب عند مسلم: «نهانا صلى الله عليه وسلم عن خواتيم الذهب، وعن شرب بالفضة، وعن المياثر، وعن القسي، وعن لبس الحرير، والاستبرق والديباج ». والمياثر جمع ميثرة، وهي فراش كان يوضع فوق السروج، ويتخذ من الحرير، والقسي: ثياب مضلعة بالحرير، وكذا الاستبرق والديباج من أنواع الحرير.

وقد أفادت هذه الأحاديث الصحيحة، وما فيها من تفصيل لأنواع الحرير تحريم ايا كان نوعه وشكله على الرجال، وعلى هذا أجمع العلماء.

ثانيا: هناك من اللباس ما كرهه صلى الله عليه وسلم للونه وما كرهه لشكله، وما كرهه لنوعه. فقد كره اللون الأحمر (المعصفر والمزعفر) وأصح ما جاء في النهي عن المعصفر حديثا عبد الله بن عمرو بن العاص اللذان أخرجهما مسلم، وقد ذكرناهما آنفا. أما المزعفر فمما وقع لنا فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تلبسوا شيئا مسه زعفران ولا ورس» (ذكره صاحب جمع الفوائد: ١/٣٠٧ عن رزين، وسكت عنه، ومن منهجه ان ما سكت عنه يكون حديثا مقبولا، صحيحا أو حسنا).

وقد أشرنا قبلا الى ما رواه البيهقي في كتابه معرفة السنن، من ان الشافعي قال: أنهى الرجل ان يتزعفر بحال، وقال البيهقي: تبع الشافعي السنة في المزعفر، أي صحت عنده أحاديث النهي عنه.

وقد جاءت أحاديث تنهى عن الأحمر نهيا عاما، معصفرا أو مزعفرا، أو محمرا بغيرهما، فمن ذلك، ما رواه ابو داود

عن رافع بن خديج قال: « خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأى على رواحلنا، وعلى ابلنا أكسية فيها خيوط عهن حمر، فقال: الا أرى هذه الحمرة قد علتكم؟ فقمنا سراعا لقوله حتى نفر بعض إبلنا، فأخذنا الاكسية فنزعناها » (جمع الفوائد: ١/٣٠٧).

ومن ذلك ايضا ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الشيطان يحب الحمرة، فإياكم والحمرة» وورد نحو ذلك كثير.

وقد أخرج ابو داود والبزار عن امرأة من بني اسد، قالت: كنت في بيت زينب أم المؤمنين، ونحن نصبغ ثيابا لها بمغرة(١)، اذ طلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رأى المغرة رجع، فلما رأت ذلك زينب غسلت ثيابها، وورات كل حمرة ثم رجع فاطلع، فلما لم ير شيئا دخل » (جمع الفوائد: ١/٣٠٧).

فهذا الحديث الأخير يضيف حكما آخر، هو كراهية الحمرة حتى للنساء. وكما أشرنا من قبل، احاديث النهي هذه معارضة بما روى في الصحيحين من انه صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء، وكان ذلك بمكة في حجة الوداع على

(١) المغرة: الطين الاحمر يصبغ به (المعجم الوسيط).

ما صرحت به بعض الروايات، بل قد وردت احاديث تنص على انه لبس المعصفر والمزعفر، وانه كان يصبغ بالورس والزعفران.

ولا مجال للترجيح بين هذه الأحاديث النبوية الشريفة، فان التعارض بين احاديث الصحيحين ذاتها. وانما الذي يلوح لنا - والله أعلم - ان الأحمر ليس لونا واحدا، فتستطيع الآن ان ترى أمامك عشرات الألوان وكلها يمكن ان يقال له الأحمر، فالاحمر الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم (قطعا) غير الاحمر الذي لبسه، والمعصفر والمزعفر الذي نهى عنه غير المعصفر والمزعفر الذي لبسه، فقد يصبغ بالعصفر والزعفران، ويأتي اللون مختلفا بعدة درجات، وكلها مزعفر ومعصفر، وكلها أحمر. ومعلوم ان عدد مرات الصبغ، او درجة تركيز الصبغة او نوع النسيج المصبوغ، او طريقة الصبغ، كل ذلك وغيره يؤثر في درجة اللون وينتج الوانا مختلفة. (وهذا على فرض ثبوت لبسه صلى الله عليه وسلم للمعصفر والمزعفر، فان ما ورد من ذلك فيه مقال).

اما لبسه صلى الله عليه وسلم للحلة الحمراء، وهذا هو الذي ورد في الصحيحين فقد أشرنا من قبل الى ان الحلة

كانت من برود اليمن، وهي ليست حمراء خالصة بل مخططة بالاسود والاحمر. قال: العلامة ابن القيم: «كان بعض العلماء يلبس ثوبا مصبغا بالحمرة، ويزعم انه يتبع السنة، وهو غلط، فان الحلة الحمراء من برود اليمن، والبرد لا يصبغ أحمر صرفا» (حكى هذا صاحب جمع الوسائل).

وعلى ضوء ما رأينا من هدى النبي صلى الله عليه وسلم في آداب اللباس ونحوه من الآداب الاجتماعية، نستطيع ان نقول: انه كره اللون الاحمر الذي لا يليق بالمسلم، بل والمسلمة، اما تحديد درجة هذا اللون، فقد يرى ان العرف السليم لذوي المروءة والدين هو الذي يحدده.

ومن هنا، من حيث صعوبة تحديد درجة الحمرة المنهى عنها، كان حمل النهي على الكراهة فقط، لا للتحريم.

ثالثا:

هناك من اللباس ما كرهه صلى الله عليه وسلم ونهى عنه لشكله وهيئته، وقد يدخل اللون ايضا في هيئة الملابس. وما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجانب أصناف ثلاثة: -

= ما يشبه زي غير المسلمين.

= ما يشبه زي النساء للرجال، وزي الرجال للنساء.
= ما يوحي بالكبر والخيلاء، ويؤدي الى الأسراف.

١ - ويشهد لكراهية النوع الأول ما ورد في حديث عبد الله بن عمرو الذي رواه مسلم، وذكرناه قبلا، اذ قال عليه الصلاة والسلام: «ان هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها» ويؤكد هذه الأحاديث الكثيرة التي تحث على مخالفة غير المسلمين في أكثر من مجال، مما يدل على ان من ديننا التمايز والتباين عن غيرنا وقد ورد: «من تشبه بقوم فهو منهم»، وذلك ان التشابه في الظاهر يوحي بالتآلف ويقود الى التقارب في الباطن.

٢ - وأما ما يشبه زي النساء للرجال، وزي الرجال للنساء، فقد ورد فيه وعيد شديد، فقد روى عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل» (أخرجه أبو داود والحاكم، وقال الحاكم: على شرط مسلم، وأقره الذهبي في التلخيص وقال في كتاب الكبائر: إسناده صحيح - انظر فيض القدير).

ولنا أن نفهم من هذا الحديث ان النهي عن التشبه في الكلام والمشية والحركات اولى من التشبه في الملابس.

وقد جاء في هذا المعنى ايضا حديث ابي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الرجلة من النساء) قال السيوطي في الجامع الصغير، وقال الذهبي في (الكبائر): اسناده حسن.

وهذا الحديث يؤكد ما أشرنا اليه من ان التشبه في غَير الثياب أولى بالنهي من التشبه في الثياب. حيث جاء لفظه عاما، بلعن (الرجلة) أي المتشبهة بالرجال في أي شيء ما هو من خصائصهم بمقتضى الفطرة والطبيعة، والدين والأخلاق.

٣ - واما ملابس الكبر والخيلاء، والشهرة والمباهاة، فقد كرهها صلى الله عليه وسلم، وعلمنا ذلك بفعله وعمله، فلم يكن يختار أو يتحرى الملابس التي تميزه أو تفضله عن أمته، بل كانت ملابسه من نحو ما يلبس الناس، ومن مثل مما يلبس عامتهم.

رأى عبيد بن خالد المحاربي يجر إزاره، فقال له: «ارفع إزارك، فانه أتقى وأبقى... أمالك في أسوة؟ قال عبيد: فنظرت فاذا إزاره الى نصف ساقيه صلى الله عليه وسلم.

وعن عثمان بن عفان أنه كان يأتزر إلى أنصاف ساقيه، وقال: هكذا كانت أزرة صاحبي يعني النبي صلى الله عليه وسلم. (شمائل الترمذي ١/١٧٢ - ١٧٥).

وعن حذيفة بن اليمان قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضلة ساقي، فقال: هذا موضع الأزار، فإن أبيت، فلا حق للإزار في الكعبين. (رواه الترمذي والنسائي - جمع الفوائد ١/٣٠٥).

وكراهية الإزار المسبل هنا لما يوحي به من كبر وخيلاء، حيث كانت البيئة لا تعرف هذا النمط من اللباس إلا لذوي العجب والمباهاة والكبرياء. ومما يشهد بأن الكراهية لهذه المعاني لا للاسبال في ذاته، ولا لجر الثوب في عينه - ما رواه الشيخان عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة» ويسمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان رجلا نحيفا لا يستمسك الإزار بوسطه، فيقول: يا رسول الله إن إزارى يسترخي إلا أن أتعهد؟ فيقول صلى الله عليه وسلم: «إنك لست ممن يفعله خيلاء».

وقد ثبت النهي عن الإسراف والمخيلة بأثر من حديث صحيح. وليس العجب والخيلاء في جر الثياب وإسبالها

فقط، بل قد يكون في جنسها ونوعها، وشكلها ولونها، فكل ما كان كذلك، فهو داخل في النهي والوعيد، ولو لم يكن أسفل الكعبين بل قد يكون أسفل الكعبين ولا خيلاء ولا كبرياء فيه، أي أن المدار في ذلك على العرف والاعتياد، وما تواضع عليه أهل المروءة والدين.

قال الحافظ الزين العراقي: «حدث للناس اصطلاح، وصار لكل صنف من الخلائق شعار يعرفون به، فمهما كان ذلك بطريق الخيلاء، فلا شك في تحريمه، وما كان على سبيل العادة، فلا يجرى النهي فيه ما لم يصل إلى حد الإسراف المذموم» (شمائل الترمذي: ١/١٧٥).

والواقع أن المدار في المنهى عنه من الثياب - فيما عدا الحرير - على العرف والاعتياد، والمراد العرف السليم المستقيم لذوي المروءة والدين.

مكروه الثياب وعلاقته بالجمال:

وأراني غير مبعد إذا قلت: إن كل ما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه من الثياب هو ما ينافي الجمال، فيفقد الثوب هدفا من أهدافه، والجمال دائما هو التوسط والملاءمة والمناسبة، أي يكون الثوب على قامة صاحبه وقيمته فعلى هذا ليس في الحرير جمال، ولا هو لائق

برجولة الرجال، وليس في المكروه من المزعفر والمعصفر أي جمال، وليس في الألوان الصارخة والفاقعة إلا الشذوذ والقبح وليس في اتخاذ ملابس غير المسلمين إلا القبح الذي يجرح المشاعر ويؤذي الناظرين وليس في خروج الانسان عن رجولته بلبس ملابس النساء إلا السخف الذي يمجه كل ذوق سليم. وأما التباهي والعجب والخيلاء، بملابس الشهرة والكبرياء، فما أقبحها إذ توحي بتفاهة لابسها الذي يحاول ان يكمل بها، أو يعوض بها عجزه عن أن يكون له من المكارم والمحامد ما يعطف إليه الناس. ثم هو لن ينال بهذا العجب والخيلاء إلا مزيدا من الاستهانة والاحتقار.

فكل ما هو مكروه من الثياب هو ما لا يحقق الجمال في معنييه الجمال الحسي في الألوان والأشكال، والجمال المعنوي في الرجولة والتواضع والتوافق مع البيئة والأمة.

الثياب بين الجمال والبذاذة:

وردت أحاديث تدعو إلى التقشف والتخشن والزهد، كما وردت الاحاديث التي تدعو الى نظافة الثياب والتجمل بها. ونستطيع أن نقول: أنه لا منافاة بين هذه الأحاديث بعضها وبعض، فالتقشف المأمور به يمنع من ثوب الخيلاء والشهرة والسرف ويمنع من أن يجعل المسلم همه واهتمامه

بثيابه، يملأ منها عينيه ويجعل لها مكانا في نفسه وقلبه، ذاك هو المنهي عنه، ولكنه لا يمنع من الثوب النظيف اللطيف ذي البهاء والرونق.

والتجمل والتزين المأمور به، يعنى النهي عن الإمساك بخلا وشحا وتقتيرا ويعنى النهي عن الفحش والتفحش، أي القبح وعدم النظافة. والأمر في الواقع دقيق، ومداره على تصحيح النية، فالمطلوب ألا يلبس عجبا وافتخارا وإسرافاً، ولا يمسك بخلا وشحا وتقتيرا. وبين هذين الطرفين مجال للتزين والتجمل وللزهد والتقشف في نفس الوقت، وعلى الله قصد السبيل.

النعال:

مما يتصل باللباس، ما يلبس في القدم، فكيف كان يلبس صلى الله عليه وسلم في قدميه؟

كان صلى الله عليه وسلم يلبس الخف والنعل، ولا يلتزم بنوع معين، وجاءت الأخبار بوصف مفصل لنعل رسول الله، وكيف كان شكله، ولكن الذي يظهر من مجموع ما جاء في هذا الشأن أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخص شيئا من ذلك لذاته أو لشكله أو للونه، وإنما كان يعنيه من الخف أو النعل وظيفته وفائدته، ولعل البيئة العربية

آنذاك لم تر منتعلا دائما حريصا على ذلك قبله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان يوصي أصحابه بالانتعال، بل بالاستكثار من النعال، ويبين لهم فائدة ذلك وقيمته. جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استكثروا من النعال فإن الرجل لا يزال راكبا ما انتعل» والمعنى إن النعل يسهل المشي والحركة، ويحمي القدمين فكأن المنتعل قريب من الراكب في ذلك.

ومعنى الاستكثار الاستظهار والاحتياط حينما يكون الإنسان في سفر ونحوه، وكانت النعال حينذاك ساذجة الصنع خفيفة المؤنة، عرضة للانقطاع والتلف، فجاء الأمر بالاستكثار من هنا.

وكان من هديه في الانتعال إن يبدأ باليمين، حيث كان شأنه دائما حب التيامن في كل ما يفعل.

وكره للرجل إذا انقطع أحد نعليه أن يمشي بنعل واحدة. ومن باب أَوْلى لا يمشي في نعل واحدة بدءا من غير عذر. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اذا انتعل احدكم فليبدأ باليمنى، وإذا

خلع فليبدأ بالشمال، ولينعلهما جميعا أو ليخلعها جميعا » (رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي) وفي حديث أبي هريرة أيضا عند مسلم:.. ألا وإني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « اذا انقطع شسع أحدكم، فلا يمشي في الأخرى حتى يصلحها » ولجابر نحوه عند مسلم والترمذي وأبي داود.

وكان من هدية صلى الله عليه وسلم، أن يوصي أصحابه بألا يلبسوا الخف إلا بعد نفضه، وذلك خشية أن يكون فيه ما يؤذي، ويشهد لذلك المناسبة التي جاء الأمر بذلك فيها، فعن أبي أمامة: دعا النبي صلى الله عليه وسلم بخفين يلبسهما، فلبس احدهما، ثم جاء غراب، فاحتمل الاخر، فرمى به، فخرجت منه حية، فقال صلى الله عليه وسلم: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبراني في معجمه الكبير (جمع الفوائد: ١/٣٠٦).

ولا يقولن قائل: ان هذا غير وارد الآن، فالبيوت المحكمة المكيفة الهواء من أين يأتيها الحشرات؟ لا مجال لمثل هذا القول، فإن هدي محمد صلى الله عليه وسلم ليس لبيئة دون بيئة، ولا لزمان دون زمان، وإذا كان هذا الأمر لا يتوجه إلى ساكن البيوت المحصنة هذه، فكم عددهم بالنسبة

لغيرهم من المسلمين، ثم ساكن المساكن المحكمة هذه هل هو دائما في داخلها؟ ألا يخلع خفيه خارجها في حديقة أو رحلة؟ أو حتى في مجال العمل، بل أكثر من هذا ألا يمكن في داخل البيت المحكم هذا إن يبتلى بشيء في داخل خفه أخطر من الحية، كأن يسقط في الخف (شفرة) أو نحوها من يد طفل عابث؟ وأيا كان الأمر فهو أمر آداب واستحباب، ومن يرد الله به خيرا يشرح صدره لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان لنا من كلمة حول لبس النعال، هو سؤال، ولكني لست أدري إلى من أتوجه به، نريد أن نسأل: كم مليونا من أمتنا الإسلامية للآن بغير نعال؟ كم مليونا من أمتنا (للآن) لم يسمع لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «استكثروا من النعال».

مجرد سؤال، إلى من أتوجه به لست أدري؟

ثم إذا كنا بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام نرى الحفاء منتشرا في أمتنا، فكم فرطنا في سنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

تنظفه صلى الله عليه وسلم وزينته

ولعل الحديث عن التنظف والتزين قريب من الحديث

عن اللباس، فلم يكن من سنته صلى الله عليه وسلم نظافة الملابس وجمالها فقط، بل كان يعنيه أمر النظافة في كل شيء في البيوت والأفنية والطرق والرحال، مثلما اهتم بنظافة الملابس وجمالها. ومن قبل كل ذلك نظافة الجسم وطهارته والتجمل والتزين. وحديثنا هنا سيكون عن هذا الجانب الآخير من النظافة، وسنتناول فيه النواحي الآتية:

١= نظافة الاطراف

٢= نظافة الجسد

٣= نظافة الفم والاسنان

٤= نظافة الرأس والشعر

٥= الطيب والعطر.

١= أما من حيث نظافة الاطراف، فنجد العناية بها كاملة، ويكفيها الوضوء المفروض للصلوات الخمس المفروضة، ولكنا نرى عناية المصطفى صلى الله عليه وسلم أكبر من ذلك، فنجده صلى الله عليه وسلم يحث على إحسان الوضوء وإسباغه، فقد روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل «وعن أبي هريرة

قال: سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ». رواه مسلم.ويحرص صلى الله عليه وسلم أن يعلم أصحابه كيف يكون الوضوء الكامل، فقد روى مسلم أن عثمان رضي الله عنه توضأ، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئي هذا ثم قال: « من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة ».. والأحاديث في هذا الباب لا تقع تحت حصر.

وكذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الوضوء، وضوءاً مندوبا مأجورا في ذاته، من غير أن يكون وصلة أو وسيلة لعبادة أخرى.

عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الابل فجاءت نوبتي أرعاها، فروحتها لعشي، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدِّث الناس، وأدركت من قوله « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة »، فقلت: ما أجود هذا، إني رأيتك جئت آنفا. قال: « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا

عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » رواه مسلم والنسائي والترمذي ولأبي داود وفيه: فقلت بخ بخ ما أجود هذا، وزاد الترمذي بعد عبده ورسوله: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين (جمع الفوائد: ١/ ٣٤).

وعن عثمان بن عفان يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده، حتى تخرج من أظفاره » رواه مسلم.

ففي هذه الأحاديث - ومثلها كثير - نجد الوضوء مندوبا لذاته، مطلوبا لذاته مأجورا لذاته.

فإذا اعدنا إلى الأذهان أن الوضوء مطلوب فرضا وشرطا لصحة الصلوات الخمس المكتوبات وشرطا لصحة الصلاة النافلة كصلاة الضحى وصلاة الليل، وشرطا لقراءة القرآن، ومس المصحف وحمله - أدركنا كم كان يتوضأ صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة.

بل إنه كان يتوضأ على الوضوء من غير أن ينتقض وضوءه صلى الله عليه وسلم، فقد ورد عن ابن عمر مرفوعا: « من توضأ على ظهر فله عشر حسنات » أخرجه أبو داود وابن ماجه.

ويبقى في شأن نظافة الأطراف ما كان من سنته صلى الله عليه وسلم في غسل الأيدي والأطراف قبل الاكل وبعده، فقد روى أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي والحاكم: بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده »[1] والمراد بالوضوء هنا الوضوء اللغوي أي الغسل والتنظيف. وقال الزين العراقي: «أراد ببركة الطعام نفع البدن به وكونه يمري فيه لما فيه من النظافة، فإن الأكل معها بنهمة وشهوة بخلافه مع عدمها فربما يقذر الطعام، فلا ينفعه بل يضره »، وتتأكد سنة غسل الأيدي وتنظيفها عند النوم بما روي عنه صلى الله عليه وسلم: «من بات وفي يده غمر فأصابه شيء، فلا يلومن إلا نفسه» رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي والحاكم، ورواه أبو داود مع زيادة: غمر (لم يغسله). وقال ابن حجر: بسند صحيح على شرط مسلم، وكلهم عن أبي هريرة.

كما كان من هديه صلى الله عليه وسلم غسله الأيدي عند القيام من النوم، فقد ورد الامر بذلك في الحديث الصحيح

---

(١) ومع أن هذا الحديث يتردد بين الضعف والحسن الا انه بهديه صلى الله عليه وسلم أشبه. وقد رمز السيوطي في الجامع الصغير له بالحسن. وقال الحافظ المنذري: لا يخرج اسناده عن حد الحسن.

المتفق عليه.

(٢) نظافة الجسد:

أما نظافة البدن، فيجعلها صلى الله عليه وسلم حقا على كل مسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، حتى روي عن بعض الصحابة وفقهاء السلف القول بوجوب غسل الجمعة.

كذلك كان من هديه وسنته صلى الله عليه وسلم الغسل للعيدين، وللإحرام وعند الاحتجام، روى أحمد والدار قطني وأبو داود واللفظ له: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغتسل من أربع: من الجمعة والجنابة، والحجامة وغسل الميت» وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا دخل أدنى الحرم أمسك عن التلبية ثم يبيت بذي طوى ثم يصلي الصبح، ويغتسل ويحدث: «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يفعل ذلك» (نيل الأوطار: ١/٣٠٢).

وهكذا كانت عنايته صلى الله عليه وسلم بنظافة البدن، حيث سن لأمته هذه الاغسال، وجعلها مرتبة موظفة مرتبطة بمواقيت لا تتغير ولا تتبدل كالجمعة والعيدين

وبمناسبات دينية كالإحرام، والوقوف، والطواف، وبمناسبات جبلية كالحجامة والجنابة[1]

(٣) نظافة الفم والاسنان:

لعل البشرية لم تر عناية بهذه الناحية، واهتماما بها مثلما رأته في هدي نبينا صلى الله عليه وسلم وسنته، لا من المعنيين بشئون الصحة والوقاية والعلاج ولا من المعنيين بالآداب والسلوك. وإن ما يتحدث به رجال الطب والعلم الآن من خطورة اهمال نظافة الفم والاسنان. وماترتب على ذلك من دعوة وتوجيه الى الاهتمام بنظافتها ان هذا الذي نراه الان، ويظن البعض انه من ثمار الاكتشافات الطبية الحديثة، واثر من آثار النهضة الوافدة الواردة، كل هذا لا يبلغ شيئا من عناية نبينا صلى الله عليه وسلم بذلك وتوجيهه أمته، فقد كان لا يدع السواك ليلا أو نهارا صائما

---

(١) ومما يستحق التنبيه اليه أن الطهارة في الاغسال الشرعية المسنونة منها والمفروضة وفي الوضوء تكون بالماء وحده، وهذا فيه من التيسير ما فيه. وفيه حمل الخلق على وسيلة واحدة للتطهير حتى لا يكون هناك مجال للتنافس والتباهي والتفاخر في استخدام عطور أو نحوها في هذا التطهر.

ثم أشير الى ما سبق أن قرأته في احدى المجلات التي تعنى ببعض التطبيقات العلمية - قرأت في هذه المجلة أن الماء هو الاقدر على ازالة رائحة الجسد. بل اذكر ان مما قالته المجلة: ان الماء البارد بدرجة حرارته الطبيعية يكون أقدر من الماء الذي تكلف الانسان تسخينه. فان صح هذا فهو احدى المعجزات.

أو مفطرا، ويجعل السواك قربة لله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها «إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب» رواه أحمد والنسائي وهو للبخاري تعليق (نيل الاوطار: ١٢٥/١) ويؤكد الأمر بالسواك بقوله عليه الصلاة والسلام: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» (رواه الجماعة). ويكون أول فعله عندما يعود الى بيته.

فعن المقدام بن شريح عن أبيه قال: «قلت لعائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته قالت: بالسواك» (رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي).

ويجعله أول فعله عندما يستيقظ، روى البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك» والشوص: الغسل والتنظيف، وقيل: التنقية، وقيل: الدلك، وقيل: الإمرار على الأسنان عرضاً. ولعل كل ذلك كان.

ولم يكن عند اليقظة من الليل فقط، فعن عائشة رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرقد ليلا ولا

نهارا، فيستيقظ إلا تسوك » (رواه أحمد وابو داود)

وكذلك لم يترك السواك وهو صائم، فعن عامر بن ربيعة قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا أحصى يتسوك وهو صائم» رواه أحمد وابو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خير خصال الصائم السواك». ونحن نرى الآن من لا يحلو لهم الاقتداء والاستنان إلا بما يفد من الغرب فإذا نظفوا اسنانهم قالوا: قد اكتشف الطب حديثا ان معظم الادواء وأخطرها يمكن اتقاؤه بنظافة الفم والاسنان، وأن الرجل (العصري) هو الذي تلمع اسنانه ولا يؤذي من حوله برائحة فمه. كذا يقولون. ونسوا أنها سنة نبينا صلى الله عليه وسلم من قبل أن يكون لاصنام الغرب وجود[١].

---

(١) ومما يستحق التسجيل هنا ما نشرته إحدى المجلات الإسلامية. (هي مجلة الاعتصام القاهرية). من أن أحد مراكز البحث العلمي في انجلترا أجرى تحليلات وتجارب على (قضيب الاراك) الذي يتخذ منه السواك. وثبت انه يحوى مواد كيائية ذات خواص فعالة في حماية الاسنان واللثة. وعلاج امراض الفم. وتطييب رائحته. (هذه مجرد ملاحظة نهديها لمن لا يعرفون قيمة الشيء الا اذا جاءهم من الغرب).

(٥) نظافة الرأس والشعر:

لعل من أجلي وأوضح مظاهر التنظف والتجمل ما يكون من رعاية الشعر والعناية به، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم الاهتمام بهذه الناحية كل الاهتمام، فقد كان يدني رأسه وهو معتكف في المسجد للسيدة عائشة رضي الله عنها تغسله له وترجله. (أخرجه الدار قطني من حديث عائشة).

وجاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته» (أخرجه الترمذي في الشمائل) وذكر ابن الجوزي في كتاب الوفا عن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع له سواكه وطهوره ومشطه، فإذا هبه الله عز وجل من الليل استاك وتوضأ وتمشط» وأخرج الخطيب البغدادي في الكفاية عن عائشة قالت: «خمس لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدعهن في سفر ولا حضر: المرآة، والمكحلة، والمشط، والمدراء والسواك» وفي رواية: وقارورة دهن بدل المدراء، وأخرج الطبراني في الاوسط عن عائشة قالت: «كان لا يفارق رسول الله صلى

الله عليه وسلم سواكه ومشطه، وكان ينظر في المرآة اذا سرح لحيته».

وكدأبه صلى الله عليه وسلم كان يشغله ويهمه أن يقتدي به أصحابه، ويكونوا في مثل تنظفه وتجمله، اخرج أبو داود بسند حسن عن ابي هريرة رفعه: «من كان له شعر فليكرمه»، ورأى صلى الله عليه وسلم رجلا ثائر شعر الرأس، فأشار اليه باصلاح حاله، فلما فعل قال: صلى الله عليه وسلم «اليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟».

ونحب أن نؤكد هنا أن شأنه صلى الله عليه وسلم كان دائما التوسط والاعتدال، فلا يتوهمن احد انه كان في شغل شاغل بالمشط والمرآة والدهن، حتى يبرر لهؤلاء الفارغين التافهين الذين لا يحملون في جيوبهم إلا المشط والمرآة والعطور، لا يقولن واحد من هؤلاء: هذه سنة نبينا، ولعله صلى الله عليه وسلم قد عناهم وامثالهم بما رواه عنه الترمذي في الشمائل «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الترجل إلاّ غِبّاً».

وكذلك اخرج الترمذي في الشمائل: «أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يترجل إلاَّ غِبّاً» واحسن ما قيل في تفسير

(غبا): عدم المواظبة عليه والاهتمام به والمبالغة فيه، بدون تحديد لذكر عدد من المرات، او تحديد أوقات. المهم الا يخالف المترجل سنة الاعتدال والقصد الى الاسراف والخيلاء والإعجاب بالنفس والانشغال بها.

(٦) التعطر والتزين:

لعل فيما مضى اشارات الى هذه الناحية، وبيان لها، فنظافة الملابس ونظافة البدن هي أساس كل تعطر وكل تجمل وتزين. وقد صار معلوما مشهورا حبه صلى الله عليه وسلم للطيب وحرصه عليه، ونفوره من الرائحة الكريهة. قال أنس: «ما شممت ريحا قط، ولا مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه احمد والبخاري. وروى النسائي والبخاري في تاريخه عن محمد بن علي قال: سألت عائشة أكان النبي صلى الله عليه وسلم يتطيب؟ قالت: نعم، بذكارة الطيب المسك والعنبر» أي ما يصلح للرجال من المسك والعنبر. وروى مسلم عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم: «كان يستجمر بألْوة غير مطراة وبكافور يطرحه مع الالوة» (الالوة بفتح الهمزة وضمها نوع من العود، وقيل نوع من خياره).

وكان لا يرد الطيب اذا أهديَ اليه، ويوصي أصحابه

بذلك، فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما: «ثلاث لا ترد الوسائد والدهن واللبن» والمعنى يكرم الضيف بالطيب والوسادة، واللبن ولا يردها، فإنها هدية قليلة المنة، فلا ينبغي ردها (وهذا الحديث إسناده حسن، وقال ابن حبان: إسناده حسن ولكنه ليس على شرط البخاري... المناوى في الفيض) وفي مسلم: «اذا عرض على احدكم الريحان فلا يرده» وكان أنس بن مالك رضي الله عنه لا يرد الطيب، ويقول: «إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرد الطيب» اخرجه احمد والبخاري، والترمذي والنسائي.

وكذلك كان له صلى الله عليه وسلم مرآة تسمى المدلة، ينظر فيها، وهو يرجل لحيته وشعره. وكان من سنته اذا نظر في المرآة أن يقول: «اللهم كما حسنت خلقي، فحسن خلقي» (الكلم الطيب لشيخ الاسلام ابن تيمية).

وهكذا كان هديه صلى الله عليه وسلم، في كل شأنه ذكر وحمد وشكر، حتى في تنظفه وتعطره وتزينه وتجمله.

أبوته صلى الله عليه وسلم

لا تخطىء النظرة الاولى لسيرة المصطفى صلى الله عليه

وسلم كمال صفة الأبوة عنده عليه الصلاة والسلام - ككل صفاته - واذا كان من ابرز مظاهر الابوة، واهمها، الشفقة بالاطفال والرقة لهم، فقد كان ذلك واضحا جليا في حياته عليه الصلاة والسلام، ليس مع ابنائه وبناته الذين من صلبه، أو أبنائهم وبناتهم فقط بل كان ذلك مع ابناء المسلمين عامة، وذلك يشهد بقوة الابوة واصالتها لديه صلى الله عليه وسلم. فقد يكون الانسان أبا عطوفا شفوقا مع أبنائه خاصة، يستنفدون طاقة حنانه، وجهد شفقته وآخر بره، فلا يبغي لغيرهم شيء، اما نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، فقد كانت الابوة فيه (كاملة) شاملة فاض برها، وحنانها وشفقتها على أبناء المسلمين جميعا، وسعدوا بها، وتفيئوا ظلالها، كانت أبوة سخية معطاءة، بارة حانية تعلم الآباء كيف يكون البر، وكيف تكون الرحمة، وكيف يكون الحنان، بل كيف تكون الابوة. وما زال - وسيظل - يرن في آذان البشرية أخبار تلك الابوة الكاملة الشاملة، حيث سجلتها الاحاديث الصحيحة سطورا من نور يهدي الإنسانية الى سنة خير البرية.

من مظاهر الأبوة العامة:

كان صلى الله عليه وسلم يفرح باطفال المسلمين، ويهنىء بميلادهم، ويباركهم ويسعد اذ يأتونهم بهم يحنكهم، ويسميهم، ويبين للمسلمين كيف يستقبلون أبناءهم ويحثهم على الفرحة بهم، والاحتفال بمقدمهم، ويدعوهم للعقيقة عنهم يوم سابعهم ويشهد هذه الولائم تنويها بها، وإعلاء لشأنها وللمناسبة التي أقيمت من أجلها.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما انها حملت عبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وانا متم (اي في آخر ايام الحمل) فقدمت المدينة، فنزلت بقباء، فولدت بقباء، ثم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان اول شيء دخل جوفة ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حنكه بالتمرة (التحنيك: هو ان يمضغ التمرة حتى تلين ثم يدلك بها حنك الصبي، داخل فمه، حتى ينزل الى جوفه شيء منه). ثم دعا له، فبرك عليه، وكان اول مولود في الاسلام، وفي رواية زيادة » ففرحوا به فرحا شديدا، لانهم قيل لهم: ان اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم » (رواه الشيخان) وفي الصحيحين ايضا عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا الحديث، وفيه

وسماه (عبد الله). ولا يقولن قائل: ان هذا يدخل في باب ملاطفة النبي صلى الله عليه وسلم لأبنائه، وآل بيته، فان اسماء اخت عائشة زوجه، والزبير زوج اسماء ابن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم - لا يقولن قائل ذلك فإن هذا لم يكن لابن اسماء وحدها، والاخبار عن فعله عليه الصلاة والسلام ذلك بغير عبد الله بن الزبير لا تقف عند حصر.

وكأني بأصحابه رضوان الله عليهم قد عرفوا حبه عليه الصلاة والسلام لذلك وسعادته به، فكانوا يحرصون عليه ويهتمون به، بل وجدواهم - ايضا - خيرا في ذلك لابنائهم، وبركة عليهم، يشهد لذلك ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: ولدت أم سليم (زوج ابي طلحة، وأم انس) غلاما، فقال أبو طلحة احفظ (أي لا يتناول شيئا، كما صرح بذلك في رواية أخرى، عند البخاري أيضا) حتى تأتي به النبي صلى الله عليه وسلم (وفي الرواية الأخرى ان الذي طلب حفظه من أن يتناول شيئا هي أم سليم، ولا مانع أن يكون الطلب بالمحافظة على الغلام من أن يتناول شيئا قد كان من كل منهما من ابي طلحة، وام سليم، وتكررت الرواية من أنس رضي الله عنه).

قال أنس: وأرسلت (أم سليم)معه (أي الصبي) بتمرات، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أمعه شيء؟ قالوا: نعم. تمرات، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم، فمضغها، ثم أخذ من فيه فجعلها في (فم) الصبي وحنكه به، وسماه عبد الله» (إرشاد الساري ٨/٢٥٢).

وهذا الحديث أخرجه مسلم بزيادة: «فجعل الصبي يتلمظه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حب الأنصار التمر»[1].

فهنا نجد حرص كل من أبي طلحة، وزوجته أم سليم على أن يكون أول ما يدخل جوف الصبي من ريق النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا يفوتنا أن نسجل ما ظهر من تلطف الرسول صلى الله عليه وسلم، ومداعبته حين علق على تلمظ الطفل (يتلمظ أي يحرك لسانه في فمه، ليتتبع ما فيه من تمر) قائلا: «حب الأنصار التمر»، فكأنه عليه الصلاة والسلام يفسر تلمظ الغلام، بعراقته في حب التمر، وإرثه ذلك عن آله الأنصار، فقد كان أهل المدينة (الأنصار) أهل نخيل،

(١) ملاحظة: قال القسطلاني في ارشاد الساري عن هذا الحديث: (اخرجه مسلم في باب الاستئذان). وليس الامر كما قال، بل هو في باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته.

فالتمر شائع فيهم، وعامة طعامهم، والنبي صلى الله عليه وسلم يذكر ذلك في معرض المجاملة والثناء والرضى عن الأنصار، وأبناء الأنصار.

وربما قيل: إن أم سليم، وأبا طلحة ليسا بعيدين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنس خادم الرسول ابن أم سليم، والمولود أخوه لأمه، فهو يرتبط بنوع صلة بالنبي صلى الله عليه وسلم. ولكن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقطع هذا القول، ويؤكد أن ذلك البر بالأبناء كان لكل أبناء المسلمين، قال أبو موسى: ولد لي غلام فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم به، فسماه إبراهيم، وحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إليّ، وكان إبراهيم هذا أكبر ولد أبي موسى الأشعري (رواه البخاري في باب تسمية المولود غداة يولد لمن لم يعق عنه) ورواه مسلم في باب استحباب تحنيك المولود.[1]

وربما كان أوضح في الدلالة على أن ذلك كان شأن النبي صلى الله عليه وسلم، بصفة عامة، وأنه كان مألوفا معروفا عند المسلمين ما رواه هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) وهم القسطلاني ايضا في هذا الحديث. حيث قال: ان مسلما اخرجه في باب الاستئذان.

كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم. ويحنكهم «أخرجه مسلم.»

فهذا الحديث بهذه الصيغة ناطق وشاهد بأن ذلك كان شأنا منه، ومعروفا عنه ومعهودا من صحابته معه، بصفة عامة، وأن الأحاديث التي رويت، وحددت أسماء ووقائع معينة مجرد أمثلة، وليست حاصرة جامعة مانعة.

وكان صلى الله عليه وسلم، في تسميته لأبناء الصحابة رضوان الله عليهم يتوخى فيها المناسبة لحال كل طفل، وما يدخل السرور على أسرته ويسعدهم، ينطق بذلك الحديث التالي:

عن سهل بن سعد قال: أتى بالمنذر بن أبي أسيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ولد، فوضعه النبي صلى الله عليه وسلم على فخذه و أسيد جالس، فلهى النبي صلى الله عليه وسلم بشيء (أي شغل به) بين يديه، فأمر أبو أسيد بابنه فاحتمل من على فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقلبوه، فاستفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي مما شغله)، فقال: أين الصبي؟ فقال أبو أسيد: أقلبناه يا رسول الله، قال: ما اسمه؟ قال: فلان يا رسول الله. قال: لا، ولكن اسمه المنذر، فسماه يومئذ المنذر) رواه الشيخان.

فمع ما كان فيه النبي صلى الله عليه وسلم من شغل، استغرقه حتى احتمل الصبي من على فخذه من غير ان يشعر، مع ذلك لم ينس أن يسأل على اسمه، ولما عرفه، غيره، لا لكراهية الاسم الذي سموه به، ولكن (المنذر) كان ابن عم ابيه، وكان قد استشهد ببئر معونة، وكان أميرهم، فاختار النبي صلى الله عليّه وسلم له اسم (المنذر) تفاؤلا إن يكون خلفا من ابن عم أبيه الشهيد الذي استشهد ببئر معونة. (شرح مسلم للنووي: جـ١٤ ص ١٢٧).

ومن هذا أيضا ما رواه احمد والبزار عن علي رضي الله عنه قال: لما ولد الحسن سميته حربا، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حربا. قال: بل هو حسن، فلما ولد الحسين سميته حربا، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حربا. قال: هو حسين، فلما ولد الثالث سميته حربا، فجاء صلى الله عليه وسلم، فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قلت: حربا. قال: بل هو محسن » فنحن هنا أمام إصرار من علي رضي الله عنه على (اسم حرب) وكرره في كل مرة ولد له فيها ولد من فاطمة، والنبي صلى الله عليه وسلم في كل مرة يتجاوز عن اختيار على وإصراره، ويغير الاسم، فلماذا

أصر على رضي الله عنه، ولماذا غير صلى الله عليه وسلم ما أصر عليه؟ أخال عليا كرم الله وجهه، وهو رجل الحرب المعروف بالبطولة والإقدام، صاحب المبارزة يوم بدر، وصاحب الصولة والجولة يوم خيبر. كان يختار اسم حرب ليكنى بأبي حرب، فتوافق كنيته صفته وحالته، فهو البطل أبو حرب. كذا كان يقدر على رضي الله عنه فلم لم يرض الرسول صلى الله عليه وسلم؟؟ ولم يتهاون في تغييره؟ والذي يلوح لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى البطولة والشجاعة والثبات في الحرب صفات كاملة متحققة في على كرم الله وجهه، فلم يرض له أن يحصر نفسه في هذا الجانب وأن يجعل كل همه الحرض على هذه الصفة وأن ينادي بها، بل أراد أن يلفته إلى غيرها، ولعله صلى الله عليه وسلم أراد أبعد من هذا، أراد أن يخفف من اهتمام على بالحرب وانشغاله لها.

تلطفه صلى الله عليه وسلم بالصغار ومداعبته لهم:

لم يقف برّه صلى الله عليه وسلم عند حد تحنيكه أطفال المسلمين، وتبريكهم، وتسميتهم، بل كان يداعبهم، ويلاطفهم، ويدخل السرور عليهم، روى البخاري بسنده عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت: أتيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع أبي، وعليَّ قميص أصفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سنه سنه، وهي بالحبشية حسنة. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة[1]، فزبرني (أي نهرني وزجرني، ومنعني) أبي من ذلك، ثم قال رسول الله عليه وسلم: دعها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، قال عبد الله ابن المبارك (راوى الحديث) فبقيت حتى ذكر من بقائها. (إرشاد الساري: ٨/٤٣٤، ٩/١٥).

والمعنى: أبلى وأخلقي كثيرا، أي تعيشين حتى تستهلكي الكثير الكثير من الثياب فهو دعاء لها بطول العمر، وفي رواية: أبلي وأخلفي (بالفاء) والمعنى: أبلي هذا وأخلفي غيره، وهو أيضا دعاء بطول العمر. وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم، (فبقيت حتى ذكر من بقائها) أي طال عمرها حتى ذكرها الناس بذلك، وعرفوها به.

وهنا نجد من الرسول صلى الله عليه وسلم مبالغة في التلطف. والود والبر، فيقول للصبية: سنه سنه أي: جميل، جميل بلغة الحبشة. فلم خاطبها بلغة الحبشة؟ لقد كانت

---

(١) خاتم النبوة: علامة النبوة التي كانت بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم

الصبية حديثة عهد بالحبشة حيث كانت عائدة مع المهاجرين من الحبشة، وأكاد أجزم أن الصبية علقت بعض كلمات من لغة الحبشة كانت تلهج بها، وتتظرف بها لما تراه من حب من حولها لتراها ذلك، كما نرى آل الطفل يرددون (لثغته) ويحاكون (لثته) وهم في سعادة وسرور. فكأن صبيتنا قد كانت تردد كلمة سنه سنه فيما تردد من كلمات تعلقتها من لغة الحبشة. فخاطبها النبي صلى الله عليه وسلم بلغة الحبشة ترديدا لقولها، واستحسانا لكلامها.

ثم لا بد أن نقف هنا أمام أروع صور البر الأبوي. فمحمد عليه الصلاة والسلام الذي ترققه الأبوة، ويلينه الرفق والبر حتى تقبل الصبية عليه تتواثب على حجره وكتفيه، وتلعب بخاتم النبوة بين كتفيه، وتجيل أناملها تتحسس وتداعب وجهه الكريم وجسده الشريف. محمد الذي تبلغ به الرقة هذا المبلغ، هو هو محمد الذي كان يقف امامه الاعرابي الفظ الجافي فتأخذه الروعة والهيبة، فيرتجف، ويضطر صلى الله عليه وسلم ان يطمئن الرجل ويذهب روعه، فيقول له: هون عليك، إنما انا لست بملك، إنما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

بل كانت هيبته صلى الله عليه وسلم ابعد من هذا،

وأكبر، فليست هيبة تروع وافدا لم يلقه من قبل فقط، بل كانت هيبة أكبر من أن تزول بالالف والمعاشرة والمعايشة، فقد كان أصحابه صلى الله عليه وسلم الذين معه، يلازمونه ليله ونهاره، وحله وترحاله أكثر هيبة له من الذين لا يعرفونه، ويكفينا في هذا المجال حديث واحد. روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه انه قال: «صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ملأت عيني منه قط، حياء منه، وهيبة، وتعظيما له، ولو قيل لي صفه لما قدرت» فهذا هو عمرو بن العاص داهية العرب، قائد الجيوش، وقاهر الابطال ووزير معاوية ومستشاره، وصنديد قريش وابن سيد من ساداتها ابن العاص الذي كان يلبس الديباج مزررا بأزرار الذهب، عمرو بن العاص هذا لا يقدر ان (يملأ عينيه) من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأم خالد هذه الصبية (تلعب بخاتم النبوة). هذه الهيبة هذه العظمة كلها تلين وترق، وتبر وترحم حتى هذا الحد، فأي عاطفة هذه؟ وأي أبوة هذه؟ انها الابوة الكاملة الشاملة.

الأبوة الخاصة

هذا عن أبوته صلى الله عليه وسلم لاولاد المسلمين

وعامتهم، أما أبوته لأولاده وأحفاده، فلا شك انها كانت أبلغ وأكمل، سنة الخلقة، وطبيعة الفطرة ان يكون حب الانسان لمن هم من صلبه وذويه أقوى من حبه لمن سواهم مهما بلغ في حبه ورقته فحبه لبنيه وذويه لا شك أبلغ وأكبر. طبيعة مطبوعة، وفطرة مفطورة، وجبلة مجبولة.

واذا نحن أخذنا في بيان سمات أبوته صلى الله عليه وسلم، وملامحها، لوجدنا من ذلك ما يقضي الفطن العجب منه. ولكنا نوجز قولنا، ونعرض بعض ملامح الأبوة النبوية وخصائصها على النحو التالي:

١ - عدم التفرقة بين البنين والبنات، أو قل: إعطاء البنات من المحبة والتقدير حقهن كاملا، لا تنقصهن أنوثتهن من ذلك شيئا.

ولقد كانت البيئة الجاهلية الجافية، في حاجة الى من يلقنها هذا الدرس عمليا وسلوكا، قبل ان يلقنه لها نظريا وتعاليما، تلك البيئة التي كان فيها من تتحجر عاطفته، ويجف نبع الحنان في قلبه، وتنتكس فطرته، وترتكس طبيعته، حى يدفن ابنته حية في التراب، «واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في

التراب، الا ساء ما يحكمون » سورة النحل: ٥٨ ، ٥٩ .

في هذه البيئة وجدنا محمدا صلى الله عليه وسلم يخرج للصلاة حاملا أمامة بنت ابي العاص، ويتقدم الى الصلاة، وهي على كتفه، فاذا سجد وضعها، فاذا قام رفعها. (حديث متفق عليه).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وبالناس أجمعين. ما أرحمه، وما أحلمه، وما أعظمه. أمامة بنت زينب بنته على كتفه، وهو يؤم المسلمين في الصلاة؟ ماذا عليه لو تركها بحجرته؟ ماذا لو تركها مع من يرعاها ويهدهدها حتى ينتهي من صلاته؟؟

أترى رسول الله تدفقت في قلبه ينابيع الحب والشفقة. فلم يقدر على ان يحرم نفسه من ريح (أمامة)، أم تراه خاف عليها ان تتألم أو تبكي لفراق جدها، أم الأمر غير هذا وذاك؟ نعم. أراه صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم المسلمين درسا في الأبوة أو درسا في الصلاة، أو هما معا.

فكأني به صلى الله عليه وسلم أراد ان يقول لامته: ان الصلاة التي هي مناجاة من العبد لربه، الصلاة التي جعلت فيها قرة عينه صلى الله عليه وسلم، هذه الصلاة لا يبطلها، ولا يمنع منها ان تكون ابنتك على كتفك. بل لعله أراد أن

لا يقول لامته ان هذه الطفلة والرقة لها والشفقة عليها من مطهرات القلوب وتخليصها لله فهي من المعينات على إحسان الصلاة.

ام الامر أكبر من كـل ذلك وأنه أراد ان يقول: ان هؤلاء البنات التي كانت تسود منهن الوجوه أولى بالرعاية والاكرام والشفقة والرحمة، نعم هذا ما اردت أن تقوله يا رسول الله؟؟؟ فها أنت قد قلته عمليا، ثم اكدته قولا. «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن، وأطعمهن، وسقاهن، وكساهن، كن له حجابا من النار يوم القيامة» (ابن ماجة والبخاري في الادب المفرد وأحمد). وقال صلى الله عليه وسلم «من بلى من هذه البنات شيئا، فأحسن إليهن، كن له سترا من النار يوم القيامة» أخرجه البخاري).

نعم إنها الابوة الحقة الكاملة التي تسع الذكور والإناث، ولا تفرق بينها، ولا تقدر ان تفرق، لو أرادت، فسخاء العطاء، وتدفق البر لا يمكن ان يعرف حدا يفرق بين الذكر والانثى. ويزداد يقيننا بهذا الذي قلناه حين نسمع لعائشة رضي الله عنها تقول: «أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم قلادة من جذع معلمة بالذهب، فقال: والله لأضعنها في رقبة أحب أهل البيت اليَّ، فاستشرف لها كل نسائه، فأقبل

بها حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص. (لاحمد وابي يعلى)

نعم. أمامة (الأنثى) أحب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم اليه.

أيقدر أحد بعد ذلك أن يثير فرقا بين البنين والبنات؟؟ بعد أن حمل محمد أُمامة في الصلاة، وبعد أعلن أنها أحب أهل البيت اليه.

وفي هذا أيضا أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلل زينب بنت أم سلمة،وكانت طفلة في حجر أمها ويقول لها: يا زناب (الاصابة: ٨/ ٢٤٠) عن بنت الشاطىء

كذلك نجده صلى الله عليه وسلم يأسى لموت ابنته زينب وتظل اللوعة لا تفارقه حتى اذا ولدت الزهراء فاطمة أنثى سماها زينب إحياء لذكرى ابنته الغائبة.

وأجار أبا العاص حين أجارته ابنته زينب، ومن قبل رد لها قلادتها، وفك لها أسيرها حين أسر أبو العاص في بدر، وأرسلت زينب تفتديه بقلادتها.

وحبه صلى الله عليه وسلم لفاطمة، ومن فاطمة؟ إنها رابعة بناته صلى الله عليه وسلم فلو قلنا: أحب زينب لقيل

كبرى بناته، وأول من أذاقته طعم الأبوة[1] أما رابعة البنات بعد زينب وأم كلثوم ورقية، ويصفيها كل هذا الحب...... - فهذا هو الحب الذي يتدفق من الأبوة الطاهرة المستقيمة السخية، التي لا تعرف فرقا بين الإناث والذكور، جاءت فاطمة رضي الله عنها وقد مات ولداه القاسم وعبد الله فلو كان هناك مجال للتفرقة بين الإناث والذكور لكان لفاطمة مكان غير هذا المكان ومنزلة أخرى غير هذه المنزلة، بل لكانت عبئا يضاف إلى شقيقاتها الثلاث. ولكنها الأبوة الأصيلة النقية، التي لا تفرق في عطائها. وسخائها بين ذكر وأنثى.

وأخبار حبه لفاطمة رضي الله عنها لا تحتاج الى بيان أو تأكيد، ومن أراد أن يرجع اليها، ففي الصحيحين في (مناقب فاطمة) ما يكفي ويشفي.

٢ - عدم التفرقة بين الأبناء بعضهم وبعض.

اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم من ذريته الأخوات الأربع زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وأما القاسم وعبد الله فقد ماتا صغيرين قبل البعثة أو بعدها بقليل.

---

(١) في احدى الروايات: ان زينب أول من ولد للنبي صلى الله عليه وسلم.

يشهد لذلك سورة الكوثر: انا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الأبتر. فقد كانو يعيرونه صلى الله عليهة وسلم انه أبتر لا ولد له وسورة الكوثر من أوائل ما نزل من القرآن في أول البعثة.

والأخبار التي حفظت لنامعاملة النبي لبناته لم تفصل كثيرا شأن هذه المعاملة وكيف كانت، وكن متزوجات، فلم يرد لنا من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم بينهن شيء نرجع اليه في ذلك (فيما نعلم) ولكن ما علمه صلى الله عليه وسلم لأمته في حديث النعمان بن بشير «لا أشهد على جور» يؤكد لنا أنه يرى أن الأبوة السليمة والفطرة المستقيمة هي التي لا تفرق بين الأبناء.

٣ - أبوة حانية مشفقة:

وأحسب أن ما ضربه النبي صلى الله عليه وسلم يجل من المثل عن الوصف، ويسمو فوق كل تعليق أو بيان. وان ما ورد في هذا المجال من أخبار - لا شك - مجرد نماذج وأفراد وقائع رآها الرواة فسجلوها ورووها، والا فكم من وقائع، لم يشاهدها شاهد، ولم يرها راء، بل كم من وقائع شاهدها المشاهدون ورآها الراءون. ولم ينقلوها أو لم يدونوها.

وانا لنعجب أشد العجب حين نرى أبوة النبي صلى الله عليه وسلم لا تحجبها ولا تشغلها، ولا تسترها، ماكان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم من نضال وجهاد، غزوات نحو الثلاثين، وسرايا، ووفود، ورسل وتعليم، وتبليغ، ووسط كل هذا تعلن الابوة الاصيلة عن نفسها، وتجد لها مكانا بارزا في حياته وسيرته ﷺ. ان أي رجل الآن يلي منصبا ذا مسئولية في دائرة من الدوائر نجده مهموما مكروبا مشغولا ليل نهار. ينسى ولده وأهله، وربما ينسى نفسه.

اما الابوة عند محمد الانسان صلى الله عليه وسلم، فتجد لها مكانا في خضم هذه الحياة الحافلة بصنوف الشدائد والاهوال. انها الابوة الكاملة، انها أبوة قادرة على ان تعبر عن نفسها وتعلن وجودها. بل لعلها ايضا كانت معركة من ضمن معارك النبوة.

يأتي الوفد من حيث أتى وفيهم سيدهم المطاع (الاقرع ابن حابس التيمي) فلا يمنعه صلى الله عليه وسلم ما هو فيه من شغل باستقبال هذا الوفد، من ان يعبر عن أبوته، فيداعب الحسن ويقبله، فيعجب الرجل، ويقول مستغربا: تقبلون الصبيان؟ ان لي عشرة من الصبيان ما قبلت واحدا

منهم. وعلى الفور يجيئه الرد قاسيا بمقدار ما في قلبه من قسوة، عنيفا بمقدار ما ينطوي عليه سلوكه تجاه أبنائه من عنف. يقول صلى الله عليه وسلم: «أو أملك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك» (رواه البخاري) لم يقل له صلى الله عليه وسلم قولا لينا من مثل: لا شيء في تقبيل الابناء أو ان تقبيلهم من المكرمات، او ان تقبيلهم من الرحمة والرقة، وانما جابهة مباشرة بالسبب والسر الذي جعله يسلك هذا السلوك، وهو انه محروم. حرم الرحمة. نزعها الله من قلبه والنبي صلى الله عليه وسلم هنا لا يعنف الأقرع مؤنبا له على شيء لم يرتكبه، وهو ان الرحمة نزعت من قلبه. ذلك انه صلى الله عليه وسلم على يقين من ان مقتضى الابوة المستقيمة والفطرة السليمة، اما هؤلاء فقد كانوا يرضون أنفسهم على خنق صوت الابوة، وطمر ينابيع الرحمة والشفقة، ووأد العاطفة ايثارا للجفاء والغلظة، حتى يكون أبناؤهم جفاة غلاظا يدخرونهم للصراع القبلي الضيق العطن، فكأنه صلى الله عليه وسلم رأى ان نزع الله الرحمة من قلبه انما بعملهم وسعيهم وارادتهم.

وحين يعجب متعجب من المصطفى قائلا له: تقبلون الصبيان؟؟ فما نقبلهم. يقول له صلى الله عليه وسلم« من لا

يرحم لا يرحم » (رواه البخاري)

وكدأبه دائما يعلم أمته ، ويدعوها الى الهدى والرشد ، فيجعل بر الابناء والشفقة بهم عبادة يثاب عليها الآباء فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: « اذا نظر الوالد الى ولده نظرة، كان للوالد عدل عتق نسمة » (رواه الطبراني في الكبير وهو حديث حسن).

وأخبار أبوته الحانية، ورقته ورحمته بالأولاد لا يتسع المقام هنا للاحاطة بها او احصائها، ولكننا نكتفي بايراد أمثلة وشواهد لها:

فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: « ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ابراهيم ابنه مسترضعا في عوالي المدينة، وكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخن، وكان ظئره قينا، فيأخذه، فيقبله، ثم يرجع ».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « عثر أسامة بعتبة الباب، فشج في وجهه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أميطي عنه الاذى، فتقذرته، فجعل يمص عنه الدم، ويمجه عن وجهه ثم قال: لو كان أسامة جارية لحليته، وكسوته حتى انفقه » (رواه ابن ماجة). فهنا نرى حبه صلى الله عليه

وسلم، واشفاقه، وتدليله لأسامة حتى يتمنى ان كان بنتا فيزينه، ويجمله بالملابس والحلي، حتى يروجها للخطاب. وفي قوله هذا من العتاب لعائشة ما فيه، فحيث (تقذرته) هي، وضع فمه ومصه، ثم حيث أنفت هي واشمأزّت رآه جميلا حتى انه لو كان بنتا لكان جديرا بالحلي والزينة.

ويبدو ان عائشة رضي الله عنها وعت الدرس جيدا، فقد غيرت موقفها في المرة الثانية، حيث روت رضي الله عنها: «أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ينحي مخاط أسامة، قالت عائشة: دعني حتى أنا أفعله. قال: يا عائشة أحبيه، فاني أحبه (رواه الترمذي).

فهنا لم يطلب النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة، بل هي التي طلبت أن تنحي مخاط أسامة، مع انها في المرة الاولى طلب منها النبي، ولكنها (تقذرته) ونستطيع ان نلمح في هذا الحديث انها آستحت من رفض طلب النبي في المرة الاولى، وأرادت ان تجامله صلى الله عليه وسلم في هذه المرة، وطلبت هي من النبي ان يدعها تقوم بازالة مخاط أسامة.

ويلفت النظر ان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عن طلبها، ولا يلتفت الى اجابتها، لا بقبول ولا رفض، ولكن

يوجهها الى ناحية اخرى، الى أساس الأمر وعموده: «أحبيه يا عائشة، فإني أحبه» فكأنه صلى الله عليه وسلم أدرك انهالا تقوم بهذا العمل عن رغبة فيه ورضا به، وقبول له، وانما ارضاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، ولعله أشفق عليها ان تكلف نفسها ما لا تطيق،ولذا وجهها الى ما يرجوه فعلا منها (أحبيه)، فاذا أحبته سهل حينئذ ان تؤدي له كل ما يرجى من اماطة الاذى أو ازالة مخاط.

والاخبار عن حمل الحسن والحسين، وعن نزوله عن المنبر من أجل أحدهما، واطالة السجود لركوب الحسن ظهره، والتردد على بيت فاطمة لتعهدهما والاستمتاع بمرآهما وشمهما، وكذا ما كان منه تجاه ابنه ابراهيم، من فرح بميلاده وحب له في حياته، وحزن عليه عند مماته - الاخبار في هذه المجالات ونحوها لا يتسع لها الوقت ولا المجال ولذا نكتفي بالاشارة اليها.

خاتمة

وبعد :

ما زال أمام البحث اشواط طوال حتى يبلغ غايته، ولكنا نمسك الان التزاما بالعدد المتاح لنا من الصفحات. وانتظاراً لفرصة تسنح، نتم فيها ما بدأنا بفضل الله وعونه

واذا كان لنا من كلمة نتوجه بها الى علماء المسلمين من خلال المؤتمر الموقر، فهي قولنا: ان سيرة نبينا لم تدرس بعد، وان كل ما كتب فيها - لا يعدو ان يكون قطرة من بحر. وان المسلمين في حاجة الى الاستضاءة بنور هذه السيرة العطرة فهي النموذج الحي، والمثال العملي لتطبيق رسالة السماء الذي جعل المثل صورا حية، وواقعا متحركا، ينير السبيل أمام العاملين ويشهد على المتراخين والمتشككين، الذين يدعون صعوبة تنفيذ الشريعة، والعمل بها، ويرونها مثلا زاهية، ونظما رائعة، ولكنها أكبر وأعظم من ان تطبق على وجه الأرض. ان سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ترد على هؤلاء، بما تحقق من تطبيق وتنفيذ لشريعة الله.

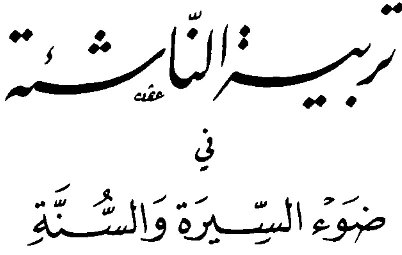
واننا ندعو المؤتمر الموقر ان يضع خطة لدراسة السيرة النبوية الشريفة، وذلك بتقسيمها الى جوانب او موضوعات

جزئية يختص كل منها بجزئية، او مساحة صغيرة من السيرة يدرسها بعمق، واستقصاء، ويستخرج العبرة والعظة منه، وحبذا لو وضعت مواصفات، وشروط واضحة مفصلة يهتدي بها الدارسون في كل موضوع. على ان يعلن ذلك على العالم الاسلامي بكل وسائل الإعلان - ويدعى الى الدراسة والكتابة بصفة عامة، لكل من شاء أو أنس من نفسه القدرة، ويكون لهذا المؤتمر امانة دائمة، توجه النصح والإرشاد بواسطة عدد من الخبراء في هذا المجال.

أما بالنسبة للسنة النبوية المطهرة، فكم اتمنى ان يقوم مركز دراسات السنة في أي دولة اسلامية، وليكن في جامعة قطر الفتية على ان يستفيد من وسائل (الحساب الآلي) على نحو ما اقترحته في المشروع المقدم للمؤتمر الكريم.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

د. عبد العظيم الديب.

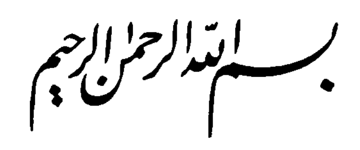


للأستاذ محمد محمد علي الأبشيهي
« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ



تربية الناشئة في ضوء السيرة والسنة

بين يدي البحث

لعل السبب في اختيار هذا العنوان للبحث رغبة ملحة في رسم صورة واضحة للنشء المسلم، صورة متكاملة من كل جوانبها في هذا العصر، الذي اضطربت فيه الآراء، واحتدم الخلاف بين أصحاب النظريات المختلفة، وضل العقل البشري في تيه من النزعات والأهواء، واستولت على ضعاف العقول مظاهر خادعة من الحضارة البشرية التي حملت في طياتها معاول هدمها وعوامل فنائها، وما يزال بريق الزيف يلف النفوس ويعمي البصائر، عن ادراك الحقيقة التي تبقي على هذه الحضارة المتهاويةوتمسك بها عن التردي والانحدار.

وما هذه الحقيقة الا في اقتفاء آثار السيرة المحمدية، باعتبار صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو أكمل نموذج بشري برأه الله من لدن آدم عليه السلام، الى أن يرث الله والأرض ومن عليها، وفي السنة النبوية المطهرة التي

أثرت عن سيد الخلق صلى الله عليه وسلم فهي النبراس المضيء والسراج الوهاج لكل من يلتمس الهداية في عماية الضلال ومن يهتدي بالنور في غياهب الظلام.

كلمة التربية كلمة هادفة، اذ أنها هي سمة الانسان التي تميزه عن سائر الحيوان، فهي مرتبطة بالعاطفة، وهي ألصق الأشياء به ومرتبطة بالعقل أيضا، وفي ظلالها تمكن الموازنة بين وضع ووضع، وبين اتجاه واتجاه، وبها يستطيع المربون والمصلحون أن يصلوا الى أهدافهم القريبة والبعيدة من جهودهم في هذا السبيل.

واذا عرضنا لتربية الناشئة فإننا نرمي الى تجلية حقائقها المادية والروحية، باعتبار هذا الانسان مزيجا من المادة والروح، ولا يمكن الفصل بينهما في كيانه، في أي وضع من الأوضاع اذ لو هبط الى المادة فحسب لكان أقرب الى الحيوان، ولو نزع الى الروح وحدها لجانب سنة الحياة ولأدى به ذلك الى الهاوية، والله عز وجل يريد لهذه الحياة أن تستمر الى أجلٍ قضاه وقدره في علمه الأزلي القديم.

وقد نَعُمُّ - في بحثنا - الجنسين من البنين والبنات، كما قد نفرد كلا منهما بمسائل على حسب طبيعة الموضوع نفسه، حتى لا يكون فيه حيف على أحدهما أو كليهما وتعاليم الاسلام

كانت وما زالت تخاطبهما على سواء قال تعالى: « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » النساء ١٢٤

وكما قلت: إن أصدق مثل يحتذى في التربية هو سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وسنته النبوية المطهرة، أما السيرة فلأنه عليه الصلاة والسلام يقول: «أدبني ربي فأحسن تأديبي »[1] والله عز وجل يقول ممتنا على نبيه بنشأته الاولى :« ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى »[2] فهو انسان رباني صنعه الله على عينه، وحق لنا أن نلتمس من سيرته مثلا يحتذى في كل موقف من مواقف حياتنا، ونحن واثقون تماما بأنها مبرأة من كل عيب، خالصة من كل شوب.

وخليق بنا أن نتتبع آثاره، ومناهج حياته، منذ ولادته الى أن بلغ مبلغ الرسالة، والى أن ابتعثه الله في الناس هاديا وبشيرا، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا، كما نصحبه صلى الله عليه وسلم في رحلة عمره المبارك بوعي كامل لمواقفها المتجددة ولمعالمها المتميزة فنستفيد من كل

(١) البخاري

(٢) الضحى

أولئك بما ينعكس على ناشئتنا خيرا وبركة ، وعلى أمتنا نماء وازدهارا .

وما هدفنا من هذا البحث أن نسرد الأحداث ونروي المواقف دون أن نستنبط العبر ، ونستخلص الأهداف ، التي يتهدى بها الناشئة في حياتهم فتعصمهم من الزلل وتصل بهم الى الكمال المنشود .

وأما السنة فهي بمعناها العام كل ما يشمل أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله الاختيارية واقرار ما يراه من الفعل ، يصدر من غيره ، أو يسمع به من كل ما يثبت عنه ثبوتا بينا بنقل الثقات من أصحابه ،على غير ما يجري مجرى العلة والطبع ، أو العادة المحضة التي لا تحتاج الى أدب شرعي يدخلها تحت طائلة الثواب والعقاب[1] ، فان المجال في هذا الأخير لاستحسان الطبع ، وليس يدخل تحت حكم شرعي ، ويطلب الى الانسان عمله أو تركه ، وكذلك كقوله عليه الصلاة والسلام :« أنتم أعلم بشئون دنياكم[2] وقوله حين امتنع عن أكل لحم الضّب وإقراره حل أكله : (لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافُهُ[3] وهو منحىً إنساني يَسُدُّ منافذ

(١ ، ٢ ، ٣) الموسوعة في سماحة الاسلام لمحمد الصادق عرجون .

التزمت والجمود، ويدفع عن الاسلام شبهات القهر والتسلط والاستبداد، ويجلو للعقل حكم التشريع بلا مرج ولا تعنت وبهذا يحق لنا أن نباهي بهذا الدين، وبرسوله وبهذه السنّة الشريفة التي هي قوام الحياة الحرة الكريمة.

مكان السنة من التشريع والتربية:

لا يهولنك أن ترتفع عقائر آثمة بين الحين والحين، لتغض من شأن السنة، وتقول: «عندنا كتاب الله» فحسب، وهي دعوى قديمة لم تثبت أمام الدليل القاطع، على أن السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع وربما كان الدافع الى هذه الدعوى بعض الأحاديث الموضوعة المنبثة في ثنايا كتب السنة، «والقرآن هو قانون الاسلام، والسنة هي تطبيقه والمسلم مكلف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه، وقد أعطى الله نبيه حق الاتباع فيما يأمره به، وينهى عنه لأنه - في ذلك - لا يصدر عن نفسه، بل عن توجيه ربه، فطاعته هي الطاعة الله، ليست خضوعا أعمى لواحد من الناس[1]».

اذ ليس يعقل أن يشتمل القرآن الكريم، على تفصيلات

---

(١) فقه السيرة - لمحمد الغزالي

الأحكام وتفريعات قوانينه العامة فكانت السنة كفيلة ببيان هذا كله، فاذا تركت للرأي مجالا في الاجتهاد، على مقتضى الأدلة والقياس، فانما ذلك من السنة أيضا.

والأصل في حجيتها ما ورد في القرآن الكريم نفسه: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم»[1] وسببا في حب الله له، وغفران ذنبه، وكثير من النصوص في القرآن الكريم تسير على هذا الهدى، وكذلك في السنة النبوية المطهرة، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله[2]

وأورد هنا مثالا واحدا نستدل منه على أن الله عز وجل قد جعل لرسوله صلى الله عليه وسلم الأمر في كثير من الأحكام يتولى الحكم فيها ويضعها في مواضعها، حسب توفيق الله اياه.

لما نصر الله المسلمين في غزوة بدر الكبرى على المشركين وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة لأول مرة في تاريخ الاسلام،

---

(١) سورة آل عمران - ٣١

(٢) الموسوعة - لعرجون

اختلفوا في قسمتها فنزل قوله تعالى: « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين[١]

قال عبادة بن الصامت: « فينا معشر بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت أخلاقنا فيه فنزعه الله من أيدينا، وجعله الى الرسول فقسمه صلى الله عليه وسلم على سواء[٢]

نحن نعلم أن الله حرم الخمر في القرآن الكريم، ولم يذكر فيه حد شارب الخمر، وعلمنا ذلك من السنة، كما أوجب الصلاة وعرفنا أوقاتها في قوله تعالى: «أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا »[٣] ولكن كيفيتها وعدد ركعاتها، وشروط وجوبها، وشروط صحتها، وغير ذلك مما يتعلق بها تكفلت به السنة.

كذلك الزكاة والصيام والحج وغيرها، لم يتعرض القرآن الكريم لتفصيل القول فيها وإنما ذلك للسنة، وقد وجهنا صلى الله عليه وسلم الى أتباعه في كل أولئك قولا وفعلا في مثل قوله: « خذوا عني مناسككم »[٤] وقوله « صلوا كما رأيتموني أصلي »[٥]

---

(١) سورة الانفال.

(٢) الموسوعة لعرجون.

(٣) سورة الاسراء - ٧٨

(٤) (٥) الموسوعة لعرجون

ولكنني أبادر الى القول بأنه عليه الصلاة والسلام، لم يصدر في هذه السنة عن هوى شخصي - معاذ الله - أو اختلافٌ فكري - حاشا لله - وانما هو وحي الله، الذي يسدد أقواله ويهيّء أفعاله، لموافقة علم الله ووحيه، في الحكم الصالح، والشريعة السمحة، قال تعالى: «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى»[1]، وقال عزَّ شأنه: «انا أنزلنا الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما»[2] تأمل قوله تعالى: «بما أراك الله»، يعني لتحكم على قوانين الشرع، اما بوحي ونص، أو نظر جار على سنن الوحي، وهذا هو ما دعاه صلى الله عليه وسلم، أن يحثنا على أتباعه فيما رواه الحكم بن عمير: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن صعب مستصعب، وهو الحكم، فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وبحديثي خسر الدنيا والآخرة، وأمرتم أن تأخذوا بقولي، وتكتنفوا أمري، وتتبعوا سنتي، فمن رضي بقولي، فقد رضي بالقرآن ومن استهزأ بقولي، فقد استهزأ بالقرآن، قال تعالى: «وما آتاكم

---

(١) سورة النجم ٣,٤

(٢) سورة النساء ١٠٥

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[1]

الأسوة الحسنة:

وفي هذا الإطار يدعونا ربنا جل شأنه أن نلتمس الأسوة في هذا الرسول العظيم فيقول في كتابه العزيز: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »[2]

ويقول عز شأنه: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »[3]

وذلك ما أشرنا اليه من قبل، وهو أننا حين نجلو لناشئتنا جوانب حياته المختلفة وآثاره الكريمة من جوامع كلمه، وسنته الشريفـة صلى الله عليه وسلم، إنما نعمل بما تفرضه علينا الآية الكريمـة من الاقتداء به، فهو لا يعمل الا خيرا ولا يدعو الا إلى خير.

وقبل أن نأخذ في ذلك يجدر بنا أن نلقي أضواء على موقف هذه السنة المطهرة من القرآن الكريم موافقة أو بيانا.

---

(١) الموسوعة لعرجون

(٢) سورة الأحزاب - ٢١ -

(٣) الأحزاب - ٣٦

فهي في ذلك على ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون موافقة له في كل شيء، فيكتسب الحكم بذلك قوة وتأكدا اذ أن تضافر القرآن الكريم والسنة النبوية على شيء واحد، مما يزيده ثباتا ويدعمه وضوحا. وذلك كثير فيما يتصل بالعقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات.

والثاني: بيان وتفسير لما ورد في القرآن الكريم، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه: «ألا وأني أوتيت الكتاب ومثله معه»[1]

وهذه المثلية تتضح في أن الله عز وجل آتاه وحيا باطنا على مثال الوحي الظاهر المقروء، أو أن الله أذن له في بيان الكتاب شرحه صلى الله عليه وسلم له، فإما أن يفصل مجمله كما سبق في بعض هذا الحديث، وإما أن يزيد صلى الله عليه وسلم على حكم القرآن كتحريم زواج المرأة على عمتها وخالتها، زيادة على ما ورد في آية النساء: «**حرمت عليكم** أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من

---

(١) الموسوعة لعرجون

الرضاعة، وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف، ان الله كان غفورا رحيما »[1] فلم تذكر الآية تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وإنما حرمها النبي صلى الله عليه وسلم قياسا على تحريم الجمع بين الأختين، وليس ذلك تقديما للسنة على كتاب الله - كما لا يخفى -

والثالث: ايجاب ما سكت القرآن عن ايجابه، كرجم الزاني أو تحريم ما سكت القرآن عن تحريمه كأكل كل ذي ناب من السباع.

وما دمنا قد آمنا به وصدقناه، وعرفنا أن ما جاء به هو الحق فقد وجب علينا أن نتأسى به في كل ما ورد الينا عنه.

روى أبو داود في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يوشك أن يقعد الرجل على أريكته فيحدث بحديثي، فيقول بيني وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وان ما

(١) سورة النساء - ٢٣ -

حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله »[1]

من أجل نشأة صالحة

إن عناية الاسلام بالنشء ، تصحبه قبل أن يرى النور في هذه الحياة ، وذلك عن طريق تعاليمه القاضية بأن يكون اختيار الزوجين (الابوين) على أساس الدين ، ليضمن النتاج الصالح المهيأ للتربية الصحيحة القائمة على دعائم الفضيلة في العقيدة والشريعة والسلوك ، فليس يخفى أن للوراثة أثرا واضحا في سلوك الفرد ، يدفعه دفعا الى انتهاج أحد السبيلين سبيل الخير ، أو سبيل الشر .

فإن العوامل الوراثية المختلفة تتفاعل مع عوامل البيئة عضوية كانت أم غذائية أم نفسية أم عقلية أم اجتماعية ، أم غير ذلك من الألوان المختلفة للبيئة في تحديد صفات الفرد وفي تباين مسالك حياته ، أو مستويات نضجه ومدى تكيفه وشذوذه ، وتختلف صفات الفرد اختلافا بينا في مدى تأثرها بتلك العوامل المختلفة ، فالصفات التي لا تكاد تتأثر بالبيئة تسمى بالصفات الوراثية الأصيلة ، والصفات التي تعتمد في جوهرها على البيئة ولا تكاد تتأثر بالموروثات

---

(١) الموسوعة لعرجون.

تسمى صفات مكتسبة، ومن أهمها الخلق والمعايير الاجتماعية، والقيم السائدة والصفات التي ترجع في جوهرها الى البيئة ولا تكاد تتأثر بالوراثة تسمى استعدادات فطرية[1]

وتعمل الوراثة على المحافظة على الصفات العامة للنوع، وتعمل أيضا على المحافظة على الصفات العامة لكل سلالات النوع، ومن ثم فهي تقارب بين الوالدين والأبناء في صفاتها الوراثية[2]

ونحن نعلم أن رغبات الناس تتباين في الارتباط الزوجي على حسب ما ركبه الله في الانسان من نوازع الخير أو نوازع الشر، وقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم هذا التباين ولم ينس أن يفصل في الأمر ببيان حكم الله في الاختيار الصحيح، فقال عليه السلام: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»[3]

أي افتقرت إن رغبت عن الدين في هذه الزيجة المنتظرة، والافتقار هنا - كما يبدو - ليس افتقارا ماديا فحسب، وانما هو افتقار شامل للمادة والروح معا، ومن السهل علينا

(١ . ٢) علم النفس العام دكتور عباس محمود عوض

(٣) البخاري ومسلم رواه الجماعة الا الترمذي.

أن نوضح مظاهر هذا الفقر العام فيما شأنه أن يكون مبعث فخار ومباهاةٍ في كل من المال والجمال والحسب والنسب ،

أما الرغبة في المال فهي مرهونة به وجودا وعدما ، فإن وجد بين الزوجين استقام أمرهما ، وإلا فقدت الحياة هيبتها وكرامتها ، لأن صلة أحدهما بالآخر حينئذ لم تكن ذاتية شعورية ، وانما هي مظهرية كاذبة خادعة .

وكذلك الرغبة في الجمال مرهونة بوجوده ، فإن فارق صاحبه - وهو لابد مفارقه للمرض أو السن أو لهموم الحياة - تفاقمت المشكلات وأصبحت الحياة الزوجية على شفا الهاوية ، كما أن هذا الجمال نفسه مناط فخر ، ومبعث طغيان ، حين يحمل على التباهي بهذه الهبة الالهية وتجاوز الحد في الاستمتاع بها والوقوف عند حدودها .

أما الحسب والنسب ، ففي أغوار التاريخ قديمه وحديثه ما يشير الى أنهما كانا سببا في التفرقة العنصرية والنزاع الطبقي ،وما يجره هذا من ويلات على البشرية ،اذ يحدوان بكثير من الناس أن يدعي ويغرق في الادعاء بأنه من نسل الالهة ،أو أنه من دم طبقة معينة ، تستنكف أن تعايش الطبقات الأخرى ممن هي دونهم منزلة ، وجاها وسلطانا ، فعم الظلم الاجتماعي ، وعاشت البشرية تحت نير القهر

والتسلط، وعانت الطبقات الدنيا سلسلة من الهجمات الشرسة، اقتصاديا وسياسيا.

وكما أن لكل قاعدة شواذا فإننا نلمح من خلال ظلمات التاريخ نماذج ممتازة من الحسيبين النسيبين الذين رقت مشاعرهم ورهف حسهم وسمت انسانيتهم وبعدوا عن الدنايا، وتخلقوا بالآداب العالية، وعلى رأس هؤلاء جميعا الحسيب النسيب محمد صلى الله عليه وسلم، فقد نبت في خير منبت، وكانت أسرته الهاشمية خير الأسر، وتحدث هو عن نفسه صلى الله عليه وسلم فيما يرويه واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1] وهذا الاصطفاء الالهي لأعراقه وأصوله، ليس الا دليلا على طهارة المنبت وصفاء المعدن حتى لقد أثر أن أجداده وآباءه عليه السلام كانوا سدنة الكعبة وسقاتها، ومطعمي وافديها، ذلك لتمسكهم الشديد بمعتقداتهم المأثورة، فكان لهذا أثره في هذا النبات الكريم.

ومن مقتضيات الرسالة المحمدية كغيرها من الرسالات،

---

(١) صحيح مسلم والترمذي.

أن يكون الرسول حسيبا نسيبا ليتناسب ذلك مع قدسية الرسالة التي أمر بتبليغها الى الناس كافة، فهذا الحسب وذلك النسب مما يبعد به الشبهات حتى لا يكون فيه مغمز لأحد، حيث هو رسول الى الناس كافة من سائر الأوساط ومختلف الطبقات.

وذلك هو الملمح الذي لمحه هرقل ملك الروم في محمد عليه السلام حين أرسل بكتابه مع (دحية بن خليفة) يدعوه الى الاسلام، اذ جمع عنده في مجلسه نفرا من قريش كانوا قد وفدوا الى بلده تجارا فيهم أبو سفيان بن حرب، اثر رؤيا رآها في نومه، فسألهم في حديث طويل رواه البخاري عن خبر النبي وأحواله، وما يأمر به وينهى عنه، فأجابه أبو سفيان وكان من بين أسئلة هرقل لأبي سفيان: «أهو فيكم ذو نسب»، فلما أجابه بنعم قال: «وكذلك الرسل يبعثون في نسب قومهم»[1]

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الحسيب والنسيب كان أخشى ما يخشاه أن يركن أهله وذووه الى هذا الحسب والنسب، فيصرفهم ذلك عن العمل لله ورسوله،

---

(١) صحيح البخاري بتصرف.

فكان يهتف بهم في كل مناسبة أن يذروا الاعتماد على النسب، فهم وغيرهم من سائر الأمة سواء عند الله لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى أو عمل صالح.

روى أبو هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم بنو آدم وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، والناس مؤمن تقي، وفاجر شقي»[1]

مراحل التربية

الطفولة:

بغير شك هي مرحلة البناء، وهي أخطر مرحلة في حياة الناشئة بل وأعقد مرحلة لأن الطفل يتعرض فيها لأنماط من النمو، وأنواع من السلوك تكون نتاجا لعوامل متباينة جسمية وعقلية ونفسيه، ومن ثم يحتاج الى رعاية تامة، ليتجه الوجهة الصالحة، التي نريده عليها لهذا كان دور التربية في الطفل والملاحظة الدقيقة له، في جميع الأحوال وسائر سلوكه دورا ايجابيا فعالا لا تجدي فيه السلبية، ولا تنفع فيه الاتكالية والمربون يقولون: - ان

---

(١) الموسوعة في سماحة الاسلام - لعرجون

الطفل في هذه الحالة يكون كالعجينة اللينة يمكن تشكيله والتأثير فيه، وطبعه بالطابع الخاص الذي ينشده المربي، الذي قد يفلح في تغيير اتجاهه، إما الى صلاح وإما الى فساد، ولهذا أيضا كانت التبعة الملقاة على عواتق المربي، من أخطر التبعات وعليها يتوقف مستقبل الأجيال.

وعناية الاسلام بالنمو الجسدي للطفل نابع من إيمانه بأن الظواهر النفسية والعقلية التي هي مناط حياة الطفل تتأثر بذلك النمو الجسدي في شتى مراحله، قوة وضعفا، وصحة ومرضا.

ولذا فإن الاسلام يدعو الى دراسة هذه الظواهر وربط كل حالة بأسبابها ومسبباتها، حتى يصدر المربي في الحكم على تصرفات الطفل عن وعي وادراك، فلا ينسب اليه سلوكا هو منه براء لأنه يسير وفق هذه التغيرات الجسدية، وهنا تصلح الملاحظة الدقيقة والتنبيه الهادىء سبيلا الى تقويم السلوك وتعديل المسار، والدلائل كلها تشير الى أن مايتعلمه الطفل ويحذقه في طفولته ليس من السهل نسيانه أو التقصير فيه حين يشب عن الطوق.

وينفعنا في تقرير هذه الحقيقة ما يرويه عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وكانت يدي تطيش في الصفحة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا غلام، سم الله تعالى، وكل بيمينك وكل مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعد»[1]

على أن الطفل الى سن السادسة يظل في اضطراب انفعالي لم ينضج ولكن انفعاله يثار ثورات جامحة لا تستقر على حال، ومرد ذلك الى ما فطر عليه من ألوان الغيرة والعناد والتحدي. حتى اذا تجاوز السادسة أمكن أن تحد له الحدود، وتوضع له القيم، ويؤخذ في تعديده العادات الصالحة لتأخذ مكانها في حياته بعد وتتدرج التربية عاماً بعد عام في أشكالها وقوانينها وإجراءاتها.

فالطفل في سن السابعة الى العاشرة يكفيه قول خفيف وأمر لطيف بالصلاة ليلزمها ويتعودها، ولعل الضرب في هذه السن يكون أمرا غير طبيعي ينظر اليه الطفل على أنه قسوة لا تليق، وأن جسمه الطري وعواطفه البريئة، ونفسه اللاهية، كل أولئك منه لا يسيغ هذا الضرب، ولا يبيح تلك القسوة (في زعمه)، فاذا وصل الى العاشرة ولم تجد معه هذه الطريقة لجأ المربي الى الطريقة الأخرى، ومثل الصلاة غيرها من سائر العبادات والمعاملات والأخلاق.

---

(١) رياض الصالحين.

وتأتي بعد ذلك فترة المراهقة لدى الطفلة أو الطفل ، ولا تقل خطورة عن سابقتها وتبدأ في سن الثانية عشرة ، ومظاهر هذه الفترة من الناحية الجسدية لا تخفى على أحد ، وربما كانت أخطر من مرحلة الطفولة ، لأن الغريزة فيها تنطلق الى أبعد مدى لا يمكن حجزها أو التحكم فيها الا اذا أغلقنا عليها المنافذ ، وتمكنا قبل ذلك من التمهيد لضبطها وترقيتها عن طريق التعاليم الاسلامية التي تؤكد العادة وتثبت السلوك ، وليس يفيد في هذا الموقف انكار الغريزة أو نفيها أو السعي الى كبتها ، فطبيعتها البيولوجية والاجتماعية تأبى علينا ذلك ففيها يتكامل الجسم البشري ويصيح صاحبه قائلاً : لا بد من اشباع رغباتي ،ويرى الكبار من حوله يفعلون أشياء يطلب اليه ألا يقربها ، وهذه مشكلة ينفع في حلها التمهيد الذي ألمحنا اليه آنفا ، بالاضافة الى مجموعة التعاليم الاسلامية التي تعترف بهذه الفترة بخصائصها ومقوماتها وتسعى سعيها لتعديلها وفقا لقواعد الأخلاق ومقرارت الدين التي لا تتناقض مع متطلبات الحياة الناضجة الكريمة .

حتى اذا استوت فترة الشباب بعذ ذلك أمنت الأمة على ناشئتها من الانحراف لأننا صحبناها منذ نشأتها الى أن

استوت على الطريق فسهل علينا أن نخلص الى أنفسها وعواطفها بهدوء وأريحية في تجاوب روحي، ومشاركة نفسية فعالة، وذلك عن طريق غرس الثقة في نفوس الشباب فلم يعودوا أطفالا ولا مراهقين، لأنهم يأبون أن ينظر اليهم كأنهم تبع ليس لهم رأي ولا فكر ولا هوى.

واذا لابد من التوافق في كل شيء بين الناشئة والقائمين على أمرهم التوافق الاجتماعي، والتوافق الذاتي، والتوافق الاقتصادي، والتوافق الديني، وان كنت أرى أن التوافق الديني يغني عن جميع التوافقات باعتبار الدين هو ملاك الحياة ومنظمها وحادي مسيرتها في مختلف النواحي الاجتماعية والاقتصادية والذاتية، فله في كل ناحية تعاليم، تهتدي بها البشرية على مَرِّ الأجيال والعصور.

«والجانب الديني جزء من التركيب النفسي للفرد، وكثيرا ما يكون مسرحا للتعبير عن صراعات داخلية عنيفة، مثال ما نجده عند كثير من الشباب أصحاب الاتجاهات الالحادية في الدين، حيث يكون هذا الاتجاه الالحادي نوعا من العدوان الموجه نحو مصدر السلطة (الأب) مثلا، أو ما نجده أحيانا عند آخرين منهم تعصبا دينيا، حيث يكون هذا التعصب أو الحماس الديني محاولة

دفاعية لكي يلوذوا بها من الاحساس بالذنب الناجم عن دفعاتهم الجنسية »[1]

ولا تنتج هذه النزعة العدوانية التي تؤدي بالناشئة الى الالحاد مثلا ، الا اذا أسيئت تنشئتهم ، ولم يسلك معهم سبيل الاقناع العقلي والنقلي وانما اتخذ معهم طريق القهر والتسلط العقدي ، وما كانت العقيدة في يوم من الأيام شيئا يفرض على الناشئة فرضا ، وبالتالي توابع العقيدة من سائر التعاليم ، قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »[2]

هذا ، مع الاعتراف بأن للارادة الالهية والاصطفاء الرباني اثرا كبيرا في هداية الناشئة الى خير العمل وعمل الخير ، ولولا مشيئة الله في ذلك ما كان . قال تعالى مخاطبا نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء »[3]

واذا أردنا أن نستفيد بنشأة الرسول صلى الله عليه وسلم هذه النشأة الصالحة التي تنزهت عن دنايا الجاهلية

---

(١) علم النفس العام - دكتور عباس محمود

(٢) سورة البقرة « ٢٥٦ »

(٣) سورة البقرة « ٢٧٢ »

وسفاسفها في المعتقدات والسلوك، كان علينا أن ننبه الناشئة ونحن نروي لهم هذه المواطن من سيرته العطرة الى أنه عليه الصلاة والسلام كان له جهده الخاص في هذه النشأة، بالاضافة الى تسديد الله له ورعايته اياه، فلم يكن سلبيا ولا آتكاليا وإنما كان يتخذ من هذه العناية الربانية سبيلا الى الاستزادة من كل ما يرقى بعقله ونفسه وروحه وخلقه. روى ابن الاثير، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب فقال أفعل: فخرجت حتى اذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني الا حر الشمس فعدت الى صاحبي فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء»[1]

فهو صلى الله عليه وسلم يتحدث عن هذا الموقف في

---

(١) المعجم للطبراني

مطلع حياته كعلامة مضيئة على طريق هذه الحياة الحافلة، وكنقطة انطلاق له ولكل أبناء الأمة المحمدية أن يستمدوا من الله العون ويستشعروا عظمة الله وقدرته على وقايتهم من المكايد والشرور، لا أن يكسلوا أو يتهاونوا أو يقعدوا عن السعي لتحقيق رسالتهم في الحياة.

وكانت الخطوة الثابتة في هذه الحياة النبوية المسددة أن حببت اليه الخلوة في غار حراء، يجد أنسه ومتاعه في البعد عما يخوض فيه الناس وما يزاولون وأخذ يستطلع في هذا المنعزل أسرار الغيب، ناظرا في ملكوت الله وقد مده الله بقوة خارقة يستلذ معها الصعاب، ويستهين بمطالب الجسد ولا يستشعر الوحشة في هذه الوحدة الساكنة.

«كان أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم من الوحي - الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء حتى جاء الحق وهو بغار حراء، فجاءه جبريل»[1]

ويذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجاور في حراء من كل سنة شهرا... ثم يقول: (نقلا عن ابن اسحاق): يجاور ذلك الشهر من كل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام

سنة يطعم من جاءه من المساكين، فاذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره، ومن شهره ذلك كان أول ما يبدأ به اذا انصرف من جواره الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك». وهي جملة من العبادات تيسرها هذه النشأة الصالحة تحنث في الغار، ثم اطعام المساكين ثم طواف بالكعبة، وذلك أحرى أن يكون مثلا لناشئتنا أن يشغفوا بالتأسي به، ليكون ذلك باعثا لهم على حسن السيرة بين الناس أجمعين.

وقصارانا في هذا البحث، أن نبرز معالم الشخصية الاسلامية التي ينبغي أن يتحلى بها شبابنا في كل منحى من مناحي الحياة الخاصة والعامة. فهي حرب على كل مبدأ مستورد لا أساس له من ديننا ولا سند له من تقاليدنا وانما هو البساطة التي تشير اليها الحكمة النبوية القائلة: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك»[1]

وفي اطار هذا البحث سنتناول في حديثنا ما يتعلق بالناشئة من حيث تقويم الأجسام والأنفس والعقول والاخلاق في خاصة أنفسهم، وفي علاقاتهم بمجتمعاتهم الصغيرة والكبيرة، على سواء.

---

(١) الأربعين النووية رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أساليب التربية

أعباء المربي:

قد يلاقي المربي سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب، ولا سيما اذا كان أبا، فهو يعاني من التفكير في مشكلاتهم، في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، فالولد وهو جنين يحتاج الى رعاية خاصة قبل أن يرى النور، فاذا ولد بدأت المتاعب من يوم ولادته، لا تكاد تنتهي، واذا كان البيت مجندا لخدمته والسهر عليه، فهو الآمر الناهي على ضعفه، وحسبهم أن يتوعك قليلا لينقلب الجميع رأسا على عقب، بين باحث عن الدواء، ومجهزه وساقيه، ومحصنه ضد البرد والحر والمرض والنكسة، واذا بهم يتابعون نموه، لكل مرحلة من مراحل هذا النمو مقوماتها ومسلتزماتها ومشكلاتها - كما قدمنا - طفلا وصبيا وشابا يافعا من البيئة والمدرسة، والمتابعة وتحمل الأخطاء ليستقيم على الطريق وهذه النفقات الطائلة التي طالما عنوا أنفسهم لتوفيرها، ثم هم يخشون في النهاية أن يجزيهم عقوقا ببر واهمالا باقبال وبغضا بحب وبخلا بكرم، وجهلا بعلم، وقطيعة بوصل، ولكن لا بأس فتلك هي سنة الحياة. جيل يعد جيلا، وآباء وأمهات يربون أبناء وبنات، وليس جحيما ولا عذابا ما يلاقيه المرء

في أداء هذه الرسالة بل الجحيم والعذاب أن يعيش المرء في حياته مقطوع الصلة من العزوة والأبناء، حتى اذا خرج من الحياة انقطع أثره، فلم يعد أحد يذكره بخير أو بشر.

أليس هذا الولد أنس البيت وسكن الأسرة ومعقد آمال الأب والأم، وودت لو نظر المربي الى المسألة نظرة مجردة، واذا لهانت في جانبها المادة والمشقات والالآم. ولذة الحياة أن يشعر الانسان فيها بالمكابدة قال تعالى: «لقد خلقنا الانسان في كبد»[1] أما النفقة ومتاعبها فهي رزق الله وربما كان الولد - هذا المخلوق الضعيف - الذي لا حيلة له، هو سبب ما أفاض الله من رزق وأنعم من خير، أليس الولد من الضعفاء وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم»[2].

أريد هذا المربي أن يفطن الى شيئين، أولهما أنه أداة منفذة لما خطته يد القدر فليس عليه الا هذه المهمة، أما تسديد الأولاد وتخطيط حياتهم واقرار مستقبلهم فالى الله وحده، من هذه الزاوية يستريح، فأكبر الظن أن تفكيره في المتاعب التي يلقاها، ليس في المتاعب نفسها فهي حبيبة الى نفسه على رغمه وانما في مستقبل الولد، ولكن هذا المستقبل

---

(١) سورة البلد «٤»

(٢) البخاري

في ضمير الغيب ليس لأحد من خلق الله أن يرجم به أو يطلع عليه أو يقرنه بمتاعب أو بتفكير أومعاناة، والمربي بهذه التربية انما يؤدي عبادة يتقرب بها الى الله، فكل جهد يبذله محسوب له في ميزانه يوم القيامة، والمسلم مهما حاول أن يتشبث بالحياة الدنيا معزولا عن الآخرة فلن يستطيع، وأراني شديد الثقة باستماع المربين ووعيهم، وأحسبهم قرأوا أو سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له سترا من النار»[1]

واذا كان هذا في البنات، فلأنهن أضعف من البنين ويخشى النبي اهمالهن في التربية، أما الابن فالأب يندفع الى تربيته بدافع ذاتي قوي يكفيه مجرد التذكير بها، ولفت الانتباه اليها.

وأشد ما يلقاه المربي للناشئة من متاعب، ألا يجد صدى لتربيته، أو يجد صدى عكسيا، لم يكن ينتظره أو يتوقعه، اذ يجد البون شاسعا بين واقعهم وبين الصورة الحسنة التي كونها لهم في مخيلته.

وأنني أهمس في أذنه قائلا: أخشى أن تكون أنت فيما صار إليه الولد، مما تتخيله انحرافا عن الطريق ثم لا تنس أن

---

(١) البخاري ومسلم.

هذا الولد نشأ في جيل غير جيلك وظروف غير ظروفك وكل جيل له طابعه وسلوكه، فمن الجور أن تحمله هو أوزار جيل بأكمله، إن عليك أن تعايشه... معايشة واقعية. فلا تفرض عليه سلوكا كان سائغا في العصر الذي مضى لعلك كنت تعتقد أن القسوة في المعاملة والقيود المضنية والموعظة المتوالية أنماط من التربية يمكن أن تؤدي الى نتيجة حسنة، ولكنك وجدتها جاءت بعكس النتيجة، أو لعلك أفرطت في تدليله واجابة جميع مطالبه، بلا توقف فلما أسرف على نفسه وذهبت تحد من هذا الاسراف انفجر في وجهك ورأى أنك تمنعه حقا مقررا له، أو لعلك تهاونت أول الامر في تنشئته على حدود الدين، فلما بدا لك أن تعطفه الى الدين بعد الكبر لم تجد منه استجابة أو انصياعا.

إن تربية الولد دقيقة غاية في الدقة، فليس وضع من الأوضاع فيها يصلح أن يكون قاعدة فهلا دققت النظر وواليت البحث في الطريقة التي يصلح عليها ولدك؟

في وسعك في هذه الحالة أن تؤيد توجيهك بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1]

---

(١) الترمذي وأبو داوود باسناد حسن

وقوله: «انما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[1].

أو لعلك ربيته على أساس من السيطرة التقليدية من الآباء على الأبناء فلما عارضك يوما في أحد التصرفات كانت هي القشة التي قصمت ظهر البعير، أولعلك تركت له الحبل على الغارب، فألغيت شخصيتك وسلمته مقاليد الأمر يصرفه كيف يشاء فلما بدا لك أن تستخدم حقك في القوامة الطبيعية على الأولاد، أنكره عليك وضرب بكلامك عرض الحائط، واستهان برأيك، ولم يحفل بغضبك، وأمعن في تنفيذ ما يريد على رغمك، وقد كنت أنت السبب فيما آل اليه أمرك معه.

أرأيت.. ولكن الوقت لم يزل فيه متسع كبير لاصلاح المعوج وتقويم المنحرف، فلا داعي الى اليأس، أعطه شيئا من الثقة، وشيئا من الحب، وشيئا من الأمل، فما أراه إلا منعطفا نحوك فأنت أبوه وهو ابنك وبينكما من صلة الدم

---

(١) البخاري ومسلم.

ووشيجة القرب ما يسهل عملية التربية بلا حساسية ولا عقابيل، واياك أن تفكر في اهماله أو تضييعه، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت»[١]

فتش عن الأصدقاء من بعيد، فربما كانت بطانة السوء - على رغم كل هذا - هي السبب في هذا البلاء، واذا أعوزك الأمر بعد هذا كله فلا تيأس مرة ثانية من التجريب، ولا تبتعد عنه الا لتقرب منه، وليكن في رسول الله أسوة حسنة، اذ صبر على بلاء قومه ولم ييأس من صلاحهم، فلما نزل قوله تعالى: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»[٢]. قال عليه الصلاة والسلام: «أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم»[٣]

نماذج من أقوال الرسول وأفعاله:

في مجال غرس العادات الصالحة في نفوس الناشئة أذكر هنا موقفه من ابن بنته الحسن بن علي رضي الله عنهما، حين

---

(١) أبو داوود باسناد صحيح

(٢) سورة التوبة - ٨٠ -

(٣) تفسير ابن كثير

أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، لقد قال له الرسول: «كخ .. كخ.. أرم بها، أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة»[1]

وفي مقام اللطف والرقة والرحمة بالصغير، ماورد عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله، فاذا سجد وضعها واذا قام حملها»[2]. وروى أبو بكر رضي الله عنه قال: «رأيت النبي على المنبر والحسن معه، وهو يقبل عليه مرة، وعلى الناس مرة، ثم قال: ان ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[3]

هذا سمو في التفكير، وبساطة في السلوك، وغوص الى أعماق الحياة وليس خفض الجناح للولد شيئا مما يجرح الكرامة، أو ينال من الشخصية، أو ينقص من قدر الأب في نظر أبنائه، بل سيذكرون دائما عندما يكبرون أنه كان لهم دائما أرضا ذليلة، وسماء ظليلة وأن ذلك مما يبعث على الاجلال والاحترام، لا على التغاضي والاهمال، فعن أبي

---

(١) البخاري ومسلم

(٢) البخاري

(٣) البخاري.

هريرة رضي الله عنه قال: «قبل النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من لا يرحم لا يرحم»[١]

كما قال في حديث آخر ردا على ناس من الأعراب، فقالوا في مواجهته: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم قالوا: لكنا والله لا نقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أو أملك أن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة»[٢]

حقا لا يملك فقدان عاطفة الرحمة عندهم وعند أمثالهم من الجفاة الغلاظ الذين قدت قلوبهم من الصخر، حتى بالنسبة لأولادهم وفلذات أكبادهم، فنشروا هذا الرعب والفزع بين أرجاء البيت، ووزعوا البغضاء وبثوا أسوأ قدوة في نفوس الأبناء.

وعلى صعيد الفقه في الدين، وغرس التعاليم أذكر حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمها شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: من يجترىء عليه الا أسامة ابن

---

(١) البخاري

(٢) البخاري.

زيــد حــب رسول الله صلى الله عليــه وسلم، فكلمــه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟ «ثم قام فاختطب ثم قال: انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمــة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سرقت لقطعت يدها»[١].

وليس ما ذكرته الا أمثلة قليلة من التربية الاسلامية وهي خليقة أن تلتزم هي وأضرابها في تنشئة الأبناء، يومئذ نطمئن الى نضج الثمرة وحسن النتيجة، حين نجد أبناءنا وثمرات قلوبنا وفلذات أكبادنا يسيرون في ظلال هذه التعاليم على طريق مستقيم.

مع الابناء:

اذا كـان حديثي فيما مضى إلى الآباء والمربين، ونهوضهم بالأعباء في أداء رسالة التربية فان من واجب الأبناء أن يقـدروا لهم هذا الفضل وأن يلتقوا معهم في منتصف الطريق، فلا يحيدوا عنه أو يشذوا فان موضوع العلاقة بين

---

(١) رياض الصالحين.

المربي والمربّى وثيق الصلة بينهما لا يمكن لواحد من الطرفين أن يحايد الآخر أو يناقضه والا توقفت الحياة على وضع جامد في حين أن طبيعتها تأبى هذا التوقف ولا نريد الا أن تنطلق في مجالات التقدم والترقي.

لقد أوجب الله على الولد بر الوالدين وشدد على ذلك وأكده حتى جعله في المرتبة الثانية بعد توحيد الله، ففي القرآن الكريم: «وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احسانا»[1] وفي موضع آخر: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا»[2]. وراعى اختلاف الزمن وحساسية النفوس، فأكد وجوب هذا البر من الأبناء للوالدين في كبرهما، لأنهما في هذه الحالة يكونان في أشد الحاجة الى هذا البر لضعفهما ووهنهما، وعدم قدرتهما على القيام بمتطلبات الحياة اليومية، من قعود أو قيام أو اعداد لطعام أو إحضار لشراب، كما قد تنقص قدرتهما على النفقة أو توفير لقمة العيش لأبنائهما في حين أن الولد بفضلهما قد تيسرت حالته، وكثر ماله واشتدت قوته، وبدا كما لو صار مستغنيا عنهما، وفي غير حاجة اليهما، وتشتد

---

(١) سورة الاسراء ٢٣

(٢) سورة النساء «٣٦»

حساسية الوالدين في هذه الحالة، فيصعب عليهما أن يكونا في موضع الحاجة اليه، فربما شقا على أنفسهما، وتكلفا مالا يستطيعان، عند ذلك ينبغي أن يكون الولد يقظا فلا يحوجهما الى التصريح بطلب المساعدة إن أمكن الاستغناء بالايماء والاشارة، ليحفظ عليهما ماء وجهيهما وليوفر لهما الكرامة، حتى اذا ساعدهما لايمن عليهما أو يظهر بمظهر المتفضل المتكرم، فاذا حدثته نفسه أن يخطر بباله شيئا من ذلك، أو استثقالا لخدمة يقدمها اليهما، فليخطر بباله دائما تلك المتاعب التي كم لقياها في سبيله في جميع مراحل حياته، عن طيب خاطر ورحابة صدر، حتى كان كل منهما يخرج اللقمة من فمه ليضعها في فمه، ويستغني بأخلاق الثياب ليوفر له الجديد دائما، ويصوم أكثر أيامه ليضمن معيشة حسنة له، واذا رأى الولد من أحد والديه شيئا مما يبعث على التأفف والتضجر، فلا يضيق به لأن كبر السن حالة لا يملكها الوالدان، ولا يملكان زمام أمرهما فيها، فأحدثت الشريعة الاسلامية هذه الموازنة ليستقيم أمر الحياة، تجبر نقصها وتستر عيبها وتفثأ حاجتها، وتكون لهما اليد التي عجزت، والرجل التي ضعفت، والعقل الذي هرم، والحركة التي فترت، والكسب الذي ندر، والطموح

الذي همد، والمستقبل الذي ولى، والماضي الذي رحل، بما بذلا في سبيل تربيتك وتحملا في السهر عليك تستوجب بذلك رحمة الله «ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا»[1]

ولا يزال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العقوق يرن في سمع الزمن نذيرا شديدا لكل من خبثت نفسه وانتكس خلقه، قال عليه الصلاة والسلام «الا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الاشراك بالله وعقوق الوالدين... الخ».[2]

استدراك وتحفظ:

وتتمة لما بدأنا في الحديث مع الأبناء، نستدرك على ما قررنا من وجوب الطاعة المطلقة للآباء ولكن في تحفظ شديد، إنها حالة واحدة فقط يجوز بل يجب على الولد فيها أن يخالف عن أمر أبيه، أن يجاهده على أن يشرك بالله ولكن في رفق وأدب ومصاحبة بالمعروف، وصلة رحم، قال تعالى: «وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا»[3]. وعن أسماء بنت

---

(١) سورة الاسراء «٢٥»

(٢) رياض الصالحين.

(٣) سورة لقمان (١٥)

أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: « قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فاستفتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام قلت: « قدمت عليّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك »[١] وهذا داخل في عموم قوله تعالى: « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا اليهم، إن الله يحب المقسطين »[٢]، ونقرأ أن سيدنا سعد بن أبي وقاص عندما أسلم نذرت أمه ألا تقرب طعاما ولا شرابا حتى يرجع عن إسلامه، فقال لها: « والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا، ما رجعت عن اسلامي » فلما رأت اصراره أكلت وشربت. وهذا موقف عقدي صلب أمام منطق جاحد وسلوك غير قويم، ولكن سعدا وقف عند هذا الحد من الثبات على دينه، ولم ينقص شيئا من البر بهذه الأم العنيدة، سيلاقي الولد في شتى العصور كثيرا من هذه المعاملات، فلا تجعله يتزحزح عن موقف البر بالوالدين فهما الولدان اللذان جعل الله عقوقهما ثاني الشرك بالله، ففي الحديث الشريف: « رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه

---

(١) رياض الصالحين.

(٢) الممتحنة (٨)

عند الكبر، أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة ».[1].

آخر الدواء الكي:

وما دام الولد صغيراً فله على أبيه حق الرعاية في كل أموره، لا يرفع عينه عنه أبدا، بطريق غير مباشر في أغلب الأحيان، وبطريق مباشر في بعض الأحايين، لينشأ الولد ذا شخصية متميزة محكومة بما ينبغي لها من المثل والتقاليد السائغة. فمن الخطأ أن يتدخل الوالد في جيع تصرفات الولد، إن شعور الولد بهذه القيود التي تطوقه من جميع نواحيه تولد عنده كبتا، ينتهز أقرب فرصة للانفجار، وحين تنفجر المشاعر المكبوتة لا يمكن التحكم في نتائج التربية، واذا اضطر الوالد الى بيان وجهة نظره، فليكن ذلك بطريق عملي تتضح فيه مزايا ما يسعى اليه الوالد من توجيه، حينئذ يدرك الولد بنفسه عن طريق الموازنة بين ما يعمله، وما ينبغي أن يعمله، مقدار الخطأ الذي تورط فيه، ومقدار الصواب الذي يريده عليه أبوه، ويمكن استثمار مثل هذه الطريقة بين غير الأبوين والأبناء، ممن عهد اليهم بتربيتهم من أبناء الأمة الاسلامية

---

(١) رياض الصالحين.

في دور العلم وخارجها، ويحضرني في هذا المقام موقفان كان الصمت فيهما أبلغ من الكلام، وكانت الاشارة أجدى من العبارة قصة اسلام الامام علي كرم الله وجهه، لقد تربى في بيت النبوة ولم يشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض عليه الاسلام صراحة، وتركه يملأ الدين الجديد قلبه، حتى دخل فيه بجميع نفسه يقول العقاد: «على أن الألفة بين ابني العم الكريمين، قد أوشكت أن تكون عائقا لإسلام علي في طفولته الباكرة، لأن النبي عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه، وأبوه لا يعلم، وأشفق أن يكون بره بعمه وابن عمه سبيلا الى التفرقة بين الأب وأبنه، وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفي سرا عن أبيه، كأنه يخدعه باخفائه، ولو في سبيل الهداية والخير... وعلم بهذا أبو طالب، ونصر ابن أخيه، وأمر علياً بمتابعة آبن عمه ونصره، فأقبل الغلام البر بأبيه وكافله اقبالا، لا تلجلج فيه على الدين الجديد[1].

هذا موقف، أما الموقف الثاني فموقف عداس: الغلام النصراني الذي أرسله ابنا ربيعة الى النبي الجالس بجوار بستانهما بعد رحلة الطائف التي لقي فيها الرسول عسفا

---

(١) عبقرية الامام

وعنتا وايذاء، أرسلا اليه بقطف من العنب، فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك،؟ » قال: نصراني، أنا رجل من نينوى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس ما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي، فأكب عداس: على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه[1] »

انظر.. لقد استجاب عداس الى الدعوة بدون أي كلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرح بدعوته الى الاسلام، وانما هو السمت والوقار والجلال والهيبة والثقة في الله، والاطمئنان الى ما قدر الله، كل أولئك استولى على مشاعر هذا الغلام فأسلم فكان هو الصفقة التي رجع بها الرسول من هذه الرحلة الجاهدة.

نرجع مرة أخرى الى عنوان هذا الفصل «آخر الدواء الكي» لنتحدث عن دور العقوبة البدنية في التربية فنقرر

---

(١) سيرة بن هشام.

أن على المربي ألا يتخذ من أسلوب الوعظ الا مقدار ما يستدل به له على وجاهة الرأي والسلوك اللذين يسعى إلى توجيه المربي اليها، فان الوعظ المتكرر يفقد سحره عنده وربما أحدث رد فعل قبيح، لا يمكن التغلب عليه، وهنا يأتي دور الحديث عن العقاب البدني.

في رأيي أن المربي الناجح هو الذي يمكنه أن يتجنب هذا العقاب، بحسن سياسته في المعاملة وسداد خطته في التربية، وتحببه الى الناشئة، حتى اذا اضطر اليه يوما كان هو آخر الدواء، فالعقاب البدني أمر تقرره شريعة الاسلام، وقد سبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مروا أولادكم بالصلاة اذا بلغوا سبعا واضربوهم عليها اذا بلغوا عشرا[1] ». وفي القرآن الكريم: «واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا »[2] فها أنتئذٍ ترى أن الضرب احدى وسائل التقويم، ولكن الآية تشترط أن يكون آخرا، وأن يكون بالقدر الذي ينتج الطاعة والاستقامة، فلا يتجاوز به حد التخويف الى القسوة والعنف ورغبة

---

(١) الترمذي

(٢) سورة النساء «٣٤»

الانتقام ، فمن الناس من تكفيه الاشارة البعيدة ، فيرتجف قلبه ، ويهتز وجدانه ويعدل عما هو مقدم عليه من انحراف ، ومنهم من لا يردعه الا الغضب الجاهر الصريح ، ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ ، ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يراها على مقربة منه ، ومنهم بعد ذلك فريق لا بد من أن يحس لذع العقوبة على جسمه ليستقيم »[١] .

ولنا على الضرب شروط أخرى أن يمهد له تمهيدا ، يجعله نتيجة لتفكير طويل ، ويظهر في نظر الناشىء نفسه ضرورة ملحة مقبولة لتقويمه ، وعند ذلك سيقبله بصدر رحب وسيعتبره تصرفا طبيعيا بناء ، وألا يكون الضرب مقصودا لذاته ، وانما بمقدار ما يوصل الى الهدف ، والا يكون عادة أو سلوكا مقررا دائما ، ولكن على فترات متباعدة ، حتى يكون له أثره الفعال ، وأن يكون في هدوء أعصاب ، لا انفعال ولا غضب ، ولا انذار بالشر ، ولا نداء بالويل ، فالانفعال والغضب كثيرا ما يقودان المرء الى مالا تحمد عقباه ، فاذا فرغ من هذه المهمة تدارك الأمر بالرحمة والشفقة ، ولين الكلام ، وحسن المكافآة عند الاجادة لئلا

---

(١) منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب

ينطوي الناشيء على حقد دفين، ولئلا ينعكس فهمه للخطة فتكون الطامة الكبرى في العلاقة بينهما فيما يستقبلان من أيام، حين تنشأ عنده أنواع من الانحرافات، من مثل ما يسميه علماء النفس (الاحباط) أو (العدوان) أو (التعويض) أو (التقمص) أو (التبرير) أو (الاسقاط) وليس هذا البحث محل الافاضة في هذه الاصطلاحات، الا ما تدل عليه الالفاظ من معان مباشرة لا تخفى على لبيب، ولأمر ما قد امتن الله على نبيه بالرحمة التي يتولد منها اللين، قال تعالى: « فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »[1].

اختلاف الرأي والنقد الذاتي:

الخير للمربي أن يطبع الناشئة على الاحساس المرهف، والنقد الذاتي، فهذا أولى من تربيتهم على الخوف والضعف، والتوجس والترقب، فان شبَّ الناشيء عن الطوق، وظهرت فيه معالم الرجولة، وعرف الحياة وعركها، فان دور المربي في هذه المرحلة من حياته لا يعدو أن يكون نظرا من بعيد وتوجيها راشدا، ليس فيه تزمت ولا تعنت ولا سيطرة، ان

---

(١) سورة آلعمران « ١٥٩ ».

ذلك يبعث على الاحترام الذي يسهل عملية التربية، ويسيغ كل توجيه، فيستجيب الناشيء عن طواعية، ويتأثر المربي في كل شيء، لأنه في هذه الحالة يكون مثله الأعلى، في المطعم والمشرب، والملبس، والسلوك الاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

وفي مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته ما ينزع الى كل من الناحيتين، وقد أجازهما عليه السلام تربية لهم على حرية الرأي، والايجابية في مسائل الدعوة كلها. فرأيناه ينزل عند رأي الحباب بن المنذر في بدر أن يتحول الجيش الى أدنى ماء من القوم، فيعسكر فيه، ثم يغور ما وراءه من الآبار، فيشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرت بالرأي[1]». كما رأيناه ينزل عن رأيه في عدم الخروج في أحد، اذ قال لهم: «فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حتى ينزلوا، فان أقاموا أقاموا بشر مقام، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها»، فرأى الصحابة غير هذا قائلين: «يا رسول الله، أخرج بنا الى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا[2] وكانت

---

(١) فقه السيرة للغزالي

(٢) سيرة بن هشام

النتيجة في بدر للمسلمين، وعليهم في أحد، ولكن ذلك لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع قاعدة الشورى، واحترام الرأي المضاد، ففي ذلك حياة الدعوة وجدتها وبهاؤها.

رغم ذلك فاننا نصطدم في مسيرتنا في الحياة بمربين غلاظ، يمكنهم عن طريق القسوة والغلظة والفظاظة أن يسيطروا على من يربون، ويسكتوا في نفوسهم حرية الفكر، وفي عواطفهم حرية الانطلاق وفي ألسنتهم حرية التعبير، ويحركوهم في استبداد كقطع الشطرنج، التي تتحرك في أيدي اللاعب بدون تفكير ولا رأي، ولا قدرة على المواجهة أو المغالبة، ويظن المربي في هذه الحالة أنه ضمن بقاءهم على الطاعة المفتعلة، والانصياع القهري، والاستجابة الوجلة، ولكنه في ذلك واهم، لأنه سينظر ذات يوم، فيرى عقدهم الذي انفرط، وعواطفهم التي جمدت، والهدوء الذي عصف به الغضب والعقوق الذي ولده الضغط، والعربدة التي أورثها الحقد، والدمار الذي خلفه الجهل، وسيكون هذا المربي أول وقود لهذه النار اللاهبة، وآخر رماد لهذه الحرب الكارثة.

كما نصطدم بنشئ لا تزيدهم رقة المربي الا غلظة، ولا

توجيهه الا انحرافا، ولا افساح المجال لهم الا تحللا، ولا جمعهم على كلمة سواء الا تفرقا وتبددا وتشتتا، ولا جمعهم على الاحترام الا انطلاقا وعربدة، فكل منهم في واد، لا يدخر المربي جهدا في توجيههم وتسديدهم ولكن طبائعهم الشاذة وفطرهم المنحرفة تسرعان بهم اسراعا الى التردي في الهاوية.

لعل للانسان أي انسان مقدرة محدودة على التحكم في الأقدار، وتوجيه الحظوظ الدنيوية والأخلاق حظوظ، كما أن الأموال حظوظ، والاستقامة قدر كما أن الانحراف قدر، وما كانت رسالة الرسل الا صوى وأعلاما بها يهتدي الساري في ظلمات الحياة.

وما كانت جهود الرسل والمصلحين في هداية الناس الا محاولات وبلاغا، فهذه هي مهمتهم أما الهداية الحقيقية فمرجعها الى الله وحده.

مناهج التربية

اذا كنا قد عرضنا من قبل لأساليب التربية، ولا نزعم لأنفسنا أننا أوفينا على الغاية منها، وانما وضعنا بعض القواعد، وطرحناها على الناشئين للنظر، كنماذج تحتذى في هذا المجال فانا آخذون في بيان مناهج التربية، وفي ذهني

انسان أحب أن أتناول حياته من جميع أقطارها، فهو كجسم يحتاج الى بيان وجهة نظر الاسلام في تربية الجسم، أو ما يسمونه التربية البدنية، وكنفس يحتاج الى ما يهذب هذه النفس... وهكذا.

ونلاحظ نحن أن هناك تكافلا بين هذه المناحي كلها، فما أضر بواحد منها اضر بالباقي، اذ لم يمكن أبدا فصل الجسم عن النفس، عن العقل، عن الروح.

كما أن العناية بواحد منها عناية بالجميع، لوجود هذا التكامل التام بين مكونات الطبيعة الانسانية في أداء الانسان وظيفته في الحياة، وعبادته لله ما دامت هذه الحياة.

والقلب كمضغة من اللحم، أو خلايا حيوية معينة هو محل اهتمام التشريع، باعتبار العمليات العقلية التي يقوم بها الانسان، فيعقل ويفكر ويتدبر ويدبر، ويعلم ويتعلم، فاذا ألغى ذلك كله فقد تساوى مع الحيوان. يقول الله تعالى: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»[١]

---

(١) سورة الأعراف (١٧٩).

كالأنعام بل هم أضل، لتخلي الانسان عن أشرف ميزة يتميز بها وهي التفكير والتعقل، اللذان هما رسالة القلب الانساني في هذه الحياة.

والروح والنفس كلاهما بمعنى واحد، يتوجه اليهما المربون بالتربية، قال تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها»[١] كما قد تطلق النفس على الانسان كله بجميع مكوناته الطبيعية.

منهج التربية البدنية:

حين نستعرض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لنبحث فيها عن جوانب قوة جسدية نضعها بين أيدي ناشئتنا فاننا نرى موقفه من حرب الفجار، هذه الحرب التي كانت بالنسبة الى قريش دفاعا عن قداسة الأشهر الحرم، لقد هاجت حرب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس وعيلان، وكان الذي هاجها أن عروة الرجال بن عتبة أجار لطيمة للنعمان بن المنذر، فقال له البراض بن قيس: أتجيرها على كنانة؟ قال نعم، وعلى الخلق، فخرج فيها عروة

(١) سورة الشمس.

الرجال، وخرج البراض يطلب غفلته، حتى اذا كان بتمين ذي طلال بالعالية، غفل عروة، فوثب عليه البراض، فقتله في الشهر الحرام فلذلك سمي الفجار »[١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كنت أنبل على أعمامي[٢] » أي: أرد عنهم نبل عدوهم اذا رموهم بها، فهنا دليل القوة الجسدية اذ لايتمكن من المشاركة بهذا الجهد مع قومه في هذه الحرب الا اذا كان متمتعا بتلك القوة، وهي مع هذا قوة نفس، ونضج عقل ومشاركة وجدان، وذلك ما تستهدفه القوة البدنية دائما. وهذه القوة التي كان يتمتع بها صلى الله عليه وسلم وهو ابن عشرين - على ما يروى ابن اسحاق كانت نتاج تربية جسدية مستمرة يرجع مبدؤها الى فترة رضاعته، اذ أرضعته حليمة السعدية على عادة العرب حيث كانوا يلتمسون الرضعاء لمواليدهم، ويعلل ذلك فيما يعلل بأنه يكون أجلد لأجسامهم.

هذا الى النشاط الذي اكتسبه صلى الله عليه وسلم من رعيه للغنم في شبابه قبل البعثة ورحلاته الكثيرة للتجارة في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام

(٢) بل المعنى ينبل على أعمامه أي يناولهم النبال وقد أعدها وجهزها للرمي (المعظم الوسيط).

مال خديجة، وخروجه عليه السلام مع عمه أبي طالب الى الشام، وذلك مثل لشبابنا ألا يركنوا الى الدعة والخمول وأن يخرجوا الى الحياة الفسيحة ينسمون هواءها ويستمتعون بما طبعت عليه من حركة وحيوية ونظام.

وأخصب فترة في حياة الرسول تجلت فيها قوته هي فترة الدعوة الى الله لقد كان للقوة الجسدية مكان ملحوظ في مراحلها. قال أبو هريرة: «ما رأيت أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجهه. وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله، لكأنما الأرض تطوى له، كنا اذا مشينا معه نجهد أنفسنا وانه لغير مكترث»[1]. وهي صفة القوي المقبل على الحياة، الذي لا ينكمش عنها، ولا يتشاءم منها لأن الله أعده بهذا لدعوة الناس، والناس لا يتعاطفون الا على الأغلب الأقوى، قال عنه الامام علي كرم الله وجهه: «كنا اذا احمرت الحدق وحمي وطيس القتال اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه». وأصدق مثل على هذه القوةالخارقة التي كانت في لحظة من اللحظات سندا مميزا للدعوة ما كان من ركانة البطل الجاهلي الذي اشترط لاسلامه أن يغلب محمدا

---

(١) سنن الترمذي

في منازلة. فقهر النبي ركانة في الجولة الأولى. فلما استعادها كانت الغلبة للنبي أيضا، فأسلم الرجل، وشهد أن هذه ليست قوة بشر.

على أن فن الركوب كان من الفنون التي برع فيها النبي عليه السلام يدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: «كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق، أو لا تكاد تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال: «حق على الله ألا يرتفع شيء الا وضعه»[1]. ونقف قليلا عند هذا الحديث لندرك مع القوة الجسدية في الركوب تلك الروح الرياضية التي قابل بها النبي غلبة الأعرابي له بقعوده دون أن يغضب، وفي هذا عبرة للناشئة أن يرتفعوا على الأحقاد في أي سباق رياضي، وذلك مما يؤكد هذه التربية، ويركز هذه المبادىء الرياضية السامية.

ولرياضة المشي مكان أيضا في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ففي رحلة الطائف نجده صلى الله عليه وسلم يسير نحو خمسين ميلا هي المسافة التي تفصل بينها وبين مكة، وكان سيره على قدميه جيئة وذهاباً، ولا أعتقد أن أحدا

كائنا من كان يقوى على قطع هذه المسافة في أرض ليست ممهدة ولا مرصوفة الا اذا كانت تربيته تربية رياضية تستهين بمثل هذه الصعاب في سبيل رسالة مقدسة. قالت عائشة رضي الله عنها: « خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم فقال صلى الله عليه وسلم: « تقدموا، فتقدموا، ثم قال: « تعالي أسابقك » فسابقته فسبقته فضحك حتى اذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى، قال صلى الله عليه وسلم للناس: « تقدموا » فتقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك فسابقته فسبقني. فجعل يضحك ويقول: « وهذه بتلك؟[٢].

وحين نستعرض غزواته صلى الله عليه وسلم، لنرى، كيف استطاع أن يقتل أبي بن خلف في أحد وقد جاء هذا يتوعده قائلا: «أين محمد لانجوت ان نجا » يحسبه مات في حفرة من الحفر التي كانت في أرض المعركة.. وما هو صلى الله عليه وسلم الا أن رفع اليه الحربة فطاله. يقول ابن هشام: « فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لانجوت ان نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال

---

(١) عبقرية محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوه، فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصّمة.

يقول بعض القوم، فيما ذكر لي، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم انتفض بها انتفاضة تطايرنا بها تطاير الشعراء عن ظهر البعير اذا انتفض بها ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تَدَأْدَأَ منها[1].

وقد نلمح هذه القوة في بعض العبادات التي يأمرنا بها الله عز وجل في مثل الصلاة، اذا أديت على وجهها الصحيح في القيام والركوع والسجود والجلوس والتزام الوضع الشرعي فيها كما حدده الفقهاء، ففي الركوع مثلا يجب أن تكون الانحناءة مستقيمة، بحيث يكون الظهر مستويا. لو وضعت عليه بيضة لما وقعت، وأن تكون الركبتان مشدودتين، وأن يستمر المصلي على هذا الوضع بقدر سبحان ربي العظيم ثلاث مرات على الأقل ثم يرفع فيستوى منتصباً ويستمر على هذا الوضع بقدر؛ سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، ثم يسجد كلا من السجدتين في وضعها الصحيح الذي يتمثل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام.

في وضع الجبهة والأنف على الأرض وكذلك الكفين والركبتين وباطن أصابع القدمين، الظهر منتصب ومؤخرة الجسم مرتفعة عن المقدمة، والذراعان متجافيان عن الجسم، مع الاطمئنان في السجود كذلك، وبهذه الهيئة الصحية يتجنب المصلي اقعاء الكلب ونقرة الغراب - كما يقولون - ولا يدع مثل هذه العبادة الجميلة تمر بدون أن يستفيد منها رياضيا وصحيا ومن المناسب هنا أن نذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وضح المعالم في حديثه للرجل المسيء.. صلاته في أكثر من موقف من مواقف الصلاة »[1].

وكانت الصلاة موقوتة بأوقات خمسة متفرقة في سائر اليوم ليستديم المرء هذا النشاط ولا يفرغ منها دفعة واحدة.

منهج التربية النفسية:

وعندما نهيء الناشئة بتقوية أجسامهم واعدادها لتحمل رسالتهم في الحياة تأتي المرحلة الثانية، وهي التربية النفسية التي توجه حياتهم وجهة الخير دائما باعتبارها هي الهدف الأصلي الذي يناط به كل ما يريده المربون من قيم ومن مثل تنبع أساسا من هذا الدين الذي حمله للناس صاحب

(١) المقنع لابن قدامة.

الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذه التربية النفسية أصل ترتكز عليه وهو حب الله ورسوله، فاذا استطعنا أن نغرس هذا الحب في نفوس ناشئتنا أمكننا أن نصل عن طريقه الى ما نريد، حين يتغلغل في أعماقهم فيجدون له حلاوة تسيطر على مشاعرهم وتعمر قلوبهم بحب الخير لهم وللناس أجمعين، وحين يربطهم بخالق هذا الكون ومبدعه حتى يستأثر بكل اهتماماتهم، لأنه مصدر النعم وصاحب الأفضال ومدبر الكائنات.

وما علينا لكي نوجههم الى حب الله الا أن نلفتهم إلى آثار الله في الأرض والسماء فهم اذا مذعنون للخالق مسبحون بحمده، منغمرون في النور الالهي المسيطر، وفي القرآن الكريم بيان ذلك في أكثر من موضع وفي أكثر من آية، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال قوله تعالى: «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل أفلا تذكرون، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله، قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون، بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله، اذا لذهب كل اله بما

خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »[1].

كما نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار »[2].

أما حب الرسول صلى الله عليه وسلم فلأنه مبلغ عن الله وهاد اليه. ودال عليه، ولا يمكن الفصل بين حب الله وحب نبيه، قال تعالى: « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[3]، وحب النبي بدون أن نراه أو نجالسه أو نستمع اليه منزلة كبرى لم يظفر بها أجلاء الصحابة، فهم قد نعموا بقربه وتملئوا من الأنس به، وعاينوا أفضاله ومكارمه، فلا غرو أن ينكروا ذواتهم في ذاته ويستهينوا بحياتهم في سبيل نصرته، فلقد كان قدوتهم في كل شيء في الأمور الخاصة والأمور العامة في اليقظة والنوم، والقعود والمشي، والكلام والصمت، وفي العادات والعبادات وفي العلاقات الأسرية والروابط الاجتماعية وكل

---

(١) سورة المؤمنون « ٨٤ » ٩١

(٢) رياض الصالحين

(٣) سورة النساء « ٨٠ »

ما يتعلق بأمور الدين والدنيا من قريب ومن بعيد، حتى شغفهم حبا ولم يصبروا على فراقه لحظة، فهم قد خالطوه عمليا، أما نحن فآمنا به وصدقناه على البعد مما أخبرنا به كتاب الله وسنته، ويحلو لنا أن نتمثل أخلاقه ونتحدث عنها كمثل عليا في الآداب والسلوك فكأنه عليه السلام يحيا بيننا، نعظمه ونقدره، ونحله من أنفسنا محل الاكبار والحب والاجلال، ونحن بهذه المثابة نطمع فيما طمع فيه غيرنا من كبار الصحابة - كما أسلفت - على قصور فينا واقلال من طاعتنا.

ولقد نوه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناشئة المسلمة من بعده فقال: « وددت أن قد رأينا اخواننا، قالوا: أولسنا اخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي واخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف نعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: « أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم، الا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فانهم يأتون غرا محجلين من الوضوء »[١].

أمثلة ثلاثة للناشئة:

أما أحدها فيروي زر بن حبيش يقول لصفوان بن

---

(١) مسلم

عسال: «هل سمعته - أي رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر في الهوى شيئا؟ قال نعم: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فبينا نحن عنده اذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوا من صوته: «هاؤم» فقلت له: ويحك، أغضض من صوتك فانك عند النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نهيت عن هذا، فقال والله لا أغضض، قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب يوم القيامة»(١) وهي بشرى للناشئة أن يظفروا بنتيجة هذا الحب والعمل به بجنة عرضها السموات والأرض، ويؤيد هذه الرواية ما روي عن أنس رضي الله عنه يقول: ما فرحنا بعد الاسلام فرحا أشد مما فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب يوم القيامة»(٢).

حتى أنس، على ماله من مكانة عظيمة في الاسلام يرى أنه مقصر، وأنه ينبغي أن يفرح بهذه البشارة، ويرى أن اللفظ محمول على عمومه، فمن حق كل مسلم يحب الله ورسوله أن

---

(١) رياض الصالحين

(٢) رياض الصالحين

يطمع في ذلك. قال القرطبي في تفسيره: « وانما كان فرحهم بهذا القول عنه صلى الله عليه وسلم أشد من فرحهم بسائر أعمال البر، لأنهم لم يسمعوا أن في أعمال البر ما يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبي صلى الله عليه وسلم، والكون معه الا حب الله ورسوله، فأعظم بأمر يلحق المقصر بالمشمر، والمتأخر بالمتقدم، ولما فهم أنس أن اللفظ على عمومه علق به رجاءه، وحقق فيه ظنه، فقال: أنا أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وان لم أعمل بعملهم، ولنا أن نقول عن أنفسنا كما قال القرطبي بعد ذلك: والوجه الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين المحبين كل ذي نفس، فلذا تعلقت أطماعنا بذلك وان كنا مقصرين ».

انتهى كلام القرطبي، وهو نعم البشارة للناشئة المؤمنة أن تغتنم هذا الحب لله ورسوله، فتصل عن طريقه الى بغيتها في سعادة الدارين.

وأما ثانيهما:

ففيما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد المحبة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فعرف الحزن في وجهه فقال: يا ثوبان ما غير وجهك؟ قال: ما بي من وجع، غير أني اذا لم أرك أشتقت اليك، فأذكر الآخرة فأخاف ألا أراك هناك « فنزلت الآية: ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا »[١]. لقد ظن ثوبان أن سيحال بينه وبين معية النبي في الجنة، استصغارا لشأن نفسه وهكذا المؤمن دائما يستصغر نفسه ويستقل أعماله - فنزلت الآية تبشره بهذه المعية، وكان نزولها فيه تكريما له ولأمثاله ممن حملوا لواء الاسلام، لا فرق في ذلك بين مولى وسيد، فالكل في رحاب الاسلام سواء. وهو موقف كريم تلتقي فيه عاطفة الرسول نحو أصحابه بلا تفريق بين أوضاعهم الاجتماعية، والوحي الالهي الذي ينزل تكريما لعبد من العبيد لأنه ارتفع الى مستوى السيادة بالاسلام وأحرى به أن يكون درسا مفيدا لناشئتنا يثبت قلوبهم ويزيدهم استمساكا بدينهم.

وأما ثالثها:

فما ذكروا أن زيد بن الدثنة من الدعاة الذين أسروا يوم

---

(١) تفسير ابن كثير

الرجيع حين قدم الى القتل جاءه أبو سفيان بن حرب فقال له: «أنشدك الله يا زيد أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، واني جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا»[1] ثم قتل زيد.

فهذا حب عظيم يدفع الى مزيد من التضحيات الى حد الجود بالنفس، وقد حفلت السيرة العطرة بقمم شوامخ من هذه التضحيات من أول يوم في الدعوة الاسلامية الى أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، فحملوا عنه الأمانة، واضطلعوا بالرسالة يصلون بها ما انقطع ويبلغونها للناس كأحسن ما يكون البلاغ.

النفس اللوامة والنفس المطمئنة:

لعل هذا الحب لله ورسوله يصفي النفس المؤمنة ويجعلها رقيقة حساسة تهفو بالخير وتجتنب الشر، فاذا جنح صاحبها عن الطريق يوما - وهي سمة بني آدم - أن يخطئوا، كما

---

(١) عبقرية محمد للعقاد

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون»[1] سارعت الى التوبة والندم على ما فرط فبرئت ساحتها بفضل الله وبفضل هذه النفس اللوامة التي لا تبيت على معصية - وباستعراض سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نجده يفتح الباب أمام التائبين المنيبين، لا يغلقه دونهم، كما نجده يعطي المثل من نفسه في كثرة الاستغفار مع أنه المبرأ من كل عيب، والمنزه عن كل اثم،فعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس توبوا الى الله واستغفروه فاني أتوب في اليوم مائة مرة»[2].

ولقد ربى صلى الله عليه وسلم أصحابه على ذلك، فكان يدعهم الى أنفسهم حتى يبصروا طريقهم فيسلكوه عن طواعية واختيار،ولكنه كان لا يتهاون في حق الله بصدد المخالفات التي تحدث من بعضهم، ويكون لها أثر بالغ في مسار الدعوة الاسلامية، ليحفظ بذلك دين الله وهو واثق بإيمانهم بعدالته ورأفته بهم، فلا خوف عليهم من الفتنة، وأصدق مثل لذلك حديث كعب بن مالك الذي تخلف عن

(١) رياض الصالحين
(٢) رياض الصالحين

الجهاد بدون عذر في غزوة تبوك، فوقف النبي منه موقفا جادا حتى انه منع المسلمين أن يكلموه أو يردوا عليه السلام، أو يخالطوه فاستشعر كعب ورفيقاه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع عظم ما أتوا وفداحة ما اقترفوا فخالطهم الندم وجأروا الى الله أن يقبلهم، فكانت توبة الله عليهم، يقول كعب في حديثه الطويل: «فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله عز وجل علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، إلى أن قال: فلما سلمت على رسول الله عليه وسلم، قال وهو يبرق وجهه من السرور: «ابشر بخير يوم عليك منذ ولدتك أمك»[1] وذلك موقف نبيل من الرسول الكريم عالج فيه سقطة نفر من أصحابه بالحكمة، فلما جاء الفرج من السماء تبسط لهم، وأشرقت نفسه مع نفوسهم، لأنها نفوس لوامة تكثر الأسى والأسف للذنب تقع فيه بوسوسة عارضة من الشيطان.

وأحر بهذه النفوس أن تطمئن الى لقاء الله لأنها أدت ما عليها كما ينبغي ولم تفرط في جنب الله عن عمد واصرار، وذلك قوله تعالى: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى

---

(١) رياض الصالحين

ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »[1].

العبادة واليسر والسماحة.

واذا كنا قد تحدثنا من قبل عن الطهارة كنموذج لتربية الجسم فهي مناسبة نتحدث فيها عن العبادات التي فرضها الله على المسلمين كشعائر لدينهم يمتازون بها عن سواهم، وبها يفخر الانسان بأنه ينتمي الى هذا الدين الحنيف.

وقد فرغ العلماء من الحديث عنها وعن أهدافها العليا، ويصبح من الحديث المعاد أن نتكلم باسهاب عن الصلاة والصيام والزكاة والحج باعتبارها مع الشهادتين أركان الاسلام الخمسة، وكل ما يعنينا هنا أن الله عز وجل لم يشق على الأمة بها وانما هي عبادات، خفيفة لطيفة لا يجد أحدنا حرجا ولا عنتا في أدائها، فالصلاة صلة بين العبدِ وربه، وحسب المؤمن أن يشعر بأنه وهو يؤديها مع الله انما يناجيه مؤمنا به وبرحمته وبقيوميته على هذا الوجود وبامتلاكه أمري الدنيا والآخرة، وهي قرة العين وراحة النفس، وهي لا تشغل المرء عن عمله الدنيوي قال تعالى: « فاذا قضيت

---

(١) سورة الفجر « ٣٠ »

الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »[١]. وهي أقوال وأفعال يتجلى فيها خشوع المؤمن لربه، وتضرعه والاقبال عليه، وهي بمثابة النهر تغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن، وهي رائدة الى خير العمل لأنها مبنية على خشية الله فمن حافظ عليها حافظ على كل شأنه، ومن تهاون فيها فهو في غيرها أشد تهاونا.

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها
فتاركها عمدا الى الله أقرب

وعن ابي فاطمة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل استقيم عليه وأعمله. قال: عليك بالسجود، فانك لا تسجد لله سجدة الا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة »[٢].

أما الزكاة:

فلم تعد أن تكون أداء لحق الفقير وليس صدقة في الواقع وانما هو حق له وواجب، ومن أجل أن تطيب نفس الانسان بأدائها وضحت السنة أنها تقع في يد الله قبل أن

---

(١) سورة الجمعة « ١٠ »
(٢) مسلم

تقع في يد الفقير، فهي اذا تكتسب التقديس والتعظيم من قدس هذا الاله وعظمته.

ثم هي مقدار ضئيل بالنسبة الى رأس المال، لا يزيد على اثنين ونصف بالمئة في زكاة النقدين وعروض التجارة المقومة بالنقدين، ومقدار ضئيل من الزروع والثار يصل الى ربع العشر احيانا. وعدد قليل من الابل والبقر والغنم، على ما بينته كتب الفقه بتفصيل شديد، ثم هي إنماء للمال وطهارة، وكم رأينا مالا لم تخرج زكاته أصابته الجوائح وخسف الله به الأرض وعاد وبالا على صاحبه، ثم هي حق المجتمع الذي يعيش فيه الانسان باعتباره عضوا فيه لا ينفصل عنه، فلا بد من المشاركة في صنعه وترقيته، والتغلب على مصاعبه.

ومن الخير أن أتلو هذا الحديث الذي ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن فيه عزوفه عن المال، وبغضه لجمعه، وسهولة انفاقه عليه ليكون نبراسا لناشئتنا، كي تسخوا نفوسهم ويستطيبوا أداء هذا الواجب المقدس. عن أبي ذر رضي الله عنه: «كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرة بالمدينة، فاستقبلنا أُحُد فقال: «يا أباذر» قلت لبيك يا رسول الله قال: ما يسرني أن عندي مثل أحد

هذا ذهبا تمضي علي ثلاثة وعندي منه دينار الا شيء أرصده للدين، الا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا. عن يمينه وعن شماله ومن خلفه. ثم سار فقال: «ان الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، الا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وعن خلفه»[1].

وأما الصوم:

فهو في صورته الظاهرة امتناع عن الطعام والشراب وسائر المفطرات سائر اليوم وهو بهذا القدر ذو رسالة مهمة في حفظ الجسم ومدافعة الأمراض ومغالبة الشهوة، وهو فوق هذا القدر مطهر للنفس ومهذب للطبع وباعث للمثل العليا، وحاث على المشاركة الوجدانية، ومثير للعاطفة الاسلامية حيث تسخو اليد ويرق القلب وتخشع الجوارح، وكل هذه الصفات والأخلاق انما نستمدها من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[2].

---

(١) رياض الصالحين

(٢) البخاري ومسلم

وأما الحج:

فحسبك منه أنه يعمق القيم الانسانية في نفوس الناس، فملابس الاحرام وهي المظهر الفريد في المساواة بين الناس، لا تكاد تفرق بين ملك ومملوك ورعية وراع، وغني وفقير، وهو مظهر يعتبره الحاج في قرارة نفسه شعار فخر ومصدر متعة، ومنزع تقوى، لا يجد غضاضة في أن يتخلى عن الحرير والديباج والوجاهة وحسن السمت، ويتحلى بازار ورداء أبيضين من أرخص الأقمشة، ورمي الجمار والسعي والطواف والوقوف والمبيت بمزدلفة ومنى، كل أولئك يرمز على التوالي الى نبذ المعاصي ويذكر ببحث هاجر عن الماء لابنها وبتقديس رب البيت عند الطواف به، والمبيت بهذه المشاعر امتثال لأمر الله من حيث هو، وتلك مزية لشعيرة الحج، يظهر فيها الإيمان المطلق بالله الذي انفرد بعلم ما خفي علينا من حكمه وأسراره.

ثم لا ننسى ما تهدف اليه الآيتان الكريمتان «لا يكلف الله نفسا الا وسعها»[١]. و «فاتقوا الله ما استطعتم»[٢]، من سهولة الدين ويسره في تعاليمه، فهي أشياء مطاقة، لا

---

(١) سورة البقرة« ٨٦ »

(٢) سورة التغابن« ١٦ »

تستعصي على أحد فان حال دونها مرض أو عجز ففي وسع الانسان أن يدعها الى غيرها من الرخص الكثيرة التي كانت بمثابة المنافذ، يستروح منها الانسان لعنائه ومشقاته.

ويدخل ذلك في عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه»[1] وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً في سماحة الدين: ويسره فعن أنس رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، وقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله اني لاخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

ذلك لأنه يمضي على سنن الفطرة، ولو تكلف المرء مالا

---

(١) البخاري

(٢) رياض الصالحين.

يطيق لعجز عن مداومته فكان من الخير أن ينهض بما هو في طاقته ليدوم عليه.

فرأينا أنواعا من التيسيرات في الاسلام تبدأ من الوضوء اذا كان التيمم بديلا منه وكذلك مسح الخفين بديل غسل الرجلين، والصلاة من قعود بديل من القيام ثم صلاة السفر والقصر، وترك الجمعة للمسافر سفرا طويلا، ووضع الصيام عن المريض الذي لا يرجى برؤه وكذلك الشيخ الفاني والمسافر أيضا والحامل والمرضع والنفساء مع الفدية أو بسواها على حسب ما هو مفصل في كتب الفقه الاسلامي، كما وضع الجهاد عن أنواع من الناس لا تقدر عليه، وهم المذكورون في قوله تعالى: «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج»[1]. وهكذا يفسح الاسلام للتنفس، في حدود الشرع والقانون، فكثيرا ما يشعر الانسان بأنه في حاجة الى الخروج من نطاق الحياة الجادة الصارمة الى فضاء أرحب فيه بعض الحرية والانطلاق لينفس عن نفسه جدية الحياة، ويتزود بدفعة قوية من النشاط لعودته مرة ثانية الى ما فرضه عليه المجتمع من حدود ومواضعات.

---

(١) سورة الفتح «١٨»

والدين الاسلامي بريء من تهمة الجمود والتزمت فيما يضطر الانسان الى أن يأخذ وضعا معينا في الكلام والصمت والوقوف والمشي، والغضب والحلم والحب والكره والرضا والغضب، وطبيعة النفس البشرية تأبى الالتزام بوضع من هذه الأوضاع بصفة دائمة،. فهل له أن يخرج عن هذا الاطار الذي التزم به أمام الله والناس؟ واذا قلت الحرية فهل هي الحرية التي بينه وبين الناس أو بينه وبين نفسه؟ أو بينه وبين الله، وهل الدين الاسلامي يسمح بمثل هذه الحرية؟.

نعم وربما باركها، وربما أثاب عليها، ولكن له قيودا على هذه الحرية ان صح أن يكون للحرية قيود، ولإمكان تصور هذه القضية نضرب بعض الأمثلة من واقع حياة الناس، ونعرض لرأي الشرع فيها لنقول فيها كلمة الحق حين نجيزها ونيسر على الناشئة بالاتساع في تفهمها والانطلاق في مجالاتها، الحياة الجادة تلزم الناس بعضهم مع بعض بأن يتعاونوا على البر والتقوى، ولا يتحقق هذا التعاون الا بالاحترام المتبادل بين رفقاء العمل أو شركاء الدرب في هذه الحياة، وهذا الاحترام قيد يلزم كل فرد بالطاعة وحب العمل والتفاني فيه، والاخلاص له على كل

صعيد، وفي كل مجتمع، وهي قيود يخفف من صرامتها أن يتنفس العاملون بشيء من الحرية التي لا تنافي توقير الصغير للكبير ورحمة الكبير بالصغير وبهذه الحرية المحببة تتحقق المشاركة الوجدانية التي بدونها يستحيل العمل الى جحيم لا يكاد يطاق.

يجيز الشرع الاسلامي اختلاف الرأي اذا كان هذا الاختلاف بناء لايراد منه العبث أو التهريج أو الفوضى، وهذه حرية لازمة، لأن فيها تحسينا لانتاجية العمل، وترقية لأساليبه وتحقيقا لأهدافه.

ويجيز الشرع الاسلامي الأخذ ببعض التصرفات التي قد لا يرضاها المتزمتون ما دامت هادئة لطيفة كالمزاح الحق الذي يخفف أعباء الحياة. وللرسول صلى الله عليه وسلم في هذا اللون من المزاح مأثورات تعد قمما في هذا المجال تبعث على السرور وتثير الابتسام، ولكن في حق وصدق وجمال وجلال، أشهرها حديثه مع عمته صفية، اذ قال لها: «لا تدخل الجنة عجوز» فبكت، فقال لها وهو يضحك: «الله تعالى يقول: «انا أنشأناهن انشاءً فجعلناهُنَّ أبكارا»[1].

---

(١) عبقرية محمد للعقاد

العمل للدنيا:

لا يستطيع الانسان أن يقف عاجزا مكتوف اليدين، أمام مطالب الحياة المادية، اذ هو مقهور بالطبيعة على أن يعمل ليجلب لنفسه القوت ولمن يحيون معه، ويلبي المطالب الأخرى من مسكن وملبس وغيرهما على إختلاف في أساليب العمل على مر العصور، وعلى اختلاف أيضا بين ما هو ضروري وما هو كمالي.

ومن أجل ذلك كانت تربية الناشئة أمرا ضروريا فهي قد تؤكده في نفوسهم وقد تؤسسه وفي كلتا الحالتين لا بد من ضرب الأمثلة من واقع الحياة والعاملين فيها.

وفي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مواقف ومراحل ظهر فيها العامل في طلب القوت في صغره في الصبا والشباب، حتى أرسله الله الى إلناس، وفتح عليه البلاد، فكان يعيش كما يعيش المسلمون لا يتميز **عليهم في شيء**.

وقد قدمنا أنه رعى الغنم في صدر حياته، وقد روي مرفوعا عن أبي هريرة رضي الله عنه « وما بعث الله نبيا الا رعى الغنم » فقال أصحابه: وأنت. فقال: « **نعم** كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[1].

---

(١) صحيح البخاري.

ثم نراه في موقف آخر يخرج في مال خديجة مع غلامها ميسرة في تجارتها الى الشام، فكانت تضاعف له في الأجر حين تبين لها صدقه وأمانته ومهارته في رواج التجارة بحسن الحديث وبراعة اللقاء وسلامة الصدر والبشاشة في وجوه الذين يتعاملون معه. كما كان يكره البطالة والتميز على أصحابه، وما حديث الشاة التي اشترك في اعدادها معهم ببعيد عن كل دارس لهذه السيرة النبوية الرائعة، لقد اختار أشق الأعمال وهو جمع الحطب حتى ينفي من الأذهان فكرة الرياسة المستبدة المستغلة، التي تقوم على تسخير الآخرين واذلالهم، والتحكم في أرزاقهم وأقواتهم، فكان لا يقطع أمرا دونهم ولا يحبس عنهم خيرا أفاءه الله عليه، كما ضمن تعاليمه لأمته كل خلق كريم وتصرف سليم، وصدق فيه قول الله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»[1]..، واشادته صلى الله عليه وسلم بالعمل والعاملين، وتفننه في الترغيب فيه والتنفير من البطالة والكسل، كل ذلك يعد صفحة مشرقة في تاريخ هذا الرسول العظيم، ويمكن أن نعدد للناشئين أحاديث كثيرة تهدف الى ذلك كقوله عليه

---

(١) سورة يونس «١٢٨»

الصلاة والسلام: « إن الله يحب المؤمن المحترف »[1]. وقوله لحكيم ابن حزام رضي الله عنه: « يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى »[2]. وقوله: « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده »[3].

ولقد كانت تقدمية هذا الدين وما زالت تتجلى في الاشادة باحترام العمل اليدوي أيا كان هذا العمل اليدوي، أليس هؤلاء الأنبياء كانوا عمالا يدويين! فنوح عليه السلام كان نجارا، وداود كان حدادا، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان تاجرا، وهكذا... وفي الوقت الذي يشيد فيه بالعمل ينفر من المسألة ويجعلها آخر كسب الرجل فيقول عليه الصلاة والسلام.. « اليد العيا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعْفِفْ يعفه الله ومن يستغن يغنه الله »[4]. كما يقول في ذم المسألة صراحة: لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم »[5].

(١) (٢). (٣). (٤). (٥). صحيح البخاري

ثم يعطي نموذجا للعمل الشريف الذي يحفظ الكرامة ويصون العرض بلا نظر الى نوعيته من بين سائر الأعمال: «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكّف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».[1]

ثم لا يمنع الغنى بل يجيزه ولكن بشرط ألا يستعبد صاحبه وألا يصرفه عن واجبه نحو ربه ونحو الناس، فيعرف لله حقه في ماله من زكاة أو صدقة أو معروف ولا يكون سببا في بطره وفساده وانحراف خلقه، فتلك طبيعة المال دائما، يقول الله عنه: «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين[2]» هو اذا بطر لم يحس بهذا الغنى، ولم يشعر بلذته، وسيدور في فلكه فلا يستريح أبدا، وهنا يأتي حديث النبي صلى الله عليه وسلم «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[3].

ثم يقف النبي من الزهد والتواكل موقفا محددا، فيبين

(١) صحيح البخاري
(٢) القصص« ٥٨ ».
(٣) صحيح مسلم

أن الزهد ليس في ترك التمتع بزينة الحياة الدنيا ، فقد أحلها الله للناس ، ولكنه في القناعة وفي سخاوة النفس وفي عدم الحاجة الى الناس وفي أن ينظر الانسان الى من دونه ولا ينظر الى من فوقه ليستريح ويريح ، يقول عليه الصلاة والسلام: «انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو أجدر ألاّ تزدروا نعمة الله عليكم[1] » كما يبين أن التوكل على الله شيء والتواكل شيء آخر ، فليس التوكل على الله أن يدع العمل ويبتغي الرزق ، وانما هو الطلب والسعي ، ثم استشعار قوة الله ، واليقين بأنه يمد يد العون للعاملين فيرعاهم في سيرتهم ويوفقهم الى خطتهم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكّلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح: بطانا[2] .

العمل للآخرة.

لا تجد التربية الاسلامية للناشئة المسلمة فرقا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، فما دام عمل الدنيا خطا واضحا من خطوط هذه

(١) صحيح مسلم
(٢) رياض الصالحين

التربية، تحرص عليه، وتنادي به وتسعى سعيها الحثيث في اقراره وابرازه فهو اذا عمل ديني مثوب عليه صاحبه شريطة أن يفطن الى هذا الخيط الرفيع بينهما بالنية الصادقة التي تحول كلا منهما الى الآخر، فتسير الناشئة في طريقها المرسوم في توازن لا يعرف التمزق أو الحيرة بين ما هو مطلوب للدنيا وما هو مطلوب للدين. وما دامت أعمال الدنيا مأمورا بها من الله عز وجل ومن رسوله ﷺ فهي أعمال آخرة أيضا.

فاذا قال الله عز وجل: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور»[1] واذا قال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي تسبب في هزل جمله باجاعته: «ان هذا الجمل يشكو اليَّ أنك تجيعه»[2] فاذا امتثل المسلم لأمر الله في الآية ولعاطفة الرحمة في الحديث فكان في الحالتين ايجابيا يستجيب للداعي في كل منهما فقد استحق أن يظفر برضا الله ورسوله، وينقلب العمل فيهما الى عمل آخرة ينال صاحبه جزاءه عند الله يوم القيامة، مع أنه يمارس عملا يعود عليه هو بالنفع العام.

---

(١) سورة الملك «١٥»

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي.

وما يقال في ذلك يقال في العبادات التي سبق ذكرها، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فان ظاهر هذا كله أنه عمل آخرة بحت، ولكننا اذا بحثنا في حكم التشريع لم نعدم مصالح مادية لولا نية العبادة لكانت عملا معاشيا عاديا يمارسه الانسان طواعية بدون تردد ولا توقف، فلا يخفى دور الصلاة في تنشيط الجسم كما قدمنا ودورها أيضا في اشاعة الأمن والثقة في حياة الناس كما لا يخفى دور الزكاة في التكافل الاجتماعي وهو دور رائد وحل اسلامي رائع لكثير من مشكلات الحياة الاجتماعية.. وهكذا كما لا يخفى مثلا أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منع الجريمة واصلاح حال الناس وغير ذلك مما يعود عليهم بالاستقرار والأمن والطمأنينة، واذا فبالنية الصادقة تنقلب العادة الى عبادة كما أن العمل الديني اذا خلا من هذه النية الصادقة فقد موضوعه وصار عملا آليا محضا، لا يسهم في بناء المجتمع المسلم ولا في تكوين الشخصية الاسلامية الكاملة.

وهناك من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم شواهد بينة على حقيقة مانقول، لما تخلفت جماعة من المسلمين لعذر عن غزوة العسرة، واضطروا الى البقاء في المدينة أخبر

عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن لهم أجر الغزو لأنهم نووه ولم يمكنوا منه، فقال: «ان بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم، حبسهم المرض، وفي رواية: الا شركوكم في الأجر»[١] تأمل قوله: «الا كانوا معكم» كانوا معكم بقلوبهم وعواطفهم وان لم يكونوا معكم بأجسامهم. وفي بيعة الرضوان قبل صلح الحديبية احتجزت قريش سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما كان في مهمة رسمية ولم يتمكن من الحضور للإشتراك في البيعة على حرب هؤلاء الذين تحدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يشأ الرسول الكريم أن يحرمه شرف هذه البيعة، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال: «وهذه لعثمان»[٢] فكانت أريحية نبيلة لها أثرها الواضح في تثبيت البيعة وتحقيق أهدافها.

وذلك الذي ذكرته عنصر كريم من عناصر تربية الناشئة في ضوء السيرة والسنة فغايته تكوين هذا النشء المسلم تكوينا روحيا يجعله يهفو الى الخير دائما، ويتوقى الشر

---

(١) رياض الصالحين

(٢) سيرة ابن هشام

جهده ما دام موقنا بأن شيئا مالا يضيع عند الله: «لله ما في السموات وما في الأرض، وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، والله على كل شيء قدير»[1].

دور العلم في التربية

كل ما ذكرناه فيما سبق معلومات عن التربية، فهو داخل في نطاق العلم، فاذا أفردنا فصلا للحديث عن العلم في التربية فاننا نريد فيه الى الحديث عن أدب العلم وأدب المعلم وأدب المتعلم، وهي أنماط من التربية لا غنى لناشئتنا عن الوقوف عليها وعن ادراكها لتكتمل النشأة في وضع سوي تتمثل فيه جميع نواحي الكمال التربوي الاسلامي.

ومن المعلوم أن العلم يدرك بالعقل، فالعقل أداة العلم ولا بد من العناية به واعداده اعدادا سليما ليقوم برسالته في هذا المجال الكريم، فهو الطاقة الكبرى التي أنعم الله بها على البشر واستطاعوا بها أن يعلموا ما هو لازم وضروري لهم في هذه الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة، ولولاه لانحط الانسان الى درك الأنعام.

---

(١) سورة البقرة (٢٨٤)

«ان كشوف العلم كلها ومخترعاته ليست هي التي توجه الحياة أو التي تحكمها انما الذي يوجهها ويحكمها هو طريقة الاستفادة من كشوف العلم ومخترعاته، أفي سبيل الخير أم في سبيل الشر، وفي سبيل السلم أم في سبيل الحرب، والعقل يميز ولا شك بين الخير والشر ولكنه ليس هو الذي يقرر الطريق، فكثيرا ما قرر عقل الانسان أن كذا من الأمور خطأ، ولا يجوز فعله، ثم اندفع اليه لانحراف روحه وانجرافها مع الشهوات»[1].

وفيما قدمناه من حديث يؤكد ضرورة التقاء القلب والعقل حتى لا يطغى أحدهما على الآخر، فحين يتدبر العقل نواميس الكون فيراها تجري في دقة عجيبة ونظام لا يختل، ويستفيد منها في ترقية حياته وتسهيل وسائل العيش فيها، ينتقل التدبر من دائرة العقل البحت الى منطقة الروح والعاطفة، فيتأمل في حكمة الله وتدبيره، فيرتبط بها قلب الانسان كما يتصل هذا القلب بالله، ويمنعه ذلك أن يجور أو يشط أو يملكه الغرور، فيبغي على خلق الله، ومن ثم يتضح الفرق الكبير بين عالم مسلم متدين يسخر علمه لخدمة البشرية وعالم إباحي لا ديني متجرد من كل

---

(١) منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب.

العواطف الانسانية.

فاذا أخذنا في الحديث عن العلم ومكانه في التربية، فان أول ما يتبادر الى الذهن هذه الصيحة الأولى التي تسمو بقدر العلم وتعلن الحرب على الأمية وتبدأ عهد العلم الحقيقي المؤصل في هذه المرحلة الحاسمة من السيرة العطرة الخالدة صيحة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم»[1] وقد وضحت السنة النبوية المطهرة المفهوم من القراءة فأطلقته ولم تقيده بالكلمة المكتوبة بل تعدت به الى المسموع والمرئي وغيرهما من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي، وهذا هو الذي يفهم من اجابة النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل عليه السلام بقوله: «ما انا بقارىء» أي لا أقرأ في كتاب، كما لا يكتب بقلم لأنه النبي الأمي الذي أخبر الله عنه في قرآنه بقوله تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون» واذا فالمقصود بالقراءة جميع الوسائل كالنظر والسماع والتلقي وغيرها.

ومجال العلم عن طريق القراءة والكتابة والتجريب

---

(١) سورة العلق

والنظر رحب وسيع لا تحده حدود، فكل علم يدعو اليه الاسلام ويحض عليه، قال الله عز وجل: هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» وقال أيضا: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون»[1]، وليس مجرد النظر وانما النظر والتفكير والاستفادة بكل أولئك في استجلاء أسرار الكون لنفع البشرية جمعاء.

وهذا هو الذي حدا بعلماء المسلمين فيما مضى الى استغلال هذه الأسرار، (فيما وصلوا اليه من كشوف علمية تثبت لهم الجد في التحضيل والصدق في التفكير، كما تثبت قدرا من الدقة يعتبر مثاليا بالنسبة لذلك الحين، وأبحاث ابن الهيثم في البصريات، وأبحاث البناني الذي قاس بالدقة دورة الأرض حول الشمس وحسب بالدقة مواعيد الكسوف والخسوف، تعتبر شاهدا على طريقة تأثر العقل الاسلامي بمنهج التربية الاسلامية في تربية العقول)[2]. ولعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينظر من وراء الغيب الى النهضة العلمية الحديثة، فكان اطلاقه بعض الأسرى في

(١) الشورى ٥٣.

(٢) منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب

غزوة بدر مقابل تعليم الواحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، كان ذلك ايذانا بعهد جديد في محاربة الأمية الهجائية توطئة للتزود من زاد المعارف الاسلامية الذي لا ينتهي، مع أنه هوْ أساسا لم يتعلم القراءة والكتابة اكتفاء بتعليم جبريل له ودليلا على إعجاز هذا القرآن الكريم، فلو كان قارئا أو كاتبا لقالوا انه افتراه واخترعه، وهم قد قالوا ذلك على رغم يقينهم بأنه لا يستطيع «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا»[1] هذا وكل ما يهدف اليه الاسلام من العلم - على اتساعه - هو العلم بحقائق هذا الدين بدءا من عقيدة التوحيد التي يؤكدها ويثبتها النظر في ملك الله الواسع العريض كدليل قاطع على قدرته وارادته، قال تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد»[2]

أدب العلم:

ان مما ينفعنا في توضيح هذا الفصل قوله تعالى: «ولا تقف ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل

---

(١) سورة النساء «٨٢»

(٢) سورة الشورى

أولئك كان عنه مسئولا »[١] . وهي مهمة صعبة أن تنتقي للناشئة كل نافع ومفيدمن المعرفة ، وتنفي عن عقولهم وأفهامهم كل مؤذ وضار ، ثم تربي فيهم الروح الدينية التي ترتفع عن كل سفساف ، وتنأى عن كل منكر .

وما أحوجنا في عصرنا هذا الحديث الذي اختلطت فيه الثقافات أن نحترس من خطورة السلبية في تبصرة هؤلاء بطريقهم الصحيح ، فلم تزل عقولهم غضة طرية لا تقوى وحدها على مواجهة هذا السيل الجارف من الثقافات المنحرفة اذ كان التقدم الاعلامي يصحبه انفلات عقلي وعاطفي ، وخليق به أن يقضي على البقية الباقية من دين ناشئتنا الذي نعتز به ، ونؤمن تماما بأنه هو وحده مصدر الخير ما استمسكت به وعضت عليه بالنواجذ . يقول النبي صلى الله عليه وسلم . « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وانما أنا قاسم والله معط ، ولن تزال طائفة من أمتي قائمة على أمر الله لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله »[٢] .

وفيما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا .. اشارة الى ما نقرره

---

(١) سورة الاسراء « ٣٦ »

(٢) البخاري

الآن من فضل العالم على العابد، الذي يغفل عن الحكمة وراء الأحداث ولا يبصر الصواب فيها، وذلك أحرى أن يبطل عبادته أو يورده موارد الهلكة، من حيث لا يحتسب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا.. فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فأتاه فقال: انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فأكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: انه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة»؟[1].. الى آخر الحديث.

أدب المعلم:

ها أنت ذا يا بني قد صففت قدميك، وهيأت عقلك، وجمعت نفسك للاقبال على معلمك الذي طالما قرح جفنه، وأسهر ليله وقدح زناد فكره ليستنبط للناشئة علما ينفعهم في حاضرهم ومستقبلهم ويزودهم بكل جديد في ميدان العلم والثقافة، لا يدخر وسعا ولا يضن بجهد، وهو يشعر في مسيرته تلك أنه انما يعد تلاميذه لتسلم الراية من يده،

---

(١) رياض الصالحين

وليكملوا الدور الذي بدأه وقد وضع نصب عينيه عوامل النجاح لهؤلاء الأبناء ممثلة في نوازع الخير يكشفها أمامهم، وقواعد السير يخطها لهم، وعلوم الأقدمين والمحدثين يبصرهم بدقائقها ويكشف لهم عن مواطن العبرة منها، بما آتاه الله من قدرة، وما حصله من علم مكن له أن يحلل ويستنبط ويقعد القواعد ويبين عن النتائج، وتلك لذته في الحياة، على قناعة فيه، وبساطة في كل أموره، وهو بهذا يستحق الغبطة ويدعو الى المفاخرة والتباهي بفضل الله عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «لا حسد الا في اثنين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[١]. وما كان أمله ليتسع لأكثر من أن يرى أن نباته قد أينع، وثماره قد نضجت، وهو بهذه المثابة رفيع الدرجة عند الله، وحري أن يكون كذلك في دنيا الناس». ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[٢].

ولعمري ان أساس الاستفادة من هذا المعلم الذي أنكر ذاته وجعل نفسه شمعة تحترق لتضيء للناشئة طريقها الى

---

(١) البخاري (٢) الترمذي

المجد أن تعرف له قدره وتحله منزلته وتبرز كيانه وتحرص على الاستماع اليه، وقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم، منازل العلماء، وجعلهم يتقدمون على حسب درجاتهم من العلم فقال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا، ولا يؤمن الرجل في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته الا باذنه»[1].

وهذا المعلم مطالب أن يعرف لرسالة العلم قدرها، فيكون أمينا عليها، فيتحرى الصدق، وينتقي النافع، ولا يدس الآراء المنحرفة، ولا يعيبه أن يقول لا أدري اذا خفي عنه وجه الحقيقة، فان التسرع بالجواب من غير اعمال فكر، ولا استيثاق، هو السم البطيء الذي يقضي على الناشئة، وتلك هي الخيانة العلمية التي تظل سمة للتعالم، وعنوانا على الفراغ وسيحمل صاحبها وزرها ووزر الناهجين عليها الى يوم يبعثون، وفي السنة النبوية الشريفة: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في

---

(١) مسلم

الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[1]

ان ناشئتنا يفترضون في معلمهم البراءة من كل عيب والتنزه عن كل خطأ ويحلونه دائما محل القداسة فهو المثل الأعلى في أنظارهم والقدوة الحسنة في نفوسهم، فينبغي أن يحذر من أن يقلدوه فيما يسيء اليهم والى ذويهم والى مجتمعهم الذي يعيشون فيه.

وأخطر ما نخافه على الناشئة أن يكون المعلم قوالا فقط دون أن يكون لما يقوله صدى في نفسه. يسير جوارحه الى فعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه. وعلى قدر شعور المعلم بقدسية الرسالة التي يضطلع بها يكون نشر العلم على يديه وحب الناس له، واقبالهم عليه فاذا لم تكن هداية الله كانت غواية الشيطان.

وأساس النفع تقوى الله، فما خرج من القلب وصل الى القلب، وما خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان، بهذه التقوى تزداد المعرفة ويتجدد العلم، ويفيض الله من نوره على البصائر، وقد صور رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الذي يأمر الناس بما يخالف عنه وينهاهم عما يقع فيه أبلغ تصوير في

---

(١) رياض الصالحين

قوله عليه السلام: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع اليه اهل النار، فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: «كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[١].

أدب المتعلم:

وَمَنْ كطالب العلم في كل زمان ومكان؟ انه هو الذي شعر بانسانيته وسعى سعيا حثيثا لتمكينها، وبعد بذلك عن المرتبة الأدنى، واستحق هذه الهالة التي أضفتها عليه السنة فجعلته ساعيا الى أفضل كسب في الحياة، قال عليه السلام: «ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدى أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله»[٢]. كما جعلته في مرتبة المجاهدين، «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[٣] كما جعلت جزاءه الجنة «من سلك طريقا التمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة»[٤].

وأنا واضع بمشيئة الله بين يدي ناشئتنا المتعلمين أمورا

---

(١) رياض الصالحي.

(٢) الطبراني

(٣) الترمذي

(٤) مسلم

أود أن يتأثروها ليجنوا ثمار هذا التعب الذي يعانونه في مسيرتهم في طلب العلم.

ينبغي أن يحرصوا على العلم ما استطاعوا والا تفوتهم فائتة منه، ولتكن الحكمة ضالتهم أنى وجدوها أخذوها، وأن يحسنوا الاصغاء الى المعلم فلا يصرفهم عنه أي صارف وأن يتتبعوا كل كلمة يقولها، وكل حرف ينطقه ليحسنوا المتابعة ويربطوا المعلومات، ويخرجوا بالنتائج المرضية التي تثبت في الأذهان وتندمج في العواطف وتوجه السلوك بعد ذلك الى خيري الدنيا والآخرة، وذلك كله يحتاج الى وعي كامل برسالة التعليم وأثرها في حياة الناس، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم»[1].

ومن واجبهم ألا يكتفوا بتلقي العلم كشيء يحشون به أدمغتهم، بعيدا عن التأثر به والانتفاع بمواجبه في ترقية الحياة وتهذيب الأخلاق، والا فما قيمة علم لا يسير حياتنا ويقوِّم معوجنا.

---

(١) البخاري ومسلم

ان العلم والتربية صنوان لا يكادان يفترقان، ودور التربية في التنمية الاجتماعية والأخلاقية والثقافية دور عظيم. يقول الله تعالى: « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك. ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، انك أنت العزيز الحكيم »[1] فرسالة الرسول تعليم وتزكية، وفي التزكية تربية. وهي ثمرة التعليم على توالي العصور، ولا أجد أصدق في بيان طوائف المسلمين على قدر استعداد كل منها، وأثر تلقي العلم في نفوسها من قول النبي صلى الله عليه وسلم: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ووزعوا، وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[2].

دور الأخلاق في التربية.

ونعني بالأخلاق في بحثنا هذا الأخلاق الاسلامية التي

---

(١) سورة البقرة « ٢٩ »

(٢) البخاري

جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه، وكان هو في حياته الخاصة والعامة أسمى مثل يمكن للناشئة أن يتأثروه، والناشئة بطبيعتهم لم تتكوّن لديهم تجارب عديدة عما يحدث في الحياة من أفعال، «لأن الشباب يميلون في الغالب الى اتباع عواطفهم وانفعالاتهم، فكانوا محتاجين الى تجارب سواهم في هذا السبيل. يقول أرسطو الأخلاق لا تصدر عن الطبيعة بقدر ما ترجع الى العرف والتقاليد الموروثة، لهذا كان من الضروري أن يكون المنهج في دراسة الأخلاق متمشيا مع طبيعة المشكلات التي تبحث فيها»[١].

غاية الأخلاق:

لقد اهتدى الفلاسفة الى أن غاية الأخلاق هي السعادة، على اختلاف بينهم في ماهيَّة هذه السعادة بين اللذة والمنفعة وغيرها، «وقد كان الرأي شائعا عن اليونانيين على عصر أرسطو، اذ كانوا يرون أن كل فعل يقوم به الفرد انما يستهدف من ورائه تحقيق السعادة لنفسه. وليس تحقيقا لمطالب الآلهة أو أي أمر غيبي آخر»[٢] وواضح أننا نتفق

(١) تاريخ الفكر الفلسفي
(٢) محمد أبوريان

معه في أن الهدف من أي عمل وبالتالي الأخلاق هو تحقيق السعادة ولكننا نختلف معه فنقرر أننا نهدف الى السعادة في الآخرة، كما نقرر أن العمل لذلك هو سعادة في حد ذاته عند المؤمن المعترف بالهه الواحد الأحد،.. ويستلزم ذلك أن تكون الوسيلة اليها وسيلة مشروعة يقرها الدين، ذلك الدين الذي لا يمنع من ازدواجية السعادة في الدارين ولسنا نستطيع أن نوفي بمناهج الأخلاق جميعها، فحسبنا في هذه العجالة ما يتصل منها بما يسمونه أدب اللياقة والاجتماع.

الأخلاق الاجتماعية:

وحيث أن الإنسان مدني بطبعه، فهو لا يستطيع العيش وحده، لأن طبيعة الحياة نفسها تأبى عليه ذلك لاحتياجه الى غيره في كل أمور هذه الحياة، وهو يشعر بذلك شعورا يدفعه الى الاتصال والاندماج خاضعا في ذلك لمقتضيات العرف والقانون اللذين ينعم في ظلالهما بالأمن والطمأنينة.

وأحسن الأخلاق ما يحقق ذلك النعيم في ضوء الفضائل التي أوضحتها تعاليم الاسلام وسار عليها رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم، وقد وفقه الله عز وجل الى العمل بكتابه الكريم، الذي يحمل بين دفتيه دستور الحياة المبنية على دعائم الأخلاق القويمة، والفضائل الخلقية الرفيعة، وقد

سئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم فقالت: « كان خلقه القرآن ».[1]

ونثبت هنا للناشئة المؤمنين بعض الملامح من هذه الأخلاق الاجتماعية التي سنها الرسول الكريم بأقواله وافعاله فقد أوفت على الغاية في توضيح انسانيةالرسول والتزامه بالأدب الرباني العظيم في معاملته للناس، وفي معاشرته لجميع الأجناس ونشير قبل أن نأخذ في تجلية ذلك الى أن الوسطية الاسلامية، كانت تتجلى في كل قول يقوله وفي كل عمل يصدر منه، مراعيا بذلك مقتضيات الأحوال، وهادفا الى الجمع بين ارضاء الناس، والتماس طاعة الله في هذا الرضا، وحسبنا أن نذكر باعزاز وفخر حديث أنس رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله عشر سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟[2] وليس ذلك منه اهمالا لتوجيه خادمه للعمل الواجب - كما لا يخفى - فذلك منه صلى الله عليه وسلم توجيه صامت، له أثره المكين في نفوس هؤلاء الصحابة الأجلاء. وسوف لا نعرض في هذا الفصل للبحث المستفيض في أمهات الأخلاق، وانما نتناول منها ما يتصل بحسن المعاشرة تناولا

---

(١) البخاري

(٢) البخاري

خفيفا يوضح قيمة التربية العملية في توجيه ناشئتنا الى العيش بسلام مع أبناء جلدتهم، حتى يظفروا بحياة رغدة آمنـة من كل ما يعكر الصفو في ظلال رحمة الله ورضوانه وتوفيقه وتسديده.

ويقتضينا هذا أن ننفي زيف العرف اذا لم يكن أصيلا يستمد مظاهره من وحي الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يقتضينا أن ننقض العادة اذا تعارضت مع المصلحة الخاصة والرأي العام المسلم السليم. فنمهد بذلك الى طبع الناشئة بالطابع الاسلامي الفريد.. وهم شيئا فشيئا سيألفونه، ويمضون عليه في حياتهم بعد أن يحسوا بمزاياه. ويشعروا بملاءمته الحقيقية لما ينشدونه في هذه الحياة.

الرجولة الحقة:

قد تفهم الناشئة الرجولة على أنها جسم ضخم، وسواعـد مفتولـة فحسب، وجهـارة صوت، وتصعـير خـد، واستكبـار على خلق الله، واعتداء على حقوق الآخرين واستنكـاف عن مزاولـة العمـل، حـتى في أخص خصائص الأعمال التي لا يتصور إشراك أحد فيها، فتأتي السيرة المطهرة وتقول لهم لا.... ليس ذاك، وانما هي التواضع والمشاركة، وخفض الصوت، والعدالة الاجتماعية،

وتأدية الحقوق لأربابها، ومزاولة المهنة ولو حقرت والتعفف عن تسخير الناس، والاعتماد على النفس، والثقة بها في كل ميادين الحياة وهكذا رسول الله صلى الله عيه وسلم «كان مثلا نادرا لجمال الرجولة العربية، كان كشأنه في جميع شمائله مستوفيا للصفة من جميع نواحيها، فرب رجل وسيم غير محبوب ورب رجل وسيم محبوب، ورب رجل وسيم يحبه النـاس ويهابونه وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس، فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه[1].

وفيما يلي بعض هذه الشمائل أضعها بين يدي الناشئة المسلمة لعلها تهتدي بها على طريق الحياة. في الأعمال اليومية في الحياة العادية نراه يأتي أعمالا يحسبها ضعاف العقول وقصار النظر لا تليق بالرجال. سئلت عائشة: ما كان الرسول يفعل في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة يتوضأ ويخرج للصلاة[2] والذي نفهمه من مهنة أهله ما يلزم البيت من كنس ومصف وحلب وما

---

(١) عبقرية محمد للعقاد

(٢) مسلم

اليه - ولا حرج - فهو بيته لا بيت غيره، وكيف يستنكف من مزاولة العمل فيه. يدل على ذلك صريح الحديث. فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاة فحلبها[١] وكان يلقى أصحابه بالتبسم، ويرعى مشاعرهم في كل حركاته وسكناته مع أنه موقن بعدم غضبهم على أي تصرف من تصرفاته، وكان لا يمد رجليه بين أصحابه، ويكنيهم ويدعوهم بأحب أسمائهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام[٢]. يكرم ضيفه ويخدمه ويأتي أصحابه مما يأتيه من هدايا، ولا يحب منهم أن يقوموا له حين يقدم عليهم. ويقول لهم: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويصف نفسه بالعبد دائما حتى لا يرهبوه أو يخافوا أن يخالطوه». وحديث الأعرابي الذي جبذه، جبذة شديدة مشهور ومعروف. عن أنس «كنت أمشي مع رسول الله وعليه برد غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبته. ثم

---

(١) عبقرية محمد للعقاد

(٢) خلق المسلم لمحمد الغزالي

قال: يا محمد مرلي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله وضحك وأمر له بعطاء »[1].

عن عائشة قالت: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما فان كان اثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط الا أن تنتهك حرمة الله فينتقم، وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما الا ان يجاهد في سبيل الله تعالى[2].

والاعتزاز بالأصدقاء ومعاشرتهم باب كبير من أبواب هذه الرجولة الحقة، كيف يحملهم على البقاء معه طوال الوقت في ودادة وحب، وأريحية نبيلة، وعاطفة صادقة وكيف يستولي على قلوبهم فيستجيبون له فيما يشير به. ويؤدون رسالتهم معه كاملة غير منقوصة.

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ من ذلك مبلغا لا يقال عنه فيه: انه جامل أصحابه على حساب الحق أو أنه ضمن استجابتهم له بالرهبة أو الرغبة أو العنف والقهر والاملاء والتسلط بل في اطار الحديث النبوي القائل « لا

---

(١) البخاري

(٢) مسلم

يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[1] »واذا فهو الامتزاج العاطفي والحب القلبي والرحمة والإيثار والمشاركة الوجدانية في السراء والضراء، والوفاء للذكرى والانتصاف للحق، وهكذا مجموعة من الفضائل يأتيها طواعية واختياراً وهو يستشعر المتعة النفسية ولا يضيق بها أو يمل أو يخادع أو يماري وانما هي السجية والطبع، وصدق الله العظيم اذ يقول: « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. فٱعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين »[2].

وسلوكه صلى الله عليه وسلم مع صغار الأطفال سلوك يبكر برجولتهم ويزرع فيهم الثقة في أنفسهم في هذه السن الباكرة التي لم تنضج ولم تتفتح بعد للحياة، فهو صلى الله عليه وسلم القائل عن موقف الانسان من خادمه « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون، فان كلفتموهم فأعينوهم »[3] وهي نظرة

---

(١) رياض الصالحين

(٢) سورة آل عمران - ١٥٩ -

(٣) البخاري

نبوية ترفع من شأن هذه الطبقة وتسوي بينهم وبين من يعملون تحت أيديهم في المعاملة كما أنها نظرة واقعية فليس لهم ذنب في أن كانوا أدنى مرتبة وأقل حيلة من سواهم، بل هو نظام الله في الناس، أن سخر بعضهم لبعض «والله فضل بعضكم على بعض في الرزق، فما الذين فُضِّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء، أفبنعمة الله يجحدون[١]. «كما ان سلوكه مع زوجاته بلغ القمة في التسامح والعشرة الطيبة التي ترتفع عن الهفوات وتحتمل الجفوة والغلظة وكن يعرفن له هذا الكرم الواسع فيحذرن أن يغضبنه من تلقاء أنفسهن فان حدث شيء من ذلك رجعن سراعا في محبة وتقدير ليس لسلطان القهر الزوجي ولكن للانسانية النبيلة التي ظفرن بها منه دائما ﷺ». ذهب اليه أبو بكر يوما يستأذن عليه فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحدمنهم، ثم دخل أبو بكر وعمر من بعده فوجد النبي جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا فأراد أبو بكر أن يقول شيئا يسري عنه فقال: «يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام

---

(١) سورة النحل - ٧١ -

أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان: « تسألن رسول الله ما ليس عنده!؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئا ليس عنده» ثم اعتزلهن الرسول شهرا ، أو تسعة وعشرين يوما ، فنزلت بعدها الآية فيها التخيير وهي: « يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة والدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة. فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »[1].

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها: « يا عائشة » ، اني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك ، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت: « أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ، بل أختار الله ورسوله ، ثم خير نساءه كلهن ، فأجبن كما أجابت عائشة وقنِعْنَ بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها[2].

وقد يستغل أحدنا عجز الحيوان الأعجم عن اظهار ألمه مما ينوبه فيلهب ظهره بالسوط أو يستهين بحياته حتى لا تطرف

(١) عبقرية محمد – العقاد

(٢) الأحزاب– ٢٨

عينه ولا يرق قلبه للحادث الملم بهذا الحيوان الأعجم، بل لعله يلهو بهذه الحيوان ويتفنن في تعذيبه الى حد ازهاق الروح. وهي عاطفة جامدة لم يفت النبي أن يشير اليها وإلى أضرابها، مؤكدا أن الرحمة كل لا يتجزأ وأنها ما دخلت في شيء الا زانته وما انتزعت من شيء الا شانته.

وحديث المرأة التي دخلت النار لحبسها الهرة حتى ماتت، وحديث الرجل الذي سقا الكلب فشكر الله له فغفر له، حديثان من الشهرة بحيث يضربان مثلين على الشيء ونقيضه، فليس دخول المرأة النار لهذا الحادث الفرد وحده، بل لهذه القسوة التي طبع عليها قلبها، وأكبر الظن أنها كانت في حياتها مثلا على العنف والقسوة في كل ما تزاول من أعمال، وليس دخول الرجل الجنة لمجرد أنه سقى الكلب، وانما للرحمة التي شاعت في نفسه، وهي زعيمة أن ترقق قلبه على كل من يتصل بهم في حياته فتقوده الى الخير كل الخير والى البر كل البر.

ولا يقولن قائل: انه رسول الله المؤيد بالوحي، المرعي من جانب الله فهو نسيج وحده في هذه المجالات لا طاقة لأحد بما كان يأتي وما كان يدع.

بل هو انسان وهو بشر، لا يفضل البشر في طبيعته وفي

غرائزه وأنه أوتي قدرة على الترقي في مجالات العلم والعمل. وله كسب واكتساب في كل ما يزاول يغضب ويحلم، ويفرح ويحزن، ويغني ويفتقر، وما يعلم الغيب حتى يلتمس لنفسه الخروج من مآزق الحياة، وانما يخضع لقوانينها ويحاول أن يطب لأدوائها وينفتل من أزماتها بنفس قوية وعزم أكيد، وذلكم ما نشير به على الناشئة أن يتأثروه من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكن لهم جهد وجهد بعد دراسة وتفكير عميقين وحسبهم أن يقلبوا صفحات هذه الحياة الرائعة بنفس مشوقة، وقلب سليم وعاطفة جياشة وأمل وسيع في الحياة التي تحفل بالخير وتنأى عن الشر جهد المستطاع.

ويوم يحقق الناشئة أملنا فيهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله نشكر الله على أن وضعنا أقدامهم على الطريق «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون»[1].

---

(١) سورة التوبة «١٠٥»

مراجع البحث.

١ - القرآن الكريم.

٢ - صحيح البخاري.

٣ - صحيح مسلم.

٤ - رياض الصالحين.

٥ - المجازات النبوية للشريف الرضي.

٦ - سيرة ابن هشام.

٧ - منهج التربية الاسلامية لمحمد قطب.

٨ - الترمذي.

٩ - تاريخ الفكر الفلسفي - د. محمد أبو ريان.

١٠ - عبقرية محمد للعقاد.

١١ - خلق المسلم - لمحمد الغزالي.

١٢ - فقه السيرة - لمحمد الغزالي.

١٣ - المقنع لابن قدامة.

١٤ - شهداء الاسلام في عصر النبوة.

١٥ - تفسير ابن كثير.

١٦ - علم النفس العام - د. عباس عوض.

١٧ - الموسوعة في سماحة الاسلام - لمحمد صادق عرجون.
١٨ - الأربعين النووية.
١٩ - نساء النبي - لبنت الشاطىء.
٢٠ - عبقرية الامام للعقاد.

خصائص

التربية النبوية ﷺ

للشيخ محمّد الشّاذلي النيفر
« تونس »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاته وسلامه على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

المعلم الكامل:

أرسل الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في محكم كتابه إخباراً عن دعوة ابراهيم عليه السلام.

(ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) (١٢٩ - البقرة).

شرحت الآية الكريمة المقصود من البعثة: وهي التربية والتعليم فإن ابراهيم عليه السلام لما عهد الله له ببناء البيت العتيق ورفع قواعده دعا الى الله تعالى بدعوة جامعة بين الأمرين الاساسيين في الدين وهما:

الاستسلام لأمر الله والخضوع لطاعته، وعدم الاشراك في الطاعة أحدا سواه وفي العبادة غيره، وخلاصة ذلك

الاخلاص لله في الطاعة والعبادة.

وتربية الأمم والأجيال القادمة تربية جامعة لا مغمز فيها، ترتفع بالأمم، وتأخذ بأيديهم الى الارتقاء.

فالتكوين التربوي شاءه الله، كما وضحته الخطوات التي حَيَتْها البشرية: فأنبأت أن الطبيعة التي تكونت، وتربت بها الأجيال منذ الأحقاب الأولى أن الانسانية متصاعدة ابتدأت بالدرجة الأولى ثم أخذت تتصاعد شيئا فشيئا فهي مكتملة بحسب دورها الذي تعيش فيه ثم هي تعطي للجيل الموالي ما يضيفه الى من بعده.

فابراهيم عليه السلام، لما كان في طور من أطوار الإنسانية دعا الله أن يبعث رسولا يعلم الناس ويزكيهم تطلعا إلى درجة غير الدرجة التي هو فيها.

فكان من دعوة ابراهيم أن الأنسانية لها أمران تقوم عليهما كما يقوم.. الانسان بجسده على رجلين والأمران المقام عليهما الإنسانية هما:

- العبادة والطاعة لله، وهي أمر مؤسس على الاخلاص لله في طاعته والقيام بالتوجه اليه بالصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك.

فالدين من ناحية التوحيد وتعظيم الله سبحانه لم يختلف

دين عن دين فالقدر المشترك بين الأنبياء العبادة لله وحده لا شريك له مع اختلاف في الشرائع والمناهج وثبت عنه صلى الله عليه وسلم قوله: نحن معشر الأنبياء اولاد علات ديننا واحد[1]

- والتعليم والتربية للأمم لتنهج المناهج الصحيحة. والتعليم والتربية اللذان دعا إبراهيم الله بأن يبعث نبيا خاتما يقوم بهما عامان في العبادة: وتعليم الخير ليفعل: وتعليم الشر ليتقى فتعليم الكتاب القرآن: وتعليم الحكمة الحديث، والتزكية التطهير والاصلاح.

امتياز التربية الدينية:

ولتكون التربية الدينية على الوجه المبني عليه البناء الذي أراده الله تعالى خص سبحانه خاتم الأنبياء بتربية ذات خصائص لا يمكن لعقل بشري مهما أوتي من الذكاء والفطنة أن يأتي بمثلها، فالعقل الممتاز يستطيع أن تتفتح له آفاق في ميادين شتى الا أنه في خصوص ما جاء به الاسلام في عجز لأن الدين المبني على التربية هو من خصائص الشرائع المنزلة من رب السموات والأرض،

(١) رواه ابن كثير في تفسيره جـ٤ ص/١١٧ أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

(قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٨٨ - الاسراء).

فالقرآن كما عجزت الأنس والجن على محاكاته في فصاحته وحسن نظمه: كذلك هم عاجزون على الإتيان بمثل مبادئه الجامعة لكل ما تحتاج اليه الإنسانية ومبادىء القرآن هي التي تمثلت في النبي صلى الله عليه وسلم اظهارا لبيان أن تلك المبادىء ليست نظريات مجردة لا تطبق بل هي مطبقة في تلك التربية التي مثلها الله جل جلاله في نبيه حتى تكون ممثلة في الذين التأموا حول النبي صلى الله عليه وسلم لتظهر فيهم، ثم يتناقلها خلف عن سلف.

الرسالة النبوية تربية:

تضح مما تقدم أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة إبراهيم عليه السلام تعليم وتزكية للمبعوث اليهم.

وما دعا به إبراهيم أستجيب له، وهو ختم الرسالات بخاتم الأنبياء بدعوة عامة شاملة تكيف المعتنقين لها، وتربيتهم الصحيحة النافعة.

فالرسالة تربية وتعليم كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (انما أنا لكم بمنزلة

الوالد أعلمكم) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وآبن ماجة وآبن حبان.

أشار في هذا الحديث إلى أن الخصائص الإنسانية في التربية ليست من قبل الغرائز كالحيوان: بل هي موقوفة على من كان سببا في وجوده وهما الأبوان: فلذلك كان التعليم منهما وخاصة الوالد هو الدرجة الاولى في التعليم والتعليم الأبوي الذي هو الصنف الاول من التعليم تولاه أيضا النبي صلى الله عليه وسلم حتى في بسائط الأمور لإخراج النشأة الصالحة المستجمعة للتربية بحذافيرها.

فالذي يتولاه الأبوان قد تولاه النبي صلى الله عليه وسلم. وليست تربية النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة على ما يربي به الأبوان ابنهما من الأمور الأولية، وإنما هي تربية تشمل مجموع الإنسان في أخلاقه وسلوكه، وإدارة نفسه الإدارة النافعة وغير ذلك.

وهو ما اخبر عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ....(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).......... رواه الحاكم في المستدرك، والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما، فالحديث يشير الى أن التربية

الكاملة هي التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم.

وبهذا امتاز الاسلام عن غيره فأصبح دينا ممكنا له في الأرض، يأتي بالخير من منابعه، ويدفع بالشر دفعا حتى لا يصيب من توقاه.

العناية بالتربية النبوية:

فكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم تربية كما افاده ونقله لنا علماء الحديث لكن منهم من نظر إليه من الناحية التربوية، ومنهم من نظر إليه نظرا أعم فهذا البخاري الإمام الحافظ (٢٥٦) نظر إلى الحديث من الناحية الأولى فجمع الكثير من هذه التربية في كتاب خاص، وهو الأدب المفرد، ذلك الكتاب الجامع في التربية النبوية.

وصنع فيه صنع حكيم حين ابتدأه بالأدب النبوي في تربية الأبناء مع الأباء فٱستهله بالأحاديث الداعية والمربية للمرء مع أبويه أمه وأبيه. فكانت طالعة كتابه حديث عبد الله بن مسعود الذي سأل فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أي الأعمال التي هي أحب إلى الله تعالى......

فاخبره صلى الله عليه وسلم بأنه (الصلاة على وقتها).

ثم سأله عما بعده،

فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: (ثم بر الوالدين).

ثم سأله عما بعد هذا...

فأجابه صلى الله عليه وسلم (ثم الجهاد في سبيل الله).

ثم اعتنى بالتربية النبوية اعتناء خاصا فجمع فأوعى وأتى بها مشمولة الأطراف،.ومجموعة سائغة - ابن قيم الجوزية (٧٥١) في كتابه (زاد المعاد في هدى خير العباد).

ومما أستهل به كتابه ما ذكره من الاحتياج الأكيد الى التربية النبوية في هديها الساطع.

(فصل) ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة الى معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به. وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر به، فإنه لا سبيل الى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة الا على أيدي الرسل، ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضا الله البتة الا على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس الا هديهم، وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال.. فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها والروح إلى حياتها.....

فأي ضرورة وحاجة فرضت بضرورة العبد، فحاجته الى الرسل فوقها كثير وما ظنك بمن اذا غاب عنك هديه، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار.. كالحوت اذا فارق الماء ووضع في المقلاة فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا الا قلب حي و (ما لجرح بميت إيلام)

واذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي صلى الله عليه وسلم فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه. والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[1].

جاءت كلمة ابن القيم في زاد المعاد تحريضا على التربية النبوية، دعوة حارة لآرتسام خطاها، وآتباع هداها وبيانا واضحا من أنها أوكد المؤكدات، حتى من الحياة التي هي أثمن وأعز ما يحافظ عليه الحريص على نفسه.

ليست التربية النبوية مقصورة على هذين الكتابين بل كتب السنة كلها شارحة ومبينة للتربية النبوية، وإنما الأدب

(١) زاد المعاد (ج١ ص/١٥)

المفرد للبخاري، وزاد المعاد لابن القيم أبرزا التربية النبوية في صورتها الواضحة فاستحقا ان يكونا أبرز المؤلفات في الناحية التربوية للرسالة العظيمة، وهي الناحية الأولى ويبرز لنا الغوص العميق أن القرآن تربية اذ هو هداية، وما الهداية إلا تربية وتنبيه للعقول،، وإيقاظ الأفهام فقد جاء بعد حمد الله وتمجيده والاستعانة به قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم.

(الم(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(٢) »البقرة: فالقرآن أصل التربية الاسلامية اذ ركز فيه وبين ما يقوم عليه العمل الصالح. (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (٩)الاسراء ،فهو كالشمس التي تستمد منها الحرارة التي هي الطاقة للحياة، فالقرآن الطاقة الحرارية للحياة القويمة الهادفة لاصلاح الإنسان في نفسه وإصلاح المجتمع ،فبدونه تتخبط المجتمعات خبط عشواء كما هي عليه اليوم كلما أرادوا إصلاحاً بداهم مهوى عميق مخيف.

خصائص التربية النبوية:

تمتاز التربية النبوية بمميزات تكاد لا تنحصر: لأنها كلما تعمق فيها الناظر بدت له خصائص ناطقة بما تمتاز به فالخصائص التربوية النبوية تدعو الباحث فيها أن يخصها

بتأليف خاص إبرازاً للتربية الممتازة الضرورية للحياة الصحيحة المستقيمة ونجتزىء في الكلمة المقدمة اليوم ببعض الخصائص التي هي كالعنوان لغيرها، فمن أبرز الخصائص للتربية النبوية أنها عامة في كل الحالات التي يتقلب فيها الأفراد.

من ذلك هدية القويم صلى الله عليه وسلم في الحالات الطبيعية كالأكل والنوم والانتباه واللباس والمشي والجلوس والبيع والشراء وغير ذلك.

وهو ما جاء في كتب الشمائل النبوية المتمثل فيها التربية النبوية في تنظيم الأحوال الطبيعية للانسان ولهذا قال صلى الله عليه وسلم كما تقدم: (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)..

- وهديه في العبادات في الطهارات والصلاة والزكاة والصوم والحج.

هدى على هدى:

وفي هديه في العبادات تربية اقتصادية مثل ما جاء في الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم مر على سعد بن أبي وقاص - وهو يتوضأ فقال له: ما هذا السرف؟ فقال له وهل في الماء من إسراف؟

قال: نعم، وان كنت على نهر[1]

في التربية النبوية اغتنام الفرص لإبداء لفت الفكر إلى نوع من التربية كما جاء في الحديث المتقدم: فإن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى سعد بن أبي وقاص يسرف في الماء حين وضوئه استفهم عن إسرافه فنتج عن تساؤله عن الإسراف في الماء تساؤل سعد عن كون الماء يكون فيه إسراف؛ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بأن الماء فيه إسراف ولو كان المتوضيء على نهر جار

وفي التساؤل بينهما من بديع الحكمة ما يعز نظيره وهو أن الماء مادة حيوية وإن توفر بين الأيدي لا ينبغي الإسراف فيه.

بقي اذا لم يسرف المستعمل للماء فما وراء ذلك؟

ما وراء ذلك غفل عنه الكثير في آستنباطه من الحديث، وهو أننا اذا لم نسرف فيه نحافظ عليه لمصالح أخرى.

نحافظ عليه فلا نتركه ينساب سبهللا، بل نفكر كيف نستفيد منه استفادات متعددة وهو ما أهمله الكثير فاضاعوا الاستفادة من الماء لا في عصورنا الذهبية، وإنما في

---

(١) عن عمر بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد الحديث وهو في ابن ماجة ج١ ص/١٤٧

عصور التقهقر التي أعرض الكثير فيها عن الإسلام إما جهلا وإما آستعاضة بغيره.

وفي الدعوة الى عدم الاسراف في الماء دعوة صارخة إلى الاقتصاد في الاستعمال في كل ما نستعمله، والاقتصاد الذي يشير اليه الحديث هو أن المستعمل لا يستعمل الشيء إلا بقدر حاجته، فما آعتاده المعتادون من التبذير للأشياء دون استفادة منها هو ما حذرنا منه النبي صلى الله عليه وسلم ونبهنا تنبيها حكيما كيف نستعمل ما هو من ضروريتنا في هذه الحياة[1].

في التربية العائلية:

وهديه في حياته العائلية نموذج من أعلى النماذج التي يعيشها الزوجان: فحياته صلى الله عليه وسلم جاءت أتم حياة زوجية بصورة ممتازة غير التي يظنها الناس، يظنون أن رغادة الحياة الزوجية تكون بالاسراف على الزوجة في المأكل والمشرب والملبس، والنزهة والقصور والخدم.

ويظن غير هؤلاء أن السعادة بالاستخذاء للمرأة وتحكمها في شؤونه ومن نماذجه ما وقع لبعض الأمراء الذين

---

(١) تنبه الغرب اليوم الى النهي عن الاسراف في مادة الوقود حين اضطرتهم الحاجة وهو ما نادى به الاسلام منذ قرون.

حكّموا نساءهم في شئونهم فآلت حالهم الى أسوأ حال.

ويظن فريق أن هناء البيت في الشدة مع المرأة ومعاملتها المعاملة القاسية.. الشديدة امتلاكا لزمام البيت فتصبح المرأة لاجدوى لها في الحياة البيتية، ويسبب ذلك القضاء على المدرسة البيتية للأبناء.

كل نظرات في التربية الزوجية غير صائبة وهي خواطىء وليس في هذه الخواطيء سهم صائب، وإنما الصائب ما جاء من مثاليته الزوجية منه صلى الله عليه وسلم سواء في سيرته البيتية الكريمة، أو دعوته للصحابة في معاملة الأهل.

ومن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، وعن ابن عباس رضي لله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الى الاحسان الى الأهل في قوله

(خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي).

رواه عن عائشة الترمذي: ورواه عن ابن عباس ابن ماجة. حذر هذا الحديث الصحيح من أن تكون القسوة الركيزة التي تقام عليها العلاقة بين الرجل وزوجته، وكذلك بينه وبين أقاربه. وضح النبي صلى الله عليه وسلم أن خير الناس هو خيركم لأهله، وهو ما أدبه عليه ربه تعالى فكان مثالا

عاليا في الخيرية للأهل بالمعنى العام والخاص وإنما جاءت هذه الدعوة الحارة الى ذلك لأن العلاقة بين المرء وزوجه اذا لم تكن كما أرادها الإسلام وعاشها النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن علاقة ورابطة بين أساسي البيت الأب والأم وإنما هي قيد يجمع بين رجل وامرأة.

واذا كان البناء البيتي على أنه قيد يتقيد به الرجل مع زوجه، لا يقوم مجتمع ولا يدوم إلا الى أمد قريب حتى تظهر فيه المحطات للمجتمع، وبذلك يتدهور في ظلمات بعضها فوق بعض.

والعجب كيف يسيء البعض الى زوجته والله يقول في محكم كتابه: (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (١٩ - النساء).

فلا ينبغي للزوج أن ينساق لبادرة الكراهة لزوجه فعساه أن كره منها خلقا حمد آخر كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم. لايفرك - لا يبغض - مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقا رضي آخر[١]

وقد أوجب الامام مالك رضي الله عنه على الرجل أن

---

(١) ذكره ابن ماجة جرى في تسهيله.

يتحبب لا الى زوجته فقط بل واجب عليه أن يتحبب الى أهل داره حتى يكون أحب الناس اليهم.

ومن القدوة مما يؤخذ من السيرة النبوية في الافساح للزوجة في ابداء رأيها دون أن تكون مسلوبة من إعطاء رأيها أنه كانت أزواجه تراجعه الكلام الحديث، وهو من حديث متفق عليه من الشيخين البخاري ومسلم.

واشعرت المعاملة النبوية الممتازة الصحابيات بأن لهن حق المراجعة، كما ثبت، أن امرأة عمر رضي الله عنه راجعته في الكلام، فقال: أتراجعيني؟ فقالت: إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه، وهو خير منك.

وحصل بحسن خلقه الكريم أن زوجاته كن صالحات يردن الله ورسوله، ولم يحصل ذلك بعيش المترفين الذين يظنون أنهم بالعيش المترف البالغ حد الإسراف يجتذبون ود زوجاتهم.

فبسيرته في بيته الشريف النموذج الذي ينبغي أن يؤنسهم في الحياة الزوجية ففيه الاعتدال في المعاملة والمعاشرة بالمعروف، مما هو من السيرة المرضية من الله ورسوله: وهو النطاق الحكيم الذي حدده الشرع الناظر للمصالح بعين تجمع المصلحة من أطرافها دون أن يشذ عنها شيء ما.

وبالتربية النبوية للزوجة تربية فائقة أصبحت عائشة أم المؤمنين في درجة من العلم والمعرفة، فأخذ عنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من حياته الهادفة الى الإصلاح مما أصبح مصدرا للتشريع، ومنبعا للمعرفة، روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس، وأعلم الناس رأيا في العامة، وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه، ولا بطب، ولا بشعر من عائشة. وعن مسروق رأيت مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض؛ أعطانا عطاء بن رباح جملة موجزة غاية الايجاز في التعريف بعائشة من أدق ما يعرف به، وهي أنها أعلم الناس رأيا في العامة.

ومعنى هذه الجملة على أحد الاحتمالات فيما تفيده[1] وهي أنها أعرف النساء بالعامة، والمعرفة الدقيقة بالعامة، أمر عزيز على العقول لا تستطيعه الا العقول النيرة.

رضي الله عنها، كانت أعمق معرفة بالنفسيات المختلفة

---

(١) من معاني هذه الجملة نستفيد أن الرأي في العامة لا يتأتى لكل أحد وانما هو من مميزات خواص الخواص.

ونستفيد من هذه الجملة معنى آخر. وهو أنها أعلم الناس بحسب الرأي في عامة الناس دون تخصيص ببعض منهم.

المتباينة المشارب كما هو متعارف في نفسيات العامة.
شخصية القيادة الفذة.

في أصول السياسة.

تكمن الهداية النبوية الكبرى في قيادته الجامعة لمعنى العظمة لا عظمة الكبرياء، وانما عظمة كمال الصفات المطلوبة في القائد الذي تجتمع حوله القلوب لتكون على الخير معوانة، ولتصبح ذات قيادة حكيمة حين تتبوأ مقام الخلافة.

فهو الشخصية الفذة الكاملة التي ألقت اليها قلوب الناس عامة بزمامها فملأت نفوسهم روعة من نوع خاص، وهي روعة المحبة الناتجة عن اقتناع الضمير فإنه منفرد في كمالاته المؤهلة له للتقدم وأخذ أَعِنَّةِ القلوب، وليست الروعة من قبيل المتعارف وهي الروعة المفروضة على الأفئدة والأدمغة بتكييف الحياة.. واحاطتها بسياج من الأعوان، وفرض أحكام تدخل الرعب.

والهداية النبوية في سياسة الأمور، وإدارة دفتها تعليم للذين يتبؤون رعاية شئون الأمم لأنه كذلك يصدر منه ما يكون تربية للقادة وتنويرا للأبصار في سياسة الناس.

فهو وإن بلغ أقصى الدرجات، وكان في منزلة لا يدانيه

فيها مدان في مظهر بشري يدعو للاقتداء.

وقد نطق الكتاب الكريم بما يفيد انه ذاتية تعليمية يأخذ منها كل احد بحسبه في الناحية المبتغاة له.

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثير) (٢١ - الأحزاب).

فهذه الآيَة أصل كبير في التأسي واتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل أحواله وأفعاله وأقواله، فهو القدوة العظمى في سائر الفضائل وشتى التكوينات الإنسانية فيغترف المغترفون من فضائله ما يكون لهم رائدا في حياتهم، أي حياة كان نوعها.

وظهر منه المظهر البشري فيما يلزم القائد المخلص، والسياسي المحنك فيما رواه الترمذي في كتاب الشمائل عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال سألت خالي هند بن أبي هالة[١].. وكان وصافا: فقلت صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في

---

(١) هند بن أبي هالة هو: هند بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم. أمه خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. قتل يوم الجمل.

غير حاجة.

أتى وصف هند بن أبي هالة للنبي صلى الله عليه وسلم موضحا لما يلزم أن يكون عليه متولي أمر الأمة من كونه

متواصل الأحزان

مع إدامة التفكير

مع فقدان الراحة

انما كانت هذه الصفات لمتولي أمر الأمة لما نوضحه من معناها... وضروريتها... فتواصل الأحزان المراد به التيقظ لما يستقبله من الأمور فالليالي حبالى يلدن كل عجيب ،فضبط الأمور ضبطا يكفل للأمة الراحة يستدعي من السائس أن يكون على حذر وأن يكون مستيقظاً لما يحدث حتى لا تباغته الحوادث بالكوارث، وأن يكون قد أعد لكل مشكلة حلا وبذلك تنعم الأمة. وتصبح في أرغد حياة.

فالتيقظ والحيطة منه تربى بها خلفاؤه الراشدون وبذلك أصبحت الأمة الإسلامية تغنم كل يوم غنما في القوة والتمكن في الأرض باسباب التمكن القويمة.

فسياسته المشروعة جمعت ما تحتاجه السياسة الحكيمة من كونها تفتح على الأمة بما يهديها ويسدد خطاها ويشد عضدها، ويضيء لها سبيل الرشد مع قوة تردع الباطل،

وتكف اليد العاملة كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه:

إن الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول[1]

انطلق الواقع المحسوس كعبا فوصفه بالصفتين الضروريتين للسائس الموفق في أعماله، وفي قيادته ؛ أسلم كعب بن زهير لا خوفا من أجل إهدار دمه فقط، وإنما دعاه الواقع. الى أنه رأى في الرسول أنه القائد للأمم كلها لما اتصف به من سياسة بارعة، ونظرات ثاقبة واهتمام بالغ في الإشراف.

وادامة الفكرة ليست مقصورة على التفكير في ملكوت السموات والأرض لأن التفكر في ذلك من أعظم العبادات: اذ يشمل تفكره فيما ينفع الناس دينا ودنيا، وينقذهم من الضلالة، والجهالةوإدامة الفكرةلتوزعه على جوانب مختلفة متعددة متباينة احيانا، فالألمام بها، والقيام بما تستوجبه يستدعي أن حركة الفكر لا تقف كالعجلة التي تدير رحى

(١) اقتصر مترجمو كعب على ما يفيد انه أسلم لأن أخاه كتب له: النجاء من أجل أن النبي صلى الله عليه وسلم اهدر دمه مع أنه لا مانع من أن يكون إسلامه لما وقر في نفسه مما عبر عنه في قصيدته الغراء المعروفة بالكعبية. ولعله هو الدافع الأقوى.

السير المنتظم فاذا وقفت وقف معها السير.

وفقدان الراحة يستدعيه الاشتغال الدؤوب بوظائف عديدة منها ما يرجع للعبادة والقربات.

ومن الوظائف ما يتطلبه التدبير لما يصلح الأمة، ولتربيتها التربية الناجعة وللجهاد والمواساة وتدبر المهات الدينية والدنيوية.

تجلي التربية السياسة
في الخلفاء الراشدين

بدا الهدى في السياسة الرشيدة في الخلفاء الراشدين فساروا على المنهاج البادي في حياته السياسية، ولذلك لم تختلف على الامة القيادة الرشيدة ومن أجل الرشد الواضح سمي الخلفاء الأربعة بالخلفاء الراشدين.

ومن آثار التربية النبوية فيهم مما تقدم من الصفات أنهم واصلوا الاهتمام البالغ في شؤون المسلمين فلم يفرطوا في لحظة من حياتهم لغير صالح فقاموا باعباء الخلافة مؤداة في كل مقوماتها.

فأبو بكر رضي الله عنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اشرأب النفاق وارتدت العرب وانحازت، فكان رضي الله عنه كما قالت ابنته عائشة لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي بكر لهاضها فما اختلفوا في نقطة إلاّ طار ابو بكر بغنائها

وفصلها[1].. وكذلك عمر انصرف اهتمامه كله لصالح المسلمين، فتفكيره في لحظاته كلها فيما هو بصدده من أموره.

ويصور شدة اهتمامه كمواصلة الأحزان من سيد الخليقة ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن عمرو بن الحارث قال: بينما عمر بن الخطاب على المنبر يخطب يوم الجمعة اذ ترك الخطبة فقال: يا سارية الجبل مرتين أو ثلاثا...

ثم أقبل على خطبته: فقال بعض الحاضرين لقد جن: انه لمجنون.

فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف، وكان يطمئن اليه، فقال: ما ألومهم عليك، إنك لتجعل لهم على نفسك مقالا، بينما أنت تخطب اذ أنت تصيح يا سارية الجبل، أي شيء هذا؟

قال: اني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل.

لم يخل عمر لحظة من الاهتمام بأخذ أيدي المسلمين فهو في خطبته إلتي هي بمنزلة ركعتي الظهر يغلب عليه تفكيره في

---

(١) ان مواقف أبي بكر في حروب الردة وغيرها دلت على أن ايمانه لا يوازنه إيمان في الثبات والقوة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم.

أمر المسلمين فينادي يا سارية الجبل، وسارية هو ابن زنيم الدئلي أمره عمر على جيش وكان من الصحابة لأنهم كانوا لا يؤمرون الا الصحابة، وسيره الى فارس سنة ثلاث وعشرين، فلما نادى عمر بذلك ألقاه الله في سمع سارية فانحاز بالناس الى الجبل، وبذلك انتصر ... المسلمون.

وكذلك وقع له في الصلاة فانه لما أخبر بأن أهل العراق قد حصبوا أميرهم فخرج فصلى غضبان فصلى فسها في صلاته، فلما سلم قال: اللهم انهم قد لبسوا فالبس عليهم فسلط الله عليهم الحجاج. (أخرجه البيهقي في الدلائل).

التدرج في الأمور:

ومن خصائص التربية النبوية أنها تتناول الأشياء تدريجيا بالتعاقب بين ما يبتدأ به، وما ينتهى اليه، فلا تتناول الأمور فجأة وإنما تتناولها بالترتيب والتعقيب وهو ما خصه الله به في تربيته الانسانية، وأجلى مظاهر ذلك تكوين الهيكل الاسلامي من حين انه ابتدأ أمرا خفيا الى أن أصبح قوة تستوعب العرب ثم إنها تستوعب الأمم.

فدعوته الكريمة انقسمت من أجل ذلك الى ثلاثة أطوار أصلية، كما هو قريب من الأطوار الإنسانية اذ الأنسان يتدرج في ظهوره من كونه جنينا الى كونه غلاما والى كونه

ناشئا الى أن يصبح هرما.

فالطور الأول للدعوة وهو ما كان في ظروف لا تسمح لها أن تنشر الا في محيط خاص فكان النواة الأولى، والبذرة الصالحة للإسلام ودام طور سرية الدعوة ثلاث سنوات كان فيها الدين يتدرج كما يتدرج الصبي في مشيته.

وأتى بعده طور الجهر بالدعوة، وهو في ذاته ترتيبي اذ ابتدأ الأمر بالجهر بالدعوة بإنذار العشيرة في خصوص الأقربين.

(وأنذر عشيرتك الأقربين (٢١٤) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥) فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون (٢١٦) وتوكل على العزيز الرحيم (٢١٧) (..الشعراء..).

فالجهر بالدعوة تركز أولا على إنذار عشيرته الأقربين لأمرين:

أولهما التدرج في الدعوة لتستوعب من تحل قلبه الهداية من أقاربه ليمتاز المتفهمون من ذويه لدين الله المبعوث به خاتم الأنبياء من غيرهم حتى يكون جوه العائلي قد نقده الظرف الذي ابتدأت فيه الدعوة تظهر في ثوب آخر، وهو الجهر بها.

وثانيها أن التبليغ اذا كان في الأقارب يوقع في الأذهان أن دعوة الإسلام من أعز ما تنطوي عليه الجوانح ايمانا لأنها اذا آنتشرت في الاقارب الأدنين كان ذلك دليلا على صدق مبلغها لانه لو كان فيه مغمز لعلمه أقاربه.

فاقبالهم على الدعوة عنوان على صفائها: وتبرئتها من الشوائب فالترتيب في خطوات الدعوة سر، واظهار للدعوة في ظروف مهيئة لها الانتشار الواسع، واعداد القلوب لقبولها.

وما جاءت المقاومة حين اتسعت خطى الدعوة حتى نبتت الجذور، وأصبح الاقتلاع ليس بالأمر السهل.

فكانت كل المحاولات لاحباط انتشار الاسلام محاولات فاشلة باءت بالخيبة والخسران فلم تؤثر في الوقوف في وجهه.

ثم جاء انتقال الاسلام من مكة الى المدينة لأن أرضها خصبة للدخول في الإسلام، فكانت الهجرة فرقانا بين الحق والباطل وخطا الاسلام خطواته في الهجرة على تدرج يناسب الهجرة الى أن جاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجا وأصبح الاسلام مزدهرا.

كانت أطوار الدعوة تربية للمجتمع الاسلامي في كونه يأخذ بالتدرج في اقامة اموره: وبذلك يبني الصروح العالية، ولهذا

لم يأذن عمر في التوغل في افريقية لعمرو بن العاص وما ذكره صاحب معجم البلدان من أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص لا تدخل افريقية فإنها مفرقة كأهلها غير مجتمعة، ماؤها قاس ما شربه أحد من العالمين الا قست قلوبهم، لم يبعثه على ذلك التطير باسمها، وإنما أراد أن يحافظ على جيوش المسلمين، خوفا من التطويح بهم دون أن يحتاط في الأمر.

انتهاج منهج التدرج:

ما انفك قادة المسلمين عن دخول عظائم الأمور الا بعد التهيئة، والاستعداد التام، وكان ذلك في عصور متعددة. ومما يذكر من الاخذ بالتربية النبوية الداعية الى أن الإقدام على الشيء إنما يكون بالتدرج للوصول الى الأهداف، وبلوغها على وجهها الصحيح ما أثبته المؤرخون من حياة عبد المؤمن بن علي فإنه خاض معركة من أكبر المعارك في اطراد الرومان[١] من بلاد المغرب عندما تمركزوا في شطوط أفريقية وتملكوا أكثرها، وكاد استيلاؤهم يأتي على أفريقية

---

(١) وهم السكندينافيون الغزاة البحريون، ومنهم روجر الغول الذي فتح صقلية وأقام مملكة صقلية. ومنها استحوذ النورمان على سواحل افريقية أنظر فيما يتعلق بالنورمان الموسوعة العربية الميسرة.

حين استعد الاستعداد التام فكانت جيوشه العظيمة تقطع المسافات البعيدة. وقد مهدت لها الوسائل الكافية لبلوغ الغايات.

وبذلك أنقذ المهدية، وحاصرها برا وبحرا باسطول عظيم[1] اعده لغرض انقاذها، فتم له ذلك رغم حصانتها وقوة اسوارها مما جعلها اعز من بيض الأنوق ومع ذلك أنقذها من مخالب أولئك المتسلطين.

وتم له مراده، وأنقذت أفريقية من الكفر، فلم تلحق بصقلية التي ضاعت على المسلمين في عصور القهقرى.

ولما تأخر العالم الاسلامي وغط في نومه الجهل والتأخر، والبعد عن فهم مبادىء الاسلام في تنشئته الشعوب باغتته المدنية الغربية فانبهر لها وأراد اللحاق بها، غير أنه أراد الوصول اليها فجأة دون قطع المراحل اللازمة... ظانا أن اللحاق بالمدنية الغربية إنما يكون باشتراء ما تخرجه مصانعها فأقبل عليها بنهم.

---

(١) كان فتح المهدية في سنة (٥٥٥) وقد ذكر النحاني في رحلة الجيش العظيم المنظم الذي سار به عبد المؤمن بن علي لفتح المهدية ومما ذكره ان الجيش في سيره كان أميالا لطوله. وكان هذا الجيش بتكبيرة إمام واحد، ولا يتخلف منه أحد. أنظر ص /٣٤٦.

فلم يستفد منها وتلاشت بين يديه، وضاعت في ذلك أموال طائلة.

وقد تنبه لعدم فائدة الارتماء في الأخذ بأسباب المدنية الحديثة دون أن يكون هناك إطار صالح للأخذ بها الشيخ الوزير أحمد بن أبي الضياف (١٢٩١) الجدير بأن يلقب بابن خلدون الثاني في كتابه (إتحاف أهل الزمان) بأخبار ملوك تونس وعهد الامان).

فكتب فصولا تعمق فيها غاية التعمق بيّن فيها كيف وصل الافرنج الى مدينتهم الباهرة وهو: (تدرج عقلاء الإفرنج في أسباب العمران سبب النجاح فيما وصلوا اليه).

وانظر حال الافرنج الذين بلغ العمران في بلدانهم غاية يكاد السامع أن لا يصدق بها الا بعد المشاهدة كيف تدرجوا في أسبابه تدرجا معقولا، فإنهم أسسوا قوانين عدل، حتى استقر الأمن وذاقوا لذاته، وتفيئوا ظلاله، فاقبلوا على شؤونهم واشتغلوا بما يوسع دائرة عيشهم وثروتهم، فقوى الامل واستقام العمل فدعتهم الحاجة الى كثرته فجعلوا المعامل لالآت الغزل والنسيج وتليين الحديد، حتى إنهم تصرفوا فيه تصرف النجار في لين أخشابه، وغير ذلك مما توفر الدواعي على الاحتياج اليه، فكثر المصنوع فاحتاجوا

الى إنفاقه بالبيع والشراء خارج بلدانهم وأعوز شيء على ذلك الخلطة فسهلوا طرقها في البحر بالسفن الجارية وفي البر بأمن السبل وتمهيد الطرقات، حتى صارت العجلات تصل الى كل موضوع وتسير في قنن الجبال سيرها في البسائط ثم جعلوا أماكن لتبديل ما يجرها من الحيوانات طلبا للسرعة فطوت كثير المراحل في قليل الزمن.

وجعلوا البريد يحمل مكاتيب الخلطاء تسهيلا لأسباب الخلطة، ولما أفعمت عندهم سيول العمران والحضارة جعلوا طريق الحديد، تطير به العجلات، بالبخار، حتى كادت أن تصير بلدانهم دارا واحدة.

واقتضت نهاية الحضارة ونقل الاخبار بجذب المغناطيس المسمى بالتلغراف[١] وهو من أعاجيب الدنيا، ومظهر من آثار العقول الصافية، الناشئة في مهد الأمن، المغذاة بلبان الحرية، حتى إن الانكليز جعلوه في البحر الكبير، فانقطع فأعادوه ثم انقطع فاعادوه، وذلك من مال أغنيائهم لا من مال دولتهم، وكان فعلهم ابتغاء للربح من الأجر على نقل الخبر وهم يرجون منه الآن الربح الذريع، والله أعلم بما وراء ذلك مما أهل الله له النوع الانساني.

---

(١) كان اختراع التلغراف (البرق) سنة ١٣٥٦.

وهذا التدرج هو الذي أعانهم على ما يطلبونه من العمران وسهل عليهم أسباب الحضارة من غير تكلف، وذلك أن الأمر الضروري - اذا تم على أحسن حال، طلب بطبيعة الامر الحاجي: لما في الطباع من طلب إلتزيد، فاذا تم طلب بطبعه أول درجات التحسين، ولم يزل يتدرج فيه بحسب قبوله واستعداده ولو طمحت انظارهم الى التحسين من أول الأمر ما حصلوا هذه الدرجة، وهذا معلوم بالمشاهدة فانظر الى التلغراف بهذه الحاضرة التونسية فإن دخله ربما لا يفي بأجر من فيه من العملة وآنظر الى مثله في بلدان أوروبا.

ومن استعجل الشيء قبل ابانه، عوقب بحرمانه - سنة الله في عباده وبلاده[1]

يرى ابن أبي الضياف أن الحضارة لا تينع، ولا تؤتي أكلها الا اذا كانت هناك حرية تنطلق فيها الأفكار إبداعا واختراعا.

وبنى نظريته المتقدمة على الحياة الأوروبية التي ما عرفت تقدم الحضارة إلا بعد ما حصلت على الحرية في شعوبها،

---

(١) الاتحاف ج١ ص/٧٢ ط٢

وركز على إنكلترا التي نمت فيها الحضارة واتسع مداها أكثر من غيرها.

ولعله إنما ركز عليها لأن حريتها حصلت تدريجية، ولم يجر في أرضها من الدماء ما جرى في أرض فرنسا.

وليس الأمر مقصورا على أوروبا في الحرية فإن المسلمين في عصورهم الذهبية تمتعوا بحرية في ظل الاسلام لم يتمتع بها جيل مثلهم، ولذلك استطاعوا أن يرتفعوا بالمدنية الإسلامية الى القمة وأن يكونوا قادة الدنيا.

اغتنام الفرص الحياتية للتربية:

وتختص التربية النبوية بأنها تغتنم بعض الفرص لابداء تربية خاصة مثل اغتنام فرص تأبير النخل التي رمت الى غاية بعيدة تظهر من التمعن فيما رواه لنا الحديث النبوي، وهو عن عائشة رضي الله عنها:

ان النبي صلى الله عليه وسلم سمع أصواتا فقال: ما هذا الصوت؟

قالوا: النخل يؤبرونها

فقال: لو لم يفعلوا يصلح

فلم يؤبروا عامئذ: فصار شيصا[1] فذكروا للنبي صلى الله

(١) الشيص التمر لا يشتد نواه

عليه وسلم فقال: (ان كان شيئا من أمر دنياكم فشأنكم به، وان كان من أمور دينكم فإلي) ابن ماجه ج ٢ ص/٨٥٢.

وأوضح من هذا الحديث ما رواه سماك من انه سمع موسى بن طلحة بن عبيد الله يحدث عن أبيه قال: مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرأى قوما يلقحون النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟

قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الانثى، قال: ما أظن ذلك يغني شيئا، فبلغهم فتركوه فنزلوا عنها.

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: انما هو الظن ان كان يغني شيئا فاصنعوه فانما أنا بشر مثلكم، وان الظن يخطىء ويصيب، ولكن ما قلت لكم قال الله فلن أكذب على الله.

رواه ابن ماجه ج ٢ ص/٨٢٥

حرض هذان الحديثان على تربية حيوية لا معدل عنها في حياة الانسان وهي اجراء التجارب فيما يعرض من الامور استجلاء للحقيقة، واستطلاعا على باطن الامور، والتجربة اختبار الاشياء والغوص فيها حتى يتبين ما كان خافيا عن الانظار ويتضح اتضاح النهار.

وهي أصل في الحياة كلها فاذا ما خلت عن التجربة

كانت الحقائق منقلبة، والمعرفة مفقودة اذ كيف يتجلى باطن الشيء دون اجراء التجربة عليه.

فهذان الحديثان أوضحا للصحابة رضوان الله عليهم ان الأشياء قبل اجراء التجربة عليها من قبيل الظنون وهو شأن البشر فانهم أمام ظنون لا تتميز صحتها من سقيمها، ولا تتجلى خفياتها الا بعد التجربة.

فالتأبير للمزروعات الذي هو من صنع الانسان أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يوضح للصحابة أنه قبل التجربة من قبيل الظنون كما جاء في احدى روايات الحديث. (ما أظن ذلك يغني شيئا).

والظنون الترددات الراجحة بين طرفي الاعتقاد غير الجازم، منها ما هو يثبته الواقع ومنها ما يزيفه الاختبار: فالتظني في مقام التردد لا يجدي نفعا، فلا بد من اجتلاء الحقيقة الناصعة تمييزا بين الصحيح والسقيم.

ولابعادهم عن التظني أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أمرا حيويا تتوقف عليه المعيشة وهو استصلاح النخل بالتأبير فذكر أن التأبير يظن أنه لا يغني شيئا.

وبمقولته هذه عرض عليهم الظن في موقف من أدق المواقف لكي يقفوا على الاختبار، فحين اختبروا ذلك

اتضح لهم أن الظن لا يغني شيئا الا بعد الاختبار.

وبعد تجربتهم اجلى لهم فائدة استجلاء الامور مما يؤدي الى اتضاح ما كان محل تردد أو توقف فقال:

(انما هو الظن، ان كان يغني شيئا فاصنعوه) أي اختبروا أموركم كلها عند التردد والموقف غير القار فما أجلاه الاختبار وأبان صحته فخذوه وما كان غير ذلك فدعوه.

دعاهم الى أن الأخذ بالشيء أو تركه موقف على ما يتجلى من صحة وغيرها فما بانت فخذوا به، وما لم تتضح صحته فدعوه.

والآخذون بهذا القانون الانساني هم أقوم البشر على الطريقة لان مواقفهم متضحة جلية لا لبس فيها ولا التواء

فالساسة الذين غاصوا على الحقائق واتبعوها وساروا على منهاجها الواضح لا تلتوي عليهم الوقائع وبذلك يسلمون من الخطأ فترتاح لهم النفوس وتجري أحكامهم على ما يرضي.

والممتاز من الرجال هو العارف المجرب للناس فلا يغتر بالظواهر لعرفانه بالدخائل، فلا يطمع في غفلاته، ولا يخاتل.

ولم تهمل اللغة الاعتناء بالمجرب فأطلقت عليه المحنك

وهو الذي أحكمته التجارب، والأمور ومثل المحنك الحينك.

وانما دفع الحديث المتقدم الى التجربة لانها من أهم أسباب التفهم للروح الحقيقية للبحث العلمي فأمر الطبيعة اذا كان مبيناً على النظريات - وهي ظنون في ظنون لم تسبرها التجربة ولا البحث الكاشف - مآله الى الركود الفكري فيجمد العقل فلا يخطو أية خطوة لاستنباط القوانين الصحيحة في أي فن وعلم.

ومن البلية أننا في عصور التدني التي مرت بالعالم الاسلامي اغفلت الحنكة وتلقاها من انعكاسات النور الاسلامي غيرنا فاستفادوا منها أيما استفادة، فهذا غاليليو) بتجربته من البرج المائل في (بيزا) حين أرسل جسمين أحدهما يزن مائة رطل والآخر يزن رطلا واحدا يسقطان بسرعةٍ واحدة خلافا لتعاليم (ارسطو).

وحطم هذا المحنك تعليما عشش في الأذهان قرونا وهو باطل ولو أراد أحد اختباره لا تضح له سقمه لكن الغفلة عن التجربة ادت الى أن الرأي السقيم الصادر عن (أرسطو) عمّر قرونا متطاولة الى أن جاء هذا النابغة فأبدى أنه لا يتصل بالواقع بادنى سبب، وبذلك انساق العلماء بعده الى

ضرورية التجربة في الأشياء حتى يقرها الاختبار العميق، ويبرزها مجلاة في ثوب الحقيقة.

فما دعا اليه العالم الايطالي (غاليلو) أرشدنا اليه ديننا الحنيف ونبهنا اليه تنبيها يوقظ العقل ويدعو الى الغوص الى الأعماق منذ قرون سابقة، وانما غفلة المسلمين في قرون سير القهقرى هي التي وقفت بالعقول وحالت دونها فلم تستفد من التربية النبوية الاستفادة الحقة.

يحتار العقل حين يرى ترك الاختبار مع أن القرآن يرى في الوقائع ما هو اختبار كما جاء في غزوة أحد.

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) (... ١٧٩ ...) آل عمران فالله سبحانه وتعالى أرى المسلمين بهذا.. الاختبار ما تظهر به المنطويات في النفوس من الايمان أو النفاق وبذلك يتميز الخبيث من الطيب.

فهو تعريف وارشاد الى الاختبار بالتجربة فما كان مجديا في التفرقة بين الرجال لمعرفة الخبيث من الطيب منهم هو مجد في كل شيء حتى لا تتعمر العقول بالخرافات وهو ما طبقة ابن خلدون في علم التاريخ في تاريخه بعرض الحقائق التاريخية على الاختبار العقلي.

اختبار الضمائر:

ويأتي في المرتبة العليا من امتيازات التربية النبوية:

نقد الرجال في مواقف صارمة وحازمة ليكونوا عدة للأحداث فالمسلمون منذ عهد الصحابة مع التسلسل في العصور الذهبية أدوا وحققوا ما تطلبه الانسانية من اصلاح فلم تخر لهم عزيمة، ولم تقف في وجههم عقبات، فتكونت أمة اسلامية صامدة الى اليوم في وجه كل ما يعترضها، فرغم ما أصاب المسلمين لا زالت فيهم قوة عزيمة ستصل في أمد بعيد ان شاء الله تعالى الى افتكاك حقها المغتصب في بيت المقدس.

نقد الاسلام الرجال باختبار الضمائر والعزائم فمن اختباره للضمائر مما يعد نموذجا من أهم ما تتركز عليه قوانين المجتمع.

ان الناس في حال الرخاء سواسية لا يظهر خالصهم من زيفهم فاذا ما جاءت... الازمات ظهرت الضمائر المخلصة من الضمائر المريضة.

وقد أخبرنا القرآن بأن في الاسلام النقد الدقيق ليظهر الصدق من الكذب. بسم الله الرحمن الرحيم:

الم (١) احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا

يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣)...

العنكبوت

الفتنة الاختبار: ومنه قوله تعالى:

وفتناك فتونا (٤٠) (طه).

فالآيات الكريمات تعريف للناس بأنهم لا يتركون على حال واحدة: وهي الرخاء، بل تمازجها حال الشدة من أجل الاختبار.

الاختبار في غزوة بدر:

ومن التربية الفعلية مما هو من التربية الخاصة لسبر الضمائر قبل الاقدام على عظائم الأمور ما جاء في غزوة بدر الكبرى فان النبي ﷺ استشار الناس حين خروج قريش نفيرا لانقاذ العير التي عليها ابو سفيان والتي أقبلت من الشام في لقاء العير: أو لقاء النفير.

ولما جاء موطن الاختبار كان الصحابة عند حسن الظن بهم، فانبروا لاظهار ما تكنه صدورهم وما تنطوي عليه نفوسهم.

وتقدم أول الناس أبو بكر الصديق السابق لمرضاة الله جل وعلا ومرضاة رسوله ﷺ فاعرب عما كان مفتاحا

لاخراج ما في الضمائر وما تكنه النفوس.

وتلاه عمر بن الخطاب بما يشجع النفوس، ويقوي العزائم ويدعو الى الاعتماد على أهل بدر ويصدع بالثبات والصبر.

وقام بعدهما المقداد بن عمرو فقال: ما هو شفاء للنفوس:

يا رسول الله أمض لما أراك الله فنحن معك ولا نقول لك، كما قالت بنو اسرائيل:

(فاذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) (.. .. المائدة ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون؛ فوالذي بعثك بالحق لوسرت بنا الى برك الغماد[١] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[٢].

كان هؤلاء الثلاثة السابقون للاعراب عن الضمائر من المهاجرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ضمائرهم لهجرتهم معه فانهم ما هاجروا وفارقوا الوطن وتركوا الأموال وسلموا في الاقارب الا وضمائرهم تنطق بأنهم لا تضعف

---

(١) برك الغماد بكسر الغين المعجمة وهو موضع وراء مكة بخمس ليال. أو هو بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن: والاقرب انه المراد هنا.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص/٢٦٦

نفوسهم ولا يخافون ولا يهابون الشدائد فلا يحيدون قيد انملة عما ندبهم اليه ،ولكنه مع ذلك طلب وأعاد الاستشارة فقال: أشيروا علي أيها الناس وانما يريد الانصار.

وانما أراد هم علاوة عن كونهم انصارا لقصد اختبارهم في الموطن الحرج الذي وقفه الاسلام في وجه الشرك وقفة جماعية.

فلا بد في هذا الموطن من الاستكشاف حتى تكون هذه الموقعة - موقعة بدر الكبرى فرقانا بين الحق والباطل وتبيانا للعزائم.

خصوصا أنهم حين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له:

انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك كما نمنع ابناءنا ونساءنا.

فالبيعة كأنها مقصورة على الدفاع دون الهجوم فالموطن يتطلب شرح ما عندهم لانهم ربما يرون ان النصرة لا تكون واجبة عليهم الا على عدوه اذا دهم المدينة.

وقد أدرك ما يطلبه من الكشف عن ضمائر الانصار سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال:

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل

قال: قد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما اردت.. فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا انا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تَقَرَّ بِهِ عينك.

فسر بنا على بركة الله.

وقال سعد بن عبادة مثل ذلك: امض لما شئت فنحن متبعوك[1].

وقد انتج اختبار الضمائر هذا ما هو متوقع من الصحابة رضوان الله عليهم، مع انه قد كان فريق من المؤمنين كارهين قتال العدو، وانما كانوا راغبين في عير قريش المقبلة من الشام لأن فيها الأموال العظيمة مع قلة من معها فهي لقمة سائغة.

دار الأمر بين احقاق الحق وابطال الباطل بارغام الشرك ونصرة المسلمين مع قلة عددهم وعدتهم اذ كانوا

---

(١) سيرة ابن هشام والتسهيل لابن جزي جـ ٢ ص/٦١

ثلاثمائة وثلاثة عشر، ووفرة المشركين اذ كانوا الفا.

وبين الاستحواذ على العير بدون كبير عناء، وكثرة قتال، والنفس بالطبع ميالة مع اصابة المال بدون لقاء مكروه، والله يريد اعلاء الدين، واستئصال الكفر فشتان بين الموقفين فكان ما استخرجته المشورة انصياع ضمائر المسلمين الى ما أراده الله فغلبوا نفوسهم ونسوا ارادتهم الاولى، فصدقوا القتال فكان ما وعدهم الله من احدى الطائفتين حين ابلوا البلاء الحسن.

لهذا سبقت فتية من الانصار الى المبارزة لما دعا اليها عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة وابن عتبة الوليد.

وهؤلاء الفتية من الانصار هم:

عوف بن الحارث

وأخوه معوذ وامها عفراء

وعبد الله بن رواحة

ولكن مبارزوهم من قريش أبوا مبارزتهم، وطلبوا الأكفاء من قومهم فكانت الدائرة على هؤلاء المتباهين الشامخين بأنوفهم.

ما انتجه الاختبار:

بعد هذا الاختبار دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الى قتال الأعداء المشركين وحرض على الجهاد بقوله:

قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض، فلم يحجم الناس واقبلوا على الجهاد صابرين محتسبين، مقبلين غير مدبرين.

ومنهم عمير بن الحمام[1] فانه حين أراد الاقبال على الجهاد وكان في يده.. تمرات يأكلهن فقال: بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا ان يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل: وهو يقول:

ركضا الى الله بغير زاد

الا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

انه استطال الحياة، حياة أكل التمرات فلذلك ألقى بها كما جاء في صحيح مسلم، جاء فيه من حديث طويل.

... فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض).

قال - ابن انس رضي الله عنه - يقول عمير بن الحمام الانصاري: (جنة عرضها.. السموات والأرض - أي للنبي

---

(١) هو من الخزرج من بني سلمة وهو أول من قتل من الانصار في الاسلام.

صلى الله عليه وسلم قال: نعم.. قال: بخ بخ

فقال رسول الله: وما يحملك على قول بخ بخ

قال: لا يا رسول الله - إلاّ رجاء أن أكون من أهلها

قال: فانك من أهلها

قال: فاخرج تمرات من قرنه - بفتح القاف والراء: أي جعبة نشابه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة.

قال: فرمى بما معه من التمر ثم قاتل حتى قتل[1].

وصنع قريبا منه عمرو بن الحارث: وهو ابن عفراء قال: يا رسول الله ما يضحك الرب؟ - أي يرضيه - من عبده.

قال: غمسه يده في العدو حاسرا

فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه: فقاتل حتى قتل.

هذه النفوس المختبرة التي اختبرها الاسلام في هذا اللقاء التاريخي حققت الشيء الكثير للاسلام اذ قضت على رؤوس الكفر، صناديد قريش.

---

(١) صحيح مسلم ج ٣ ص/١٥١٠

وقد اشار الى بعضهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قوله من قصيدة (الوافر)

فغادَرْنا ابـا جهـل صريعـا
وعتبــة قــد تركنـا بالجبوب
وشيبــةَ قــد تركنـا في رجـال
ذوي حسب اذا نسبوا حسيـب
يناديهم رسول الله لمـــا
قذفناهم كباكـب في القليـب
فما نطقوا ولَوْ نطقوا لقالوا
(صدقت وكنت ذا رأي مصيب)

وجعلت رجالات قريش بعد تلك الهزيمة الشديدة تلقي بأيديها للأسر ، فكانت بعد ذلك تلك الانفة واقعة في الاسر اذ أسر منهم سبعون عدد قتلاهم اذ بلغ المقتولون سبعين ولاذ الكثير منهم بالفرار ،أما المسلمون فقد استشهد منهم اربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار.

قالت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنهـا : والله اني لعندهم اذ أتينا فقيل هؤلاء الأسارى قد أتي بهم فرجعت الى بيتي: ورسول الله صلى الله عليه وسلم به: واذا ابو يزيد

سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة مجموعة يداه الى عنقه بحبل.

قالت: فلا والله ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك ان قلت:

أي أبا يزيد أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراما.

فوالله ما أنبهني الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت:

أعلى الله ورسوله تحرضين؟

قالت: قلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه الى عنقه ان قلت[1].

قالت ما قالت رضي الله عنها لانها رات من الاسارى طواعية تدعو الى التعجب حيث ألقوا بأيديهم الى الأسر وما ذاك الا لما لقوه.

فهي رضي الله عنها وأرضاها في نقطة استغراب تدعو الى القول بمثل ذلك فالتعجب أنطقها.

وهؤلاء الأسرى معذورون لأنهم رأوا شدة مراس من المسلمين جعلتهم بين أمرين إما الأسر، واما القتل الذريع

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ٢٩٩

حين رأوا صناديدهم قد أفنتهم الحرب فلذا.. انصاعوا الى الأسر لما لم تهن عليهم نفوسهم.

الاختبار والرحمة:

ثم ان الاسرى أوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم خيرا فقال: استوصوا بالأسارى خيرا.

وذكر أبو عزيز أخو مصعب بن عمير أنه كان في رهط من الأنصار حين أقبلوا به من بدر. فكانوا اذا قدموا غداءهم - وجبة الظهيرة وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز الا نفحني بها، فأستحي فأردها، فيردها علي ما مسها[1].

لقد مثلت غزوة بدر في أربابها المثل الممتاز من القيم التي أظهرها الاختبار أولا، وحققها الواقع ثانيا.

اختبار ثان:

وكما اختبر النبي صلى الله عليه وسلم ضمائر المسلمين في الصمود والصبر.. والجود بالنفس اختبرها في الجود بالمال وذلك في قسمة الانفال.

---

(١) سيرة بن هشام ج ٢ ص/٢٩٩

فان المسلمين بعد أن جمعوا الانفال في بدر - أي غنائم بدر - اختلفوا في قسمتها لانه لما تسارع الشباب بقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم الاشياخ: لا تذهبوا به دوننا، ولا تستأثروا به علينا، فاننا كنا رِدْءاً لكم، لو انكشفتم الينا فتنازعوا فأنزل الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم[1]. (الأنفال)

هذه حال اختبار ثانية في خصوص الأموال فان هذه الأموال كادت تؤدي الى قطيعة بين الشيوخ والشباب بسبب المنازعة ولكنها التربية الاسلامية الاختبارية العالية استخرجت ما في الضمائر وعلمتهم ايثار المصلحة العليا على حب المال الذي هو قطعة من الكبد.

وقد أظهر الاختبار أن المسلمين البدريين المتنازعين لم تطغ عليهم المادة فنسوها حين أنزل الله أن الأنفال لله وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى وقد بين جل وعلا

---

(١) سيرة بن هشام ج٢ ص /٢٩٩

مصارفها في قوله:

(واعلموا أنما غنتم من شيء فان لله خمسه وللرسول) الآية

ويصور لنا ما عليه المنتزع منهم الغنائم من نفسية منطاعة أنهم جادوا بها ونفوسهم راضية.

عن سعد بن أبي وقاص قال:

لما كان يوم بدر قتل أخي عمير بن أبي وقاص - الذي قتل وهو ابن ست عشرة سنة، وقتلت سعيد بن العاص فأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكيفة فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اطرحه في القبض - وهو بالتحريك بمعنى المقبوض فطرحته.

قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه الا الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت الا قريبا حتى نزلت سورة الأنفال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فخذ سيفك[1].

اختبر النبي صلى الله عليه وسلم سعدا بالجود بالمال فطاع رضي الله عنه بسيفه الذي غنمه فظهر بذلك أن هذا الضمير النقي لا يؤثر على طاعة الله ورسوله شيئا وان عز عليه.

اختبار ثالث للعقول:

جمعت غزوة بدر اختبارات متعددة منها ما تقدم من

---

(١) اسباب النزول للواحدى ص/٢٢٧

اختبار الضمائر في الجود بالنفس ,والجود بالمال.

ومنها اختبار العقول وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل أدنى ماء من بدر فقال الحباب بن المنذر: وكان يقال له: ذو الرأي:

يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة!؟

فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال: يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم: فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضا على القلب الذي نزل عليه فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

ان في نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم استفادة أمرين:الأول هو اختبارهم هل ينتبهون الى موقعهم الحربي

وصلاحيته وما يتطلبه من الحذر والأخذ بالحيطة فكان هذا الاختبار مجديا حيث عرف أنهم متنبهون حريصون على الحيطة وحذرون. والثاني تعويد لهم على الشورى واختبار لعقولهم وانما كان هذا تعويدا لهم لأنه اذا أخذ بها من يتلقى الوحي من لدن حكيم عليم، فكيف بغيره فهم ملزمون بالأخذ بها، حتى يختمر الرأي وتجلى الحقيقة الناصعة.

اختبار العزائم في غزوة أحد

بجانب غزوة بدر غزوة أخرى هي مثيلتها في الاختبار وهي غزوة أحد ولكنه اختبار من نوع آخر أشد وأقوى، وهو اختبار العزائم الصادقة من العزائم الخوارة فان حال السعة تستوي فيه العزائم ولا يفوق بعضها بعضا، وانما تظهر القيم وتختلف الرجال حين يحزب الأمر وتستحكم الشدة.

ان هذه الغزوة أظهرت الثابتين من غيرهم، فانها جاءت بعد تمن من بعض المسلمين لقاء العدو، فانه لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر مسير قريش الى المدينة في ثلاثة ألاف رجل فيهم سبعمائة دارع... وثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم المكث في المدينة وقال لأصحابه: امكثوا فان دخل القوم

الأزقة قاتلناهم، ورموا من فوق البيوت، وقال الذين تمنوا لقاء العدو وأسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر: يا رسول الله كنا نتمنى هذا اليوم اخرج بنا الى أعدائنا لا يرون انا جبنا عنهم.

فاستجاب لرغبتهم فصلى بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمر بالجد والاجتهاد.. وأخبرهم أن النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بذلك... فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله استكر هناك هناك ولم يكن لنا ذلك، فان شئت فاقعد صلى الله عليك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يقاتل، وهذا تنبيه منه على عدم انثناء العزيمة لان عزيمة الأنبياء عزيمة صادقة، فلهذا لم يطاوعهم في البقاء بالمدينة ونزع لأمته اشعار لهم بأن يكونوا على سيرته فلا يقعدوا عن الجهاد، وان يواصلوا الذي خرجوا من أجله.

وأظهرت هذا الغزوة في أولى خطواتها الانخزال من الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون وقد تعلل رأسهم بعلة لا تقبل وهي مخالفة رأيه حيث أشار بالبقاء في المدينة فقد انخزل أي انقطع عن جيش المسلمين -عبد الله بن أبي بن

سلول بثلث الناس فبقي النبي صلى الله عليه وسلم في سبعمائة اذ كان عددهم ألفا، **وقال**: أطاعهم **وعصاني**، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟

فرجع بمن اتبعه من قومه للنفاق والريب.

واتبعه عبد الله بن عمرو بن حرام يريد أن يرجعهم الى الجادة ويذكرهم بالله حتى لا ينخذل المسلمون قائلا لهم:

اذكركم الله الا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم **فقالوا**: لو نعلم أنكم تقاتلون لما **أسلمناكم**، ولكن لا نرى أنه يكون قتال.

فلما استعصوا عليه وأبوا الا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه[1].

اتضح في هذا الموقف أن عبد الله بن أبي بن سلول ممن يخذل الاسلام فلا اعتماد عليه وان كان رسول الله غض الطرف عنه وعن أمثاله من المنافقين... لئلا يحدث بلبلة في العقول فيدعي المدعون أنه يقتل أصحابه لأن الأخبار تنتقل على غير وجهها فيذكرون قتلهم، ويغفلون الأسباب فتبقى مجهولة.

ثم جاء دور اختبار العزائم الاختبار الشديد، حتى

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص/٦٨

ينجلي ما هو الموقف لكل أحد حين يشتد الأمر على المسلمين وتنالهم الهزيمة بعد نصر وقعة بدر ، وهم قد تعودوا النصر ولم يتعودوا تلقي الهزيمة فلا بد من اختبار عندها. وغزوة أحد كانت أولا للمسلمين فان الله أنزل نصره عليهم وصدق وعده فحسوهم بالسيوف فكانت هزيمة المشركين لا شك فيها حتى أن نساءهم اللاتي جاءوا بهن تقوية لنفوسهم ولين هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير.

ثم انقلب الأمر وأتى المسلمون من قبل مخالفة بعض الرماة الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم حماية لظهور المسلمين فانه لما مالت الرماة الى المعسكر حين نزلوا من مواقفهم وخالف هؤلاء البعض ما أمرهم رسول الله ، ولم يلتفتوا لما قاله لهم أميرهم عبد الله بن جبير ، انسبتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما نزل هؤلاء ولم يبق الا قلة أتي المسلمون من خلف فقد نظر خالد بن الوليد - وهو آنذاك لم يزل مشركا - الى الجبل وقلة أهله فكر بالخيل فتبعه عكرمة بن أبي جهل وقد أسلم عكرمة عام الفتح فحملوا على من بقي من المسلمين فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير وقد انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ... قال ابن اسحاق:

وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدث - أي أصيب بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه الشريف، وكلمت شفته.

وقد بلبل صراخ ابن قميئة الذي قتل مصعب بن عمير وهو يقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فظنه الرسول فصرخ بأن محمدا قتل فصاح بما ظنه. وقال قائل: أن عباد الله أخراكم - أي احترزوا من جهة اخراكم فزادت البلبلة فعطف المسلمون لقتل بعضهم بعضا: وهم لا يشعرون وانهزمت طائفة الى المدينة وتفرق سائرهم ووقع فيهم القتل[1].

فهؤلاء هم الذين أظهر الاختبار أن عزائمهم ليست عزائم ثابتة تتمكن من زمام نفسها فتضع حدا للخوف والفرار، وانما هي نفوس تفرق حين الشدة وتضعف حين لا ترى النصر فهؤلاء لا بد لهم من تربية خاصة، وتفريغ الهي حتى لا يبقوا على ما هم عليه بل لا بد من التغلب على الخوف ولا بد لهم من قوة تدفعهم الى عدم اللجوء الى الفرار، ولو بدا لهم الأفق متجهما.

---

(١) اختصار المواهب للنبهاني ص/٧٤

ويقابل هؤلاء أهل الثبات وفي طليعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة فانه يشجع حين يجبن الناس ويقوي العزائم حين تضعف في كل موقف فانه ثبت مع ثلة من اصحابه منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي ابن أبي طالب.

ومن هؤلاء الثابتين زياد بن السكن ونفر من الأنصار فانهم حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غشيه القوم: من رجل يشري لنا نفسه؟ قاموا وقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقتلون دونه حتى آخرهم زيادابن السكن.

المساهمة النسائية:

وحتى النساء ساهمن في الثبات فهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب خرجت تنظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء فانتهت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والدولة والريح للمسلمين.

فلما آنهزم المسلمون انحازت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت وباشرت القتال وذبت عنه بالسيف ورمت عن القوس حتى خلصت اليها الجراح أصباها ابن قميئة فترك بها

جرحا على عاتقها أجوف له غور[١].

ومن المواقف المشرفة التي وقفتها النساء ما جاء في سيرة ابن هشام ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين.

قالت أرونيه حتى أنظر اليه

حتى اذا رأته قالت كل مصيبة بعده جلل تريد صغيرة.

يتجلى من هذا أن الاسلام يزن للمواقف الرجال فلا يقدم على موقف حتى يكون رجاله في قدرة وتفان للقيام بما يضطلعون به علاوة على الاستعداد المادي.

وأعدوا لهم ما استطعتم، فهو في سائر خطواته يعتني بالمادة والروح لا يهمل منها شيئا فقد قال ﷺ لخالد بن الوليد حاربهم بمثل ما يحاربونك به، ويدخل في هذا كله وسائل الاستعداد.

التربية النبوية وعلم النفس.

سبقت التربية النبوية ما استجد من علم النفس الذي

---

(١) السيرة ج ٣ ص/٨٦

انبنى عليه علم التربية فهو من التربية بمنزلة الروح من الجسد فاذا ما خلت عنه أصبحت غير ذات جدوى، فالمربي الذي لا معرفة له بنفسية من يتولى تربيتهم يكون معهم في بعد شاسع فهم في واد وهو في آخر لا لقاء بينه وبينهم.

ومن أجل عدم العناية بعلم النفس في العصور التي كلكل الجهل فيها على العالم الاسلامي انحطت التربية، وكان المربون لا يعتمدون على شيء في تربيتهم غير العقاب فقصروا عليه همهم فهم بين أمرين إما تنفيذ العقاب وإما التخويف بالعقاب.

فالعقاب هو الوسيلة الوحيدة في المجتمعات القريبة من عصرنا الحاضر فالمربي يرى أن الناشئة بين يديه لا يستقيم أمرها الا بالعقاب، والذين يتولون تسيير دفة الأمور قصروا أمرهم على العقاب فالكل لا يولي معرفة النفسيات اهتماما، ومن أجل ذلك تقهقر الشرق وتسلط عليه كابوس الخوف الذريع مع أن الاسلام أعطى لكل حال ما يناسبها فإنه لم يهمل علم النفس سواء كان فرديا أو اجتماعيا.

مع أنه أعطى النفسيات البعيدة عن تفهم المعنى من التعايش الاجتماعي ما يناسبهم من التخويف بالعقاب حتى تقصر أيديهم عن مصرة المجتمع.

فمن جوانب مراعاة علم النفس ما أخبرنا به الحديث النبوي المروي في صحيح البخاري تحت عنوان:

باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، روى البخاري فيه حديثين: الأول حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا.

والثاني عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا.

والحديث الأول كما أخرجه البخاري أخرجه مسلم في صحيحه في باب الاقتصاد في الموعظة.

فهو حديث اتفق عليه الشيخان.

وأخرجه مسلم بثلاث روايات بتسعة أسانيد[١] يظهر تعدد أسانيد رواياته عناية العلماء به فهو حديث محل عناية لما أحسوا فيه من تعمقه في تفهم النفسية الأنسانية.

ولهذا كان راويه عن النبي ﷺ عبد الله بن مسعود عاملا به كما جاء في رواية مسلم وهي:

عن شقيق[٢] قال:

---

(١) انظر صحيح مسلم ج٤ ص ٢١٦. ٢١٧٣

(٢) هو شقيق بن سلمة وهو أعلم من أهل الكوفة بحديث عبد الله بن مسعود ويقول =

كنا جلوسا عند عبد الله ننتظره: فمر بنا يزيد بن معاوية النخعي[1] فقلنا أعلمه بمكاننا.

فدخل عليه فلم يلبث أن خرج علينا عبد الله فقال: إني أخبر بمكانكم فما يمنعني أن اخرج إليكم الا كراهية أن أملكم إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة علينا.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان اتخذ سنة رسول الله ﷺ ديدنا في وعظه للناس مراعيا ما راعاه الوعظ الأول.

ومعنى التخول هو التعهد من قولهم خال على شيء خولا اذا تعهده ويقال خال المال اذا ساسه، وأحسن القيام عليه.

ولأبي عمر الشيباني في رواية هذا الحديث أن الصواب فيها يتحولنا بالحاء المهملة أي يطلب أحوالهم التي ينشطون فيها للموعظة ولا يكثر عليهم فيملوا لكن الصواب في الرواية يتخولنا بالخاء المعجمة.

= فيه ابن معين: ثقة لا يسأل عن مثله مات بعد الجماجم سنة (٨١) كما ذكره خليفة بن خياط التهذيب ج٤ ص/٣٦١.

(١) يزيد بن معاوية النخعي العابد قتل غازيا بفارس (التهذيب ج١١ ص/٣٦٠).

يعلل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن التخول بالموعظة من النبي ﷺ إنما ذلك من أجل مخافة السآمة وهو أمر مقصود لاشك فيه فإن الإكثار من الشيء ولو كان نافعا يعود الى الضد.

فارهاق الطفل بالتربية يؤول به الى النفرة منها، كما هو مشاهد في المدنية الحديثة اليوم فإن النفرة منها نتاج التوغل فيها فالطفل الذي لا يرى من أبويه ومن مجتمعه الا التوغل في المدنية يملها فما يراه من التعمق فيها آل به الى ما نراه في الشباب من نبذ الترفه، والانغماس في الأوساخ بسبب أن النفس اذا أكثرت عليها من الشيء تعافه وتكرهه وتود غيره ولو كان انحطاطا(١)

ومن هنا جاء التوسط في الاسلام وهو الاقتصاد كما نطق به كتاب الله سبحانه وتعالى في قوله:

(ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (٢٩ الاسراء).

ان التوسط في الانفاق من أهم قواعد الاقتصاد اذ يمكن بواسطته اعتدال ميزان الحياة لأن الإمساك المعبر هنا بجعل اليد مغلولة الى العنق لا تستقيم معه الحياة، ولا يتمكن

---

(١) وقد بلغ الحال ببعضهم الى الانتحار الجماعي.

صاحبه من العيش لأنه بتقتيره على نفسه تتداعى صحته وكما لا يمكن له في ذاته أن يحيا حياة مستقمية كذلك لا يمكن له أن ينشىء وسطا عائليا لاستلزام العائلة مطالب لابد من توفيرها فإذا لم تتوفر فإما أن تنقرض العائلة أو يسد باب الوجود العائلي، أو تنشأ العائلة محرومة من كل وسائل التكوين في القوت والتربية واللباس وغير ذلك فهي إما أن تنهار جسميا وإما أن تنشأ عائلة فاقدة لكل المقومات الأخلاقية بل بسائط الروابط الانسانية.

وكذلك الإسراف فمضاره لا تقل عن مضار التقتير، بل هي أشد منها مؤادها الانهيار الجسمي بسبب الإسراف في الشهوات مهما كان نوعها، وأياً كانت هذه الشهوات فآثار الإسراف في العائلات والمجتمعات أسوأ آثار وأشدها فسادا.

وناهيك بالأمم المنقرضة فإن سبب دمارها وانهيارها وتلاشيها الترف البالغ المؤدي الى أردأ الحالات كما قال تعالى:

(واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١٦ .. الاسراء).

ومعنى أمرنا مترفيها كثرنا المترفين المنعمين، والترف

مدعاة للخروج عن أمر الله تعالى والابتعاد عن طاعته جل وعلا.

فالتوسط هو الذي يمكن بواسطته مواصلة سير الحياة أما الطرفان التقتير والإسراف فموقعان في نهاية، وهي ايقاف السير الانساني.

فالمدنية الحديثة تقاسي اليوم جنوح أفرادها الى الإغراق في التنعم مما أدى بشبابها الى تلك الحال المشار اليها آنفا.

وهو ما تخوفه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب.

حدثت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول:

لا اله الا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه[١] الابهام والتي يليها.

قالت زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: نعم اذا كثر الخبث.

رواه الشيخان في صحيحيهما.

---

(١) هذه رواية للبخاري والذي اتفق عليه الشيخان باصبعه الافراد.

التخول الضروري:

ويحتمل تخوله صلى الله عليه وسلم بالموعظة معنى آخر قريبا جدا وهو إنما لم يواصل موعظته وجعلها في أيام دون أخرى، لأن في المواصلة مضرة لأن الدماغ في حاجة الى الراحة والغذاء لايقاف الهدم الفكري.

يذكر علماء النفس أن هناك فضلات صغيرة في أوقات الاشتغال بالأعمال الفكرية تتساقط وتجتمع في مادته العصبية وتسمها.

فاذا أطال أمد الاشتغال كثرت هذه الفضلات ووصل السم الى حال لا يقدر معها المخ على القيام بأعماله فاذا أريد إرجاع قوته اليه، وجب في الحال ايقاف ما يحدث فيه من الهدم، وإزالة ما تجمع فيه من الفضلات السامة وتعويض ما فقده من مادته.

أما إيقاف الهدم فانما يكون بالراحة التامة واضراب عن العمل فترة من الزمن وأما الأمران الآخران فلا وسيلة لهما الا الدم الذي يأتي من القلب، وينصب في المخ، فيكتسح جميع ما فيه من الفضلات ويغذيه بما أتى به من المواد الصالحة لتكوين الأنسجة العصبية، ولا يخفى أنه كلما كان الدم نقيا قويا كان أقدر على القيام بهذا العمل ومن ذلك

نرى الانسان لا يقوى على أعماله الفكرية الا اذا أخذ حظه من الهواء النقي والطعام الجيد.

والراحة الكافية[1]

فالراحة الفكرية التي وضح علم النفس ضروريتها وتأكدها في استمرار العمل الفكري نبهنا صلى الله عليه وسلم عليها وأراها للصحابة عمليا.

ولم يهملها الصحابة فأخذوا بها، ولذلك كان عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه لا يخرج لأصحابه كل مرة محافظة على هذه الراحة الفكرية وقد نظم لهم يوما خاصا كما ورد في صحيح البخاري في باب من جعل لأهل العلم أياما معلومة.

عن أبي وائل شقيق قال:

كان عبد الله رضي الله عنه يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل:

يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم.

قال:

أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وأني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها

---

(١) علم النفس وآثاره في التربية والتعليم للجارم وأمين ص/٣١

مخافة السآمة علينا[1] .

وانتهج النهج النبوي في تخصيص أيام للدراسة علماء المسلمين ونظفر بهذا في آمالي أبي علي القالي .

فإنه حين دخل الأندلس اتبع سنة عبد الله بن مسعود فأخذ يوم الخميس لإملاء كتابه المعروف بالأمالي حسبما جاء في أوله .

فأمللت هذا الكتاب - أي كتاب الأمالي - من حفظي في الأخمسة من قرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة[2]

ان ما ذكرنا هنا وإن كان غير ما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه كما يبدو الا أنه لا ينافيه لأنه في الحقيقة تحصيل له علمي مبني على ما ذكر .

التربية القولية المركزة على علم النفس:

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بالتربية المركزة على علم النفس التي هي من قبيل التربية الفعلية حتى أضاف اليها قوله ارشادا وهداية لكي يحافظ الناس على الفكر منبع استقامة الحياة فجاء عنه كما في الحديث الثاني المورد في باب

---

(١) البخاري (ج١ ص/٤٦)

(٢) الأمالي ج١ ص/٣

التخول بالموعظة وهو:

(يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)

فالحديث ينهج منهج التلطف في التربية والتعليم دون القسوة المرتكبة من بعض رجال التربية والتعليم الذين يرون أنها الوسيلة الوحيدة لنفع النشء.

كيف نراها كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه ينادي بخلاف ذلك فكلما رأى من بعض الصحابة ما ينفر أمرهم بالتيسير وتأكيداً لذلك نهاهم عن التعسير، وأمرهم بالتبشير وهو ادخال السرور على الناس.

وأمر بالتيسير لينشط الفكر ويعمل بدون كلل، وهو ما سلف من أن إراحة الفكر لا معدل عنها وهي الطريق الأقوم لاستقامة الفكر.

التربية النبوية من أهم مصادر علم النفس

تشتمل التربية النبوية على الكثير مما هو من أهم مسائل علم النفس، ولو تتبع الباحث المتعمق الأحاديث لوجد أن علم النفس في أصوله، منبعه الأحاديث كما وقع توضيح بعضه في هذه الكلمة.

لكن الأغلبية ممن ألفوا في علم النفس وخاصة المداخل فيه نراهم يذكرون مثلا أن أفلاطون يرى عندما تهبط

النفس من عالم المثل الى العالم المادي لتحتل الجسم ينشأ منها ثلاث نفوس النفس العاقلة والغضبية والشهوانية.

وما يقابله من علم النفس الحديث أن النفس العاقلة يقابلها النواحي الادراكية، والنفس الشهوانية يقابلها النواحي الوجدانية، والنفس الغضبية يقابلها النواحي النزوعية.

هذا ما يذكره صاحب كتاب مدخل علم النفس وهو الدكتور محمد خليفة بركات وهو لاشك متأثر بما كتبه علماء النفس من الغربيين المتأثرين بالفلسفة اليونانية مع أن ما ذكره أفلاطون يطفح به الاسلام ففي الحديث المصدر الثري نجد فيه مالا يذكر أمامه أفلاطون من تقسيم للنفس مما هو أحكم وأدق ومما هو جدير ببحث خاص وأنما نجتزىء باشارة عابرة تدل على أن الحديث النبوي أشار الى هذا التقسيم، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما إشارة الى النفس الشهوانية. ثلاث مهلكات... فأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه. فالنفس الشهوانية قسمها الحديث مدققا حيث جعلها في ثلاث دوائر الذائرة الأولى الشح الذي تدعو اليه النفس الشهوانية للاتساع في شهواتها.

الدائرة الثانية الهوى المتبع وهو قطب النفس الشهوانية فالنفس المنغمسة في الشهوانية منقادة بحسب الهوى، فالهوى المحرك هو النفس الشهوانية.

الدائرة الثالثة من النفس الشهوانية الغرور النفسي فإن منشأه ما تحبه النفس وتشتهيه من التعاظم والتعالي حتى يصبح المغتر بنفسه المعجب بها لا يرى لنفسه عيبا، ويحمل محاملها كلها على أنها الخير كله فلا محيد عنها ولو كانت لا تحمل في طياتها الا الشر الصرف.

ومصيبة إعجاب المرء بنفسه في الهلاك تصل إلى الحد الأقصى اذا كان المعجب بنفسه من ذوي السلطان فإنه علاوة على اغتراره بنفسه هناك المزيفون المزينون للباطل الذين يبذلون كل جهد لهم في الوصول الى تصوير الباطل حقا والخطأ صوابا لذي السلطان توصلا لأغراضهم وبلوغا لأهدافهم.

والنفس الغضبية أشار الحديث النبوي بالنهي عنها كما ورد عن جارية بن قدامة السعدي قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني

قال: لا تغضب

فردد عليه مرارا

قال: لا تغضب

قال جارية: ففكرت فاذا الغضب يجمع الشر كله.

أخرجه أحمد والحاكم عن جارية كما ذكر.

فالنفس الغضبية التي قسم النفس اليها أفلاطون هي نفس الشر، فالشر مبعثه الغضب فحين ننظر الى هذا الحديث نجد أن أفلاطون لم ينفرد بهذا التقسيم فهذان القسمان اللذان أشار اليهما كانت إشارة الحديث اليهما أعمق حيث أشار الى السبب الحقيقي في تكوين كل نفس منهما مع أنه اظهرهما في مظهر تربوي تستيغه العقول، وتقبل عليه النفوس فلم تكن الاشارة جافة بعيدة عن المعنى التربوي حتى تكون محل نظر، بل جاءت في صور لا تدع للشك محلا.

من مميزات التربية النبوية:

إن الخصائص في التربية النبوية ذات جوانب متعددة مختلفة في ملاءمة الظروف الانسانية، فما يظنه... الظانون من أنه من مشكل الحديث النبوي حين يرون بعضاً من الأحاديث يتبادر منها أنها متباينة فيما بينها مع أنها لا تباين بينها وإنما بعض من تلك الأحاديث توجيه لبعض الإنسانية والبعض الآخر توجيه لآخرين.

فالتربية النبوية آخذة مأخذ بلاغة القول فكما لكل مقام مقال، كذلك لكل صنف من الناس ما يخصه من التربية.

وبهذه المراعاة استطاعت التربية النبوية أن تأخذ بأيدي أمم مختلفة وتجمعها في صعيد واحد وهو ما عجزت عنه المدنية الحديثة، فهي رغم ما جندته من مؤسسات لتجمع الأمم في صعيد واحد لم تستطع أن تصنع، مع أن الاسلام حقق ذلك في أوقات لم تتمتع فيها الانسانية بوسائل التبليغ الموجودة اليوم.

(وألف بين قلوبهم لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ٦٣ - الانفال).

والاسلام بتربيته التي استطاعت أن تؤلف بين القلوب المتنافرة فيما مضى، هو اليوم في استطاعته أن يؤلف بينهما حاضرا ومستقبلا، إنه الدين القويم والصراط المستقيم....



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

تصور لتدريس سيرة النبي ﷺ
في
مناهج التاريخ المدرسية

للدكتور سر الختم عثمان علي
« السودان »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع الدراسة

تصور لتدريس سيرة النبي ﷺ

في مناهج التاريخ المدرسية

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة تصورا لتدريس سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في مناهج التاريخ المدرسية. ولقد تبلورت الفكرة من خلال ملاحظاتي للطرائق التي تستخدمها أغلبية المعلمين في تدريس السيرة في مراحل التعليم العام. وبالاضافة الى تلك الملاحظات فهنالك الدراسة التي قمت بها لبعض المواد والوسائل التعليمية التي يستعين بها المعلمون في تدريس هذا الموضوع الحيوي - هذا الى أنني أطلعت على بعض الدراسات القيمة عن السيرة النبوية والتي قام بها نفر من خيرة المفكرين المسلمين في هذا العصر.

ولقد اتضح لي من الملاحظات والدراسات أن تدريس السيرة في حاجة ماسة الى دراسات جادة تعنى بوسائل وأساليب تحسين تدريسها، ومن ثم تجعل هذا الموضوع الحيوي يؤدي

وظيفته الطبيعية في التربية السوية لناشئة الاسلام وشبابه، وهذا لا يتحقق الا اذا أقلع أغلبية المعلمين عن تدريسهم الحالي.. والقائم على العناية بالمعلومات والتركيز على تحفيظها للطلاب دون الاهتمام الكافي بغرس القيم والمفاهيم الرئيسية في نفوس هؤلاء الطلاب.

واذا كانت الجوانب التعليمية تعد مصدرا هاما لهذه الدراسة، فإن الاعتبارات الروحية تمثل دافعا قويا لها. ذلك أن للسيرة - كما أشرت - وظيفة أساسية في تربية الناشئة والشاب المسلم. وهذا يتطلب دون شك العناية الكبيرة بالمناهج التربوية للسيرة بالاضافة الى طرقها وأساليبها التعليمية. ولقد نوه كثير من المفكرين والمربين المسلمين بالدور الحيوي الذي تؤديه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية أطفال المسلمين وشبابهم. كما وأكد أولئك المربون أيضا على العناية بتدريس السيرة، فقال بعضهم في هذا الصدد: «ولا أعني من كتب السيرة هذه الفهارس العقيمة التي وضعت للطلبة، وطلب منهم حفظها، ولا تشتمل الا على النسب والاعداد وأسماء الغزوات والحوادث المهمة، وإنما أعني كتب السيرة التي تملأ القلب مهابة وجلالا ومحبة وايمانا، فينبغي أن لا يخلو معظم

الفصول من درس مؤثر في السيرة[1] ».

أما فيما يتعلق بمحتوى الدراسة، فقد بدأتها بتحديد أهداف تدريس السيرة، ثم شرحت أهمية تحديد الأهداف وتفصيلها وذلك من حيث أن ذلك يساعد في تنويع طرق التدريس واختيار الوسائل والادوات التعليمية الملائمة وهذا الأسلوب يساعد دون شك في جعل المادة مشوقة ومحببة للطالب.

كذلك تناولت الدراسة بالنقد الطرق المستخدمة حاليا في تدريس السيرة، كما اقترحت الدراسة طرقا أخرى للتدريس، في اعتقادي أنها أكثر فاعلية، وقد أوضحت خصائص هذه الطرق - وقد أشرت الى أن هذه الخصائص الرئيسية مستمدة من الأسلوب التعليمي الرائع الذي جاء به القرآن الكريم - هذا وقد أعطيت أمثلة عن هذه الطرق وذلك من خلال بعض خطط الدروس النموذجية في كل مرحلة من المراحل التعليمية.

ولما كانت الطرق التعليمية في حاجة الى وسائل وأدوات تعين على شرح موضوعاتها، فقد خصصت جانبا من

---

(١) أبو الحسن الندوي: نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية ٨

هذه الدراسة للموارد والمصادر التعليمية التي يمكن أن يستخدمها المدرس لتحسين أدائه في تدريس السيرة - ولقد أعطيت تعريفا للمصادر والموارد التعليمية - كما أوردت أمثلة عنها - كما أعطيت نماذج لما يلائم منها كل مرحلة تعليمية، ولقد توخيت أن تكون هذه الموارد والمصادر متسمة بالتنوع وملائمة مرحلة النمو. هذا الى أنني اقترحت أيضا ما رأيته مفيدا للمعلم الذي عليه أن يثرى ويغني الموقف التعليمي.

واذا كان تحديد الأهداف، وتنويع الطرق التعليمية، وشراء الموارد ينهض بدور جوهري في ترقية العملية التعليمية. ولهذا فقد اقترحت هذه الدراسة بعض الخصائص التي تجعل معلم السيرة ناجحا وبناء. ولقد اشتملت الخصائص على الجوانب العلمية والتربوية في إعداد هذا المعلم.

هذا وقد ذيلت الدراسة بثبت للمصادر والمراجع التي استعنت بها في هذه الدراسة.

وأرجو أن أكون قد وفقت في تكوين هذا التصور لتدريس السيرة وذلك بالدرجة التي تليق بجلالها وقيمها.

والله المستعان

أهداف تدريس سيرة الرسول ﷺ

أهمية تحديد أهداف السيرة:

إن تحديد الأهداف ووضوحها من الأمور التي تحتاج الى عناية كبيرة بالنسبة لتدريس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في مناهج التاريخ المدرسية، فلا يزال كثير من المدرسين الذين يقومون بتدريس السيرة يعتبرون أن واجبهم الأساسي في هذا المجال هو أن يقصوا على الطلاب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ مولده حتى التحاقه بالرفيق الأعلى. ولا يبدو أن هنالك اهتماما واضحا بإبراز القيم والمبادىء والمثل العليا التي تمثل جوهر هذه السيرة.

والذين درسوا السيرة بعمق، وتدربوا على تدريسها بهذا المستوى، يعرفون أن السيرة هي منهاج تربوي كامل، وهي مصدر غني بأساليب التنشئة الصالحة. وأبناء المسلمين في هذا العصر هم أحوج ما يكونوا الى هذه النمط من التربية، فقد أصبح هؤلاء الأبناء والبنات (من أطفال وشباب) يتعرضون في تربيتهم وتعليمهم لتأثيرات معينة للأفكار والممارسات التي لا يقرها الاسلام.

وإزاء هذه التأثيرات التي تضر بتربية أبنائنا وبناتنا، يصبح الواجب على مخططي المناهج المدرسية في البلاد

الاسلاميـة أن يفكروا في الطرق الرفيعة، فهي تربية مقدسة، رزقنا بها الله سبحانه وتعالى - وجاء القرآن الكريم مبينا هذا المفهوم بوضوح تام، حيث قال الله سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم: «وإنك لعلى خلق عظيم»[1]

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقال صلى الله عليه وسلم: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان خلقه القرآن».

وتحدث عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم أحد الكتـاب في هذا العصر فقال: «وحقا تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم، فالصدق والبر ومعرفة الواجب وأداؤه والحلم والحياء والصبر والشجاعة والعزة والتواضع والعفة والوفاء، كل أولئك بعض صفاته البارزة التي قربته الى القلوب وتعلق الناس به»[2]

على أن هذا المنهج التربوي الذي نبتغيه من تدريس السيرة، لا يمكن تحقيقه الا إذا عنينا بتحديد أهداف

---

(١) سورة القلم الآية «٤».

(٢) عبد الرحمن عزام - الرسالة الخالدة ص/ ٦١.

تدريس السيرة تحديدا واضحا، بحيث تبرز هذه الأهداف أنماط السلوك الذي نود أن نغرسه في الناشئة والشباب وهم الذين يتلقون مقرر السيرة في مدارسهم كطلاب اليوم، وأن يعملوا بهديه، سواء في مرحلة الدراسة، أو حينما يصيرون رجالا في الغد.

واذا كان هنالك من يرى أن لمقرر السيرة المدرسي أهداف موضوعة، ومع اتفاقي مع هذا الرأي، الا أنه في تصوري أن أوجه القصور في تدريس الموضوع، يرجع الى عدم تحديد الأهداف ووضوحها أمام ناظري المعلمين والطلاب، وأعتقد أننا متفقون في أن وجهة النظر التربوية تؤكد على أهمية تحديد الأهداف ووضوحها، باعتبار أن ذلك أمر أساسي لنجاح العملية التعليمية.

فبدون تحديد الأهداف ووضوحها، سيظل تدريس السيرة قائما على حفظ الطلاب للمعلومات واستظهارها وذلك دون أن يفكروا ويتدبروا المعاني السامية والقيم والمبادىء الفاضلة التي تتمثل في السيرة المطهرة، ليس هذا فحسب بل إن نمو شخصية الطالب وفق تلك المبادىء والقيم لن يتم بالصورة المرتجاة، وبمعنى آخر سيظل التركيز على الحصول على المعلومات دون استنباط المبادىء والقيم من هذه

المعلومات - وبالتالي يخرج الطالب من دراسة مقرر السيرة بمعلومات متناثرة لا يربطها مفهوم أو تجمع بينها مبادىء مشتركة، علما بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث ليربي الأمة تربية متكاملة وذلك كما جاء في قوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)[1]

وإذا أمعن المربون النظر في السيرة لوجدوها زاخرة وعامرة بالقيم الإنسانية والمفاهيم والمبادىء السامية، وإذا حرص المربون على أن يكون تدريس السيرة عملية بناءة مثمرة (وليس حفظ معلومات) فلا بد أن يعملوا على صياغة السيرة من تلك المبادىء والمفاهيم والقيم، ولن يكون هذا الاسلوب نافعا من الناحية التربوية أي تحقيق التربية السوية - بل سيكون أيضا أسلوبا مفيدا من الناحية التعليميـة، ذلك أن تحديد الأهداف في إطار معلوم، سيجعل المدرس يسعى لتحسين طرق التدريس وتنويع الوسائل والأدوات لدراستها والاستفادة منها وبالتالي ينمو إحساس الطالب بأهمية هذه الدراسة له في تعليمه وفي

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢

حياته. وهذا ما نرتجيه من دراسة السيرة والدراسات الاسلامية عامة.

لهذا فإن الإطار الذي تصورته لأهداف السيرة أن تكون دراستها قائمة على مفهوم القدوة الحسنة. وهو المفهوم الذي جاء في قول الله سبحانه وتعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا»[١].

واذا كانت القدوة الحسنة، ستكون الهدف العام للسيرة، فإنه في ضوء هذا الإطار ستكون الأهداف التفصيلية للسيرة، وهذه الأهداف هي التي سيسير المعلم في ضوئها في تدريسه في الفصل، وكما أشرت سابقا فإن تحديد الأهداف ووضوحها يساعد على التدريس والتعليم بصورة فعالة، كما أنه يعين على اليقين من بلوغ الطلاب للأهداف المرتجاة.

الهدف العام لتدريس السيرة: الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا بد أن يكون الهدف من تدريس السيرة في كل مرحلة من مراحل التعليم الى جعل الطلاب يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم ويتخذونه مثلهم الأعلى - كما أن ما

---

(١) سورة الأحزاب. الآية: ٢١.

يتعلمه هؤلاء الطلاب من صفات ومزايا الرسول صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يغير من سلوك الطلاب وأن يصبح عنصرا أساسيا في تنمية وبناء شخصيات هؤلاء الناشئة والشباب.

وإنني أجد نفسي - بدافع الحرص على مستقبل أبنائنا وبناتنا - أكرر ما أشرت اليه سابقا من أن نظمنا التربوية يجب الا تترك مجالا لهؤلاء الأبناء كي يستمدوا قيمهم من الثقافات والحضارات التي تجافي الاسلام وتنافيه، فالنظم المعادية لديننا الحنيف تعمل على بث فكرها السام من خلال مؤسساتها التعليمية ووسائلها الاعلامية.

على أن محاولات الغرب والشرق للتأثير على فكر وخلق أطفال المسلمين وشبابهم لن تجدي فتيلا اذا واجهها المربون المسلمون بما رزقهم الله به من فكر قرآني أزلي.. فلقد تمثل هذا الفكر في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان القدوة والأسوة، وكما يقول أحد الكتاب المسلمين «ووضع في شخصه صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للمنهج الاسلامي، والصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.. رجل سياسة يشيد أمة من الفئات المتناثرة، فاذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في

التاريخ ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وجهده ما يشغل وجوه حياة كاملة، ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر كقائد متخصص كل همه القتال، متفرغا له.. وأب وزوج ورب أسرة كبيرة.. وصديق وقريب وصاحب للناس تشغله همومهم وتملأ نفسه مشاعرهم. ويقودهم ويزورهم ويمنحهم من مودته وعطفه ما يشغل رجلا إنساني القلب، يهب حياته كلها لشئون الناس... وعابد متحنث لربه كرجل منقطع للعبادة، متخصص لأدائها لا تصله بالأرض رابطة ولا يشغله هم من الهموم ولا تجيش في نفسه نوازع ولا تتحرك في نفسه رغبات[1].

وعندما نشير للقدوة كهدف عام لتدريس السيرة في مختلف مراحل التعليم العام فإنما نود أن يتسع ويتعمق الهدف في كل مرحلة من هذه المراحل، على أن الجهد لتحقيق هذا الهدف لابد أن يتضاعف في المراحل التعليمية التي يبلغ فيها الشباب مرحلة المراهقة، اذ أنه في هذه المرحلة من النمو يتطلع الطلاب بدرجة كبيرة الى القوة وتشير بعض الدراسات النفسية أن المراهق يكون في حاجة

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية ص/ ٢٢٢.

الى من يساعده على تحقيق الاتزان في حياته النفسية بين القوة الجارفة في انفعالاته وبين النقص الملموس في قدرته الضابطة التي تتحكم في هذه الدوافع. وتخلص هذه الدراسة النفسية من ذلك الى أهمية وجود القدوة الصالحة بالنسبة للمراهق»[١] وبالنسبة لهؤلاء الطلاب ينبغي أن يجدوا القدوة الفاضلة في مدرسيهم في المدرسة وفي آبائهم في الاسرة وكلا المدرس والأب المسلمين، ينبغي أن يستمدا قدوتها من سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم.

ولقد أشار بعض المربين الى أهداف السيرة فذكروا أنها وسيلة لفهم الاسلام وفي هذا الصدد يقول هؤلاء المربون:

«إن الله جل جلاله، إنما أنزل القرآن على بشر مثلنا وفق تعاليمه وليتسنى بذلك للناس اتباعه، والاقتداء به وليفسر بسلوكه وأقواله الوحي الذي أنزل عليه، وقد آنتبه عدد من علماء المسلمين اللامعين فمزجوا بين دراسة السيرة واستنباط الحكم والاحكام فيها، فأخرج لنا ابن القيم رحمه الله كتاب «زاد المعاد» وأخرج محمد الغزالي من الكتاب المعاصرين« كتاب فقه السيرة»[٢]

---

(١) أحمد زكي صالح - علم النفس التربوي ص/٩٦.

(٢) عبد الرحمن النحلاوي وعبد الكريم عثمان ومحد خير وعرقسوسي: التربية والطرق التدريس جـ١ ص/٢١١

أوضح هؤلاء المربون أن السيرة تهدف الى غرس روح الاعتزاز بالأمة الأسلامية وذلك من خلال التأسي بسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فهو رمز هذه الأمة وفي هذا الصدد يقول هؤلاء المربون: «إن لكل أمة شخصية، وخصائص وسمات تمتاز بها، وتعتز بها، وإنما نتبين سمات الأمة المتميزة، بدراسة تاريخها، وإنما يتميز تاريخ كل أمة بأبطاله وشخصياته الفذة، لأنهم هم الذين قادوا المجتمع وتمثلت فيهم صفاته، وأهدافه ومثله العليا. ولو أن كل إنسان اجتماعيا بفطرته عنده حب الانتماء والاعتزاز بالأمة كان الاعتزاز بسيرة أبطال الأمة وعلى الأخص بطل أبطالها، وأول من قادها إلى العزة والمجد شعارا يلتزمه كل ناشىء وجزء من كياننا الاجتماعي».

وعندما نتناول آراء هؤلاء المربين حول أهداف تدريس السيرة نجد أنهم يلتقون في الغاية النهائية للسيرة وهي القدوة الحسنة، ذلك أن فهم الاسلام وفق سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم (من أقوال وأفعال) هو اقتداء به، كما أن الاعتزاز بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هو في الواقع - ليس مجرد شعور - بل هو سلوك عملي، وهو السلوك الذي ينبغي أن يتميز به المسلم الحقيقي، وقد

أمرنا بذلك الله سبحانه وتعالى، حيث قال في كتابه الكريم: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)[١] وقال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)[٢]

الأهداف التفصيلية لتدريس السيرة:

بعد أن أوضحنا الهدف العام للسيرة، نود أن نتناول هذا الهدف بالتفصيل، وذلك بأن نحول هذا الهدف العام الى الصيغة التي تبرز السلوك الذي نود أن نغرسه في النشء والشباب - فاذا ما تبين الطالب أنماط السلوك التي ينبغي أن يتحلى بها ويمارسها عمليا وذلك من خلال دراسته للسيرة - فإن ذلك يساعده على اتخاذ السبل والوسائل المناسبة التي تجعله يبلغ هذه الغايات. كما أن ذلك التفصيل في الهدف يساعد المعلم لاستخدام الطرق الفعالة والوسائل والأدوات المناسبة لتدريس السيرة بالصورة التي تحقق هذه الأهداف.

---

(١) سورة النساء. الآية: ٦٩.

(٢) سورة الحشر. الآية: ٧

أما الأسلوب الذي اتخذته في صياغة الأهداف التفصيلية فقد حاولت على أن تكون لكل مرحلة تعليمية أهدافها التي تلائم مرحلة النمو فيها. غير انني وضعت في الاعتبار أن تكون الأهداف في نفس الإطار رغم اختلاف المراحل التعليمية.

كذلك عنيت بأن تكون الأهداف مرتبطة بمجتمع الطالب، وبصفة خاصة بواقع المسلمين في المجتمع المعاصر، وهذا الاتجاه تتطلبه طبيعة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك أن صاحب هذه السيرة قد بعث للناس كافة، الرسالة التي بعث بها تهدف الى تحقيق الخير والصلاح لكل من يؤمن بالله رباً وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم خاتما للأنبياء والرسل.

فلابد إذن أن نستخلص من سيرة الرسول - أخلاقه وصفاته وسلوكه - القيم والأساليب والممارسات التي تجعلنا نحيا حياة طيبة، وأن ندرب أطفالنا وشبابنا - وهم جيل الغد على التأسي بتلك القيم والمبادىء والاقتداء بتلك الممارسات، اقتداء عمليا وسنورد فيما يلي الأهداف التفصيلية:

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوة الإيمان وثبات العقيدة:

(أ) أن يترسخ في نفوس الناشئة والشباب الإيمان بالله خالق الكون.

(ب) أن يدرك الطلاب أن الصعوبات والمشاق التي واجهها الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة لم تثنه عن مواصلتها حتى نشرها.

(ج) أن يكون للشباب المسلم (من طلاب المدارس الثانوية) الفهم الواعي بأن صلاح أوضاع المسلمين في الحاضر والمستقبل لابد أن يعتمد على قوة الإيمان وثبات العقيدة...

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدق والأمانة:

أن يفهم الطلاب كيف أن الصدق والأمانة صفات ميزته صلى الله عليه وسلم منذ صغره وأن هذه الصفات جعلته موضع احترام وتقدير من جانب قريش (عرف بينهم بالصادق الأمين).

(ب) أن ينهج الطلاب منهج الصدق والأمانة في المدرسة

والمنزل والمجتمع الذي يعيشون فيه، بأن يكونوا صادقين وأمناء في تعاملهم مع اهلهم ومعلميهم وزملائهم وأصدقائهم

(جـ) أن يفهم الطلاب أن اتباعهم طريق الصدق والأمانة يبوئهم مكانة اجتماعية رفيعة.

(هـ) مقدرة الطلاب على تبين المآسي والكوارث التي ألمت بالمجتمعات التي ضاع فيها الصدق والأمانة.

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في حبه للحق وثباته عليه:

(أ) فهم الطلاب أن الدعوة الاسلامية هي دعوة حق.

(ب) معرفة الطلاب وفهمهم للمنهاج الذي علم به الرسول المسلمين حب الحق والثبات عليه.

(جـ) مقدرة الطلاب (في المرحلة المتوسطة والثانوية) على فهم وتحليل المواقف المختلفة التي دافع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضعفاء والمضطهدين ممن أسلم،وأن كثيرا من هؤلاء تبوأ مكانة عالية في المجتمع الاسلامي في عهد الرسول ومثال ذلك بلال وأسامة وغيرهم.

(د) تنمية حب الحق والثبات عليه في نفوس التلاميذ

الصغار، وتشجعهم على أن يطبقوا هذه الفضيلة في تعاملهم مع زملائهم واصدقائهم في المدرسة وفي المجتمع الكبير.

(هـ) تنمية قدرة الطلاب (في المدارس الثانوية) على تبين وتحليل بعض المشكلات في العالم الاسلامي المعاصر والتي نشأت نتيجة لعدم الالتزام بالحق - وأن يخلص الطلاب الى أن الاسلام ينادي بالحق ونصرته وأن ما سوى الاسلام من أفكار ونظريات لا تراعي الحق بل يعمل بعضها على تقويضه.

(و) فهم الطلاب أن سيادة الحق في عصر الرسول كانت من العوامل الحيوية التي اسهمت في استقرار ذلك المجتمع ورفعته وعزته.

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في شجاعته:

(أ) معرفة الطلاب وفهمهم لمواقف الشجاعة المتعددة لرسول الله (الشجاعة في الحق وفي ساحة الوغى).

(ب) فهم الطلاب أن هذه الشجاعة هي ساس لحماية بلاد الاسلام من أطماع ومؤامرات أعدائه.

(ج) مقدرة الطلاب على أن يدركوا أن هذه الشجاعة هي عنصر فعال في دحض الباطل وإزالة الظلم.

الاعتزاز بمقدرة الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدولة الاسلامية - دولة الصلاح والخير:

(أ) معرفة الطلاب وفهمهم أن الدولة التي أقامها الرسول في المدينة تُعَدُّ مثلا أعلى للدول على مر العصور والدهور.

(ب) معرفة الطلاب وفهمهم أن هذه الدولة هي نموذج لدولة كتاب الله الكريم وسنة نبيه المطهرة.

(جـ) معرفة الطلاب وفهمهم أن عظمة هذه الدولة من قيامها على مبادىء الشورى والعدل.

(د) فهم الطلاب أن هذه الدولة كانت نقطة تحول كبرى في تاريخ البشرية السياسي والاجتماعي والاقتصادي (التركيز على هذا الهدف في المرحلة الثانوية)

(هـ) معرفة الطلاب وفهمهم للنظم السياسة والاجتماعية والاقتصادية التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك الكيفية التي مارست بها هذه النظم ومهامها (التركيز على هذا الهدف في المرحلتين المتوسطة والثانوية).

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في نبذ الرذيلة واجتنابه لها:

(أ) معرفة الطلاب أن الرسول صلى الله عليه وسلم نبذ الرذيلة والموبقات منذ حداثته.

(ب) معرفة الطلاب وفهمهم للأضرار المترتبة على الموبقات التي حرمها الاسلام ومن هذه الموبقات الخمر والربا والزنى والميسر.

(جـ) فهم الطلاب أن هذه الموبقات هي من أنماط الفساد الذي يهدم المجتمع ويدمره.

(د) أن يعمل الطلاب على اجتناب هذه الموبقات ومحاربتها في مجتمعهم.

التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما صبره في تحمل الأذى من أجل نشر الدعوة:

(أ) معرفة الطلاب وفهمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم صبر على أذى الكفار وذلك من أجل نشر الدعوة الإسلامية.

(ب) فهم الطلاب أن صبر الرسول ورباطة جأشه كانت نتيجته النصر من عند الله للرسول.

(جـ) تنمية فضيلة الصبر على الشدائد والمشقات في أداء

الأعمال والواجبات التي ترضي الله ورسوله.

(د) أن يتأسى الطلاب برسول الله في صبره فيما يصيبهم من مكروه في حياتهم.

الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في الوفاء والاخلاص:

(أ) معرفة الطلاب وفهمهم لوفاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر الله له بتبليغ الدعوة الاسلامية والعمل على نشرها - أنه صدع بالأمر وقام بنشر الدعوة وهاجر وجاهد في سبيلها.

(ب) معرفة الطلاب وفهمهم لوفاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه.

(جـ) تنمية صفة الوفاء في الطلاب، وأن يعملوا بها في معاملتهم لأهلهم وذويهم وأصدقائهم وزملائهم.

(د) معرفة الطلاب وفهمهم لوفاء الرسول بالمواثيق والعهود التي أبرمها مع أعداء الاسلام من يهود وكفار.

(هـ) مقدرة الطلاب على مناقشة كيفية وفاء المسلمين للمعاهدات التي أبرموها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

الاعتزاز بمقدرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترسيخ مبدأ الجهاد والتخطيط الرائع لخوض معاركه:

(أ) فهم الطلاب أن الغاية من الجهاد هي نشر الاسلام وإعلاء كلمة الله وأن الغزوات والسرايا التي قام بها المسلمون داخل الجزيرة العربية وخارجها كانت لتحقيق تلك الغاية.

(ب) مقدرة الطلاب على مناقشة كل غزوة وسرية وكذلك نتائجها.

(جـ) مقدرة الطلاب على استنباط الأساليب التي أعد بها الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل القادة والمجاهدين لجيوش الاسلام.

(هـ) اعتزاز الطلاب بقيادة الرسول الحربية والنظر اليها كمثل أعلى.

(و) اعتزاز الطلاب بالمجاهدين المسلمين والنظر اليهم كمثل أعلى في الجهود الحربية التي ترمي لرفع راية الاسلام.

(ز) تنمية الفهم لدى الطلاب بأن عزة المسلمين ورفعتهم تعتمد على جهادهم لأعدائهم والمتربصين بهم.

في حسن المودة وطيب المعشر:

(أ) تنمية فهم التلاميذ والطلاب بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعامل أهله وأصحابه وكافة المسلمين بأعلى درجة من المودة والصفاء والرحمة.

(ب) تنمية فهم الطلاب لأهمية المودة والألفة والرحمة في علاقاتهم بعضهم ببعض.

(ج) مقدرة الطلاب على استنباط وتطبيق أساليب التعامل القائم على المودة والرحمة وطيب المعشر المستوحاة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(د) تنمية فهم الطلاب بأن المودة وطيب المعشر والرحمة من العوامل الجوهرية لترابط المجتمع وتماسكه وتضامنه.

(هـ) تنمية مقدرة الطلاب على أن يعبروا شفاهة أو كتابة عن أحاسيسهم وشعورهم نحو مواقف الود والرحمة التي يختارونها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

(و) مقدرة الطلاب على تبين المواقف التي تتميز بالود والرحمة وطيب المعشر في مجتمعهم.

(ز) مقدرة الطلاب على تبين بعض الشخصيات من السيرة والتي تأثرت برسول الله

(ص) في مودته وعطفه ورحمته.

طرق تدريس السيرة:

يتميز تدريس السيرة في الوقت الحاضر باعتماده على الطريقة الالقائية وهي الطريقة التي تعتمد بصفة أساسية على المدرس في توصيل المعلومات وشرحها للطلاب في الفصل، ولقد تعرض كثير من المربين بالنقد لاسلوب التدريس القائم بصفة أساسية على الالقاء والسرد، وأوضحوا أن ذلك يحرم الطالب من المشاركة النشطة في الدرس كما يقلل من فرص تفاعله مع الأفكار والمعلومات التي تلقى عليه. ومن ثم يخرج الطالب بعد نهاية الحصة بحصيلةٍ من المعلومات، يختزنها في عقله ليوم الاختبار التحريري، حيث يقوم برد هذه المعلومات الى المعلم ليفحص مدى محافظة الطلاب عليها خلال الفترة الدراسية.

ولقد قام المربون في كثير من أنحاء العالم باجراء البحوث حول استنباط أكثر طرق التعليم جدوى بعد أن ثبت لهم أن الاعتماد على الطريقة الالقائية وما يترتب عليها من تشجيع لاسلوب الحفظ والاستظهار سوف يجعل العملية التعليمية قاصرة من الناحية التربوية. ذلك أن حصيلة هذه العملية ينبغي أن تكون نموا مضطردا يشمل قيم الطالب

واتجاهاته وقدراته ومهاراته ومفاهيمه. ومن ثم فإن المعرفة التي لا توظف لبناء الشخصية بناء سويا - يقوم على صرح راسخ من القيم والمفاهيم تصبح غير ذي جدوى للطالب.

وإذا كانت البحوث التربوية الحديثة في الشرق والغرب قد جدت واجتهدت للتوصل الى طرق تعليمية أكثر فاعلية وجدوى من الطرق التقليدية عندهم، فإن المربين المسلمين لديهم الكثير من تلك الطرق الفعالة والتي يدعي المربون من غير المسلمين أنهم أول من استحدثها، فمثلاً يقرر المربون من غير المسلمين أنهم ابتدعوا طرق التدريس التي تشجع التفكير وتنميه، والتي تجعل الطالب يصل الى النتائج والخلاصات دون اعتماد على الدرس. ولكن في الواقع نجد أن أسلوب التفكير قد جاء به القرآن وحض عليه بل وجعله سبيل المخلوق للايمان. والدليل على ذلك قوله تعالى: (أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت. والى السماء كيف رفعت.. والى الجبال كيف نصبت.. والى الأرض كيف سطحت)[١] ويقول تعالى: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠

كل دابة وتصريف الرياح والسحاب والمسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١].

لذا نجد أن القرآن يوضح أسلوبا رائعا في التعليم، ذلك أنه يجعل المخلوق دائم التفكير والتدبير في الكائنات التي تحيط به. بل ويدعوه ليتفاعل معها - وأن تكون الغاية من كل ذلك هو ترسيخ الايمان في نفوس العباد.

ولقد وجدت أنه من الضروري والأجدى اتباع هذا الأسلوب التفكيري في تدريس السيرة وذلك بأن نجعل تدريسها قائما على استنباط المفاهيم والقيم من كل حادثة من أحداث السيرة، وسوف أورد في هذه الدراسة بعض خطط الدروس التي أبين فيها كيفية جعل تدريس السيرة يقوم على عملية التفكير والاستنباط.

كذلك نلاحظ في أسلوب التفاعل الذي أشرت اليه أن عملية التعليم ليست منفصلة عن البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه الطالب، بل هي مرتبطة به أشد الارتباط. ولذا فلا ينبغي أن تقتصر طرق تعليم السيرة على النشاط داخل الفصل، بل لابد أن تنطلق الى آفاق أرحب في هذا الكون الرحب - وهذا بالطبع لا يتحقق الا اذا اتبعنا في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤

تدريسنا الطريقة أو الطرق التي تجعل الطالب يدرك أهمية ما يدرسه في المدرسة بالنسبة لحياته ومجتمعه.

وبصدد الحديث عن الفوائد العملية لما يدرسه الطالب في المدرسة نشير الى صفة هامة في طرق التعليم، نستمدها من القرآن، وهذه الصفة تتمثل في الجانب العملي في طريقة التدريس. وقد أبرز القرآن الكريم أهمية الناحية العملية في السلوك حيث قال سبحانه وتعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)[١] وقال تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)[٢].

ولا شك أن طبيعة سيرة الرسول، كمنهج عملي تربوي يتطلب في المقام الأول أن نتبع الطرق العملية في تدريسها، والا تقتصر فقط على أسلوب التلقين والحفظ والسرد، ومن الملاحظ أن المناداة بالاتجاه العملي أخذ يحتل مكانة في الدراسات الاسلامية اذ تؤكد بعض هذه الدراسات[٣] على

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥

(٢) سورة الصف الآيات: ٢، ٣

(٣) محمد حامد الافندي نحو مناهج اسلامية ص/ ٢٦ بحث قدم للمؤتمر الأول للتعليم الاسلامي بجامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة عام ١٣٩٧هـ.

ضرورة جعل المناهج الاسلامية وسائل وأدوات فعالة تصل بالاجيال المسلمة الى الغايات المرتجاة في الخير والصلاح والهداية، وفي هذا الصدد أشارت هذه الدراسات الى أن من بين الصفات البارزة التي تميز مناهج التربية الاسلامية ما يلي: -

(١) يؤكد منهج التربية الاسلامية تأكيدا شديدا على العمل الصالح المفيد فيما يقوم به الانسان نحو خالقه، ونحو نفسه وأسرته ونحو مجتمعه الانساني، ونحو الخليقة بأسرها.

(٢) يقيس منهج التربية الاسلامية الشخص وأخلاقه، وعمله بالعمل الذي يؤديه.

(٣) من الضروري في منهج التربية الاسلامية ألا تكون التربية عن طريق الحفظ والتلقين فقط، بل لابد من التطبيق، ويتحقق بذلك الاسهام في العمل الصالح المفيد في حياة الفرد وفي الأسرة والمجتمع والمحيط الإنساني كله.

صفات وخصائص طرق تدريس السيرة:

في ضوء الإطار الديني لطرق التدريس - والذي سبقت الاشارة اليه في هذه الدراسة - فينبغي أن تتصف طرق السيرة بالصفات الآتية:

أولا - الجانب التفكيري والذي يؤدي الى استنباط المفاهيم والقيم من الاحداث.

ان الطرق التي يستخدمها المعلم في تدريس السيرة لابد أن تشجع الطلاب على استنباط القيم والمفاهيم من أحداث السيرة، ويساعد على ذلك اهتمام المدرس بتحديد وتوضيح أهداف الدرس. وهنا لابد من أن نشير الى ضرورة مراعاة مرحلة النمو التي يدرس فيها الموضوع، فلا شك أن مقدرة التلميذ في المدرسة الابتدائية على الاستنباط وتحديد المفاهيم أقل من مقدرة طالب المدرسة المتوسطة في هذا المجال، وهذا الطالب بدوره يقل مقدرة عن طالب المدرسة الثانوية.

وكما تشير الدراسات التربوية[1] فان معرفة المربي ودرايته بمرحلة النمو التي يطبق فيها طريقة معينة، تساعده في أمور هامة معينة منها:

- تكييف الخبرات التعليمية طبقا لمستويات نضج التلاميذ وما تتوقعه في سن معينة وتحت ظروف معينة.
- وضع النظم التعليمية والخطط والوسائل التي تحقق لكل تلميذ أقصى حد ممكن من النمو.

---

(١) الدمرداش سرحان ومنير كامل: المناهج، ص/ ٥٧ (الطبعة الأولى).

الصفة الثانية: ربط تدريس السيرة ببيئة الطالب ومجتمعه:

أشرت في أهداف تدريس السيرة الى أنها ترمي الى جعل الطالب يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته حتى يحيا الطالب حياة طيبة - وهنا تنشأ الضرورة في جعل التدريس يمكن الطالب على السير في حياته اليومية (في منزله ومجتمعه) بصورة بناءة وصالحة، فالطالب الذي يستمد من السيرة قيما ومبادىء ومفاهيم ينبغي أن تكون له المقدرة على الاستفادة منها في حياته سواء في المدرسة أو المنزل أو في مجتمعه الكبير، وعلى الطالب أن يتبين ويدرك المواقف الاجتماعية التي تتطلب منه تطبيقا عمليا لما درسه في السيرة.

ولا شك أن الناحية التطبيقية والعملية في تدريس السيرة تعتمد على كفاية المدرس وحسن تدريبه على القيام بهذا النمط من التدريس - وهنا لابد أن أشير الى ضرورة المام المدرس التام بالمشكلات الكبرى التي تواجه المسلمين في شتى أنحاء المعمورة، وينبغي أن يكون المدرس قادرا بل ومستعدا على جعل الطلاب يرون الصلة والعلاقة بين ما يدرسونه في المدرسة وبين ما يجري في مجتمعهم والمجتمعات الاسلامية الأخرى.

وعلى سبيل المثال فلا ينبغي أن يدرس الطالب في المدرسة الابتدائيـة صفات الرسول في الصدق والامانة والوفاء دون أن نبين له المزايا الاجتماعية التي تترتب على سيادة هذه الصفات في المجتمع، ولابد أن نحرص على اعطائـه أمثلـة واضحة لذلك. وبالنسبة لطالب المرحلة المتوسطة فلابد أن يخلص من درس الهجرة، الى القيم المستفـادة منهـا وأهميتها له في حياته، من هذه القيم التضحية والايثار، وأن هذه القيم لازمة للبناء السوي للمجتمع. وفيما يتعلق بطالب المرحلة الثانوية والذي بلغ مرحلـة أعـلى في النضج، فلابد أن يستنبط خصائص المواطنة الصالحة من نظم المجتمع الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة حينما هاجر اليها.

الصفة الثالثة: الاعتماد على الأسانيد والاستشهاد بالآيات والأحاديث:

إن الصفة الثالثة لطرق تدريس السيرة، هي الاعتماد على الأسانيد أي الاستشهاد بالآيات الكريمة والاحاديث النبوية من أجل توضيح المفاهيم والقيم وترسيخها في نفوس الطلاب. فالقرآن الكريم هو إطار السيرة، والقرآن يشتمل المبادىء والأحكام التي عمل الرسول على تطبيقها، كما أن

الأحاديث تبرز أساليب تطبيق هذه المبادىء والأحكام.

ومن المهم أن ننشىء أبناءنا على فهم الأسس التي تقوم عليها أحداث السيرة، ففي رأي بعض الكتاب: (أن الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بالموضوع لها مكانتها في غرس أعمق المعاني في نفوس الطلاب[1] وفي اعتقادي أن هذه الصفة قد برزت بصورة واضحة في إحدى كتابات الشيخ محمد الغزالي، حيث ضمنها كتابه «فقه السيرة» وجاء فيه قوله[2]: فليفقه المسلمون سيرة الرسول العظيم، وهيهات أن يتم ذلك الا بالفقه في الرسالة نفسها والادراك الحق لحياة صاحبها والالتزام الدقيق لما جاء به. وفي ضوء خصائص طرق تدريس السيرة، يستطيع المدرس أن يشجع طلابه على القيام بأنشطة متعددة ومتنوعة في دراستهم للسيرة، ففي المرحلة الابتدائية يكون من المناسب أن يعتمد المدرس في تدريسه للسيرة على شرح الأحداث وتصويرها بدرجة تقرب فهمها للطلاب.

وتعتبر القصة من أنسب طرق التدريس بالنسبة

---

(١) محمد أمين المصري: لمحات في وسائل التربية الاسلامية وغاياتها ص/ ٢٢٩

(٢) محمد الغزالي: فقه السيرة ص/٨

للأطفال. والقصة من الأساليب التعليمية التي نستخلصها من القرآن الكريم، وكما يشير بعض المربين: (إن القرآن الكريم جاء بقصص تربوية هي غاية في الأهمية في علاقات الانسان الأخلاقية والروحية ذلك مع جمال الأسلوب وبلاغة المعنى، كما نص القرآن على أهمية القصة للقدوة الأخلاقية فقد ورد في القرآن الكريم «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن»[١]

ولابد للتلاميذ الصغار في دراستهم للسيرة أن يمارسوا أنشطة عملية تدعم فهمهم للمعارف والمفاهيم التي يتلقونها فعلى المدرس أن يهتم بجمع بعض وسائل الإيضاح الخاصة بالسيرة مثل صور المساجد - كالمسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء ومشاعر الحج.. وأن يقوم التلاميذ برسم مخططات لموقعة أحد وبدر والخندق، ذلك أن الدراسات التربوية تؤكد على أهمية العمل اليدوي في مناهج التعليم الابتدائي، لأنه يرضى خصائص الطفولة النفسية فالاطفال ميالون الى النشاط والعمل اليدوي، ومن هذه الأنشطة الرسم، واستعمال الورق، وعمل اللوحات المصورة[٢].

---

(١) سورة يوسف آية ٣

(٢) محمد فاضل الجمالي: الفلسفة التربوية في القرآن ص ٩١.

أما بالنسبة للطلاب في المرحلة المتوسطة والثانوية وهي مرحلة المراهقة التي ينزع فيها الطالب الى الاستقلال في سلوكه. فلا بد من تشجيع الطلاب على قراءة الكتب التي تتناول السيرة في مختلف جوانبها، وينبغي أن يتابع المدرسون مدى هضم الطلاب لما يقرأون ومدى تأثرهم به، ويتم ذلك عن طريق الواجبات القرائية التي يعقبها النقاش في الفصل.

كذلك ينبغي تشجيع الطلاب على متابعة الكتابات عن السيرة في المجلات الاسلامية والمحاضرات والندوات التي يقوم بها دارسون وباحثون عرفوا بصدق ايمانهم وغزراة علمهم.

نماذج لبعض الدروس في السيرة.

لا يكتمل الحديث عن تصورنا لطرق التدريس ووسائلها دون توضيح ذلك ببعض الدروس التي تبرز التطبيقات العملية لأهداف السيرة وخصائصها. وقد أوردت في هذه الدروس نماذج لدروس في السيرة تتناول بعض الموضوعات وقد اعطيت مثالا لكل مرحلة من مراحل التعليم العام - الابتدائي فالمتوسط فالثانوي.

ويلاحظ أن نماذج الخطط متشابهة في الهيكل العام

وذلك من حيث تحديد الأهداف وطرق التدريس، والمفاهيم والقيم المستفادة من الدرس، ويختتم بتقويم الدرس.

وفيما يلي نماذج لخطط الدروس:

نموذج لخطة درس في السيرة:

المرحلة الابتدائية - الصف الرابع - المقرر: سيرة الرسول ﷺ

موضوع الدرس: رضاع الرسول وكفالة جده عبد المطلب وعمه أبي طالب له.

أهداف الدرس:

(١) فهم الطالب أن الرسول ﷺ نشأ يتيما منذ حداثته.

(٢) معرفة الطالب لمرضعة الرسول ﷺ وكذلك ما وجدته من خير بعد أن أخذت الرسول ﷺ لرضاعته.

(٣) معرفة الطالب أن الرسول ﷺ بعد وفاة امه صار يكفله جده عبد المطلب.

(٤) معرفة الطالب أنه بعد وفاة عبد المطلب كفل الرسول عمه ابو طالب.

(٥) مقدرة الطالب على التعبير شفاهة عن العطف

والرعاية الطيبة التي لقيها الرسول صلى الله عليه وسلم من عمه وجده.

مفهوم الدرس:

أن الله سبحانه وتعالى قد اختص محمدا منذ طفولته برعايته وعنايته فرغم أن محمدا نشأ يتيما، الا أن الله هيأ له من يشمله بعنايته وعطفه منذ حداثته ويتجلى ذلك فيما يأتي: -

١ - ترددت المرضعة حليمة في أخذ محمد في بادىء الأمر لأنه يتيم وليس له من يؤجرها على رضاعته، ثم عادت حليمة فأخذته في بلدها - وما لبثت أن وجدت أن رضاعتها له قد عادت عليها بالخير والبركة، حيث در الضرع.

٢ - كفله جده عبد المطلب بعد وفاة أمه (حيث أصبح يتيم الأبوين) فكان عبد المطلب يحبه حبا شديدا، ويعزه، ويعطف عليه. فمثلا كان يحرص على أن يجلس محمد بجانبه.

٣ - أن عمه أبا طالب الذي كفله بعد وفاة جده عبد المطلب. كان أيضا يحب محمدا ويحيطه بعطفه وحمايته. فمثلا لم يرفض رغبة ابن اخيه محمد في أن

يذهب معه في رحلته الى الشام. وعندما قام محمد بالدعوة، كان عمه أبو طالب يدافع عنه.ورغم الضغط الذي مارسته قريش على أبي طالب أبى التخلي عن ابن أخيه.

طريقة التدريس:

(١) يقوم المدرس بشرح الدرس بأسلوب قصصي مشوق، مع التركيز على شرح مفهوم الدرس. كما يتخلل شرحه تفسير لمعاني سورة الضحى التي فيها اشارة واضحة «لليتيم».

(٢) تشجيع استخدام أسلوب الحوار بين التلاميذ ويقوم الحوار على الأسئلة والأجوبة التي يحتوي عليها الكتاب المدرسي، أو كتاب من مكتبة الفصل أو مكتبة المدرسة.

(٣) أسئلة يوجهها المدرس للتيقن من فهم التلاميذ لمعلومات الدرس ومفهومه.

نموذج لخطة درس في السيرة

المرحلة: المتوسطة الصف: الأول المقرر: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

موضوع الدرس: الهجرة (من مكة الى المدينة)

أهداف الدرس:

(أ) فهم الطالب للخطوات التي مهد بها الرسول للهجرة من مكة الى المدينة.

(ب) مقدرة الطالب على مناقشة الأسباب التي دعت المسلمين للهجرة الى المدينة.

(جـ) مقدرة الطالب على توضيح الطريق الذي سلكه الرسول في هجرته من مكة الى المدينة (أن يوضح ذلك في خريطة)

(د) فهم الطالب للقيم السامية التي تمثلت في الهجرة وأهمها:

نصرة دين الله والتضحية في سبيله بالنفس والوطن والمال، وذلك من جانب المهاجرين. كما أنه من جانب الأنصار تمثلت القيم في الايثار والنجدة وصدق الإخاء.

(هـ) أن يتبين الطالب في مجتمعه (سواء مجتمع المدرسة أو المجتمع الكبير) المواقف التي تدل على التضحية والايثار.

(و) مقدرة الطالب على التعبير عن نتائج الهجرة - سواء أكان التعبير شفاهة أم كتابة.

مفهوم الدرس: الهجرة:

- يفهم الطالب معنى الهجرة.
- يفهم الطالب المبادىء والقيم التي تشتمل عليها الهجرة.
- يفهم الطالب أن نتائج الهجرة كانت نصرا لدين الله.

القيم المستفادة من درس الهجرة:

(أ) الامتثال لأمر الله.

(ب) التضحية

(جـ) الايثار

(د) صدق الاخاء

طرق التدريس:

يتضمن التدريس الأنشطة الآتية:

(أ) الالقاء بصورة محدودة من جانب المدرس والاستشهاد بالآيات الكريمات الدالة على الهجرة - منها الآية الكريمة

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبوتك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين) (سورة الأنفال - الآية: ٣٠).

(ب) النقاش: ويمكن أن يتناول الطلاب موضوع التضحية والايثار بالنقاش وأن يدور نقاشهم حول اسئلة معينة مثال ذلك: كيف ضحى المسلمون في الهجرة وكيف وضع لهم الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في التضحية.

وسائل الايضاح: خريطة تبين الطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة.

القراءة المصدرية: يختار المدرس أحد المقالات الجيدة المنشورة في إحدى المجلات الاسلامية والتي تتناول موضوع الهجرة ويقوم الطلاب بمناقشة المقالة على أن يوجه المدرس النقاش، ويكون التركيز أيضا على فهم القيم.

ويفضل أن يستعرض المدرس مع التلاميذ بعض المقالات المنشورة في المجلات والجرائد عن الهجرة - ثم يتم اختيار واحد منها ليناقشه الطلاب كمجوعة في الفصل.

التقويم:

(أ) مقدار ما أسهم به الطلاب في النقاش.

(ب) مقدار ما جمعه الطلاب من مادة مصدرية من المجلات والجرائد.

(جـ) مستوى أدائهم في تلخيص الفصل الخاص بالهجرة في كتاب بالمكتبة

(د) مستوى أدائهم في المقالة التي يكتبونها عن كيفية تطبيق مفهوم الدرس وقيمه على حياتهم ومجتمعهم.

نماذج لخطة درس في السيرة

المرحلة: الثانوية **الصف**: الأول **المقرر**: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

موضوع الدرس: الجهاد[1] **اعداد الرسول صلى الله عليه وسلم للحرب.**

أهداف الدرس:

(أ) فهم الطالب لمقدرة الرسول صلى الله عليه وسلم الفائقة وبراعته في الإعداد للحرب.

(ب) معرفة الطالب وفهمه للمبادىء التي كان الرسول صلى

---

(١) أريد أن يدرس موضوع الجهاد كوحدة كبيرة في المدرسة الثانوية ذلك أن تدريس الغزوات والسرايا كموضوعات منفصلة قد أخذ نصيبه في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة أما في المرحلة الثانوية فيكون الطالب قد بلغ درجة مناسبة من النضج تمكنه من هضم مفهوم الجهاد وإذا درسه كوحدة منفصلة.

الله عليه وسلم يتبعها في الإعداد للحرب (مثل استشارة أصحابه).

(جـ) مقدرة الطالب على مناقشة بعض الأساليب التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم في الإعداد لبعض الغزوات.

(د) مقدرة الطالب على تبين انماط القيادات الحربية الممتازة التي أعدها الرسول ومن ثم قادوا الجيوش الاسلامية الى النصر والظفر.

(هـ) مقدرة الطالب على مناقشة اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم في الاخلاص في مجال الاعداد الحربي (مثال ذلك تجهيز عثمان بن عفان رضي الله عنه لجيش العسرة).

(و) مقدرة الطالب على مقارنة الإعداد للجهاد في العصر الحديث مع ما كان عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

المفهوم: الجهاد

- الجهاد وسيلة لنشر الاسلام واعلاء كلمة الله.
- الجهاد قوة وعزة للمسلمين.
- الجهاد له أدوات ووسائل معينة.

طرق التدريس:

(أ) النقاش الذي يقوم على الواجب القرائي والذي يكلف به

الإنشاء رغم عوامل التغيير ورغم الأحداث الكبرى التي تطرأ على تاريخ الأمم.

ثم إنهم لم يلبثوا، بعد أن تعلموا من غيرهم، أن بدءوا في مرحلة الإبداع. ولم ينشأ عن انحلال دولتهم العالمية أيُّ تخلف حضاري، بل إنه في داخل إطار الحضارة الكبرى الموحِّدة في أساسها وروحها وأهدافها، كانت الحضارات الإسلامية المحليَّة تسير في طريق الازدهار وتتخذ طابعا من العبقريات المحلية، من غير فقدان الطابع العام.

المراحل الكبرى للحضارة العربية الاسلامية:

يذكر الاستاذ ناجي معروف في كتابه «اصالة الحضارة العربية» أن مراحل الحضارة العربية هي:

مرحلة النشوء والتكامل في الجزيرة العربية.

،، الاقتباس من الأمم بعد الفتوح الإسلامية.

،، الابتكار والإبداع.

،، التأثير في الشرق والغرب.

ونستطيع، على أساس نظرة أخرى، أن نتبين مراحل للحضارة الاسلامية، اذا صرفنا النظر عن حضارة ما قبل

وتنقسم هذه الموارد والمصادر الى ما يأتي:

١ - مصادر أساسية للمعلمين.

٢ - مراجع للمعلمين.

٣ - مراجع للطلاب بالاضافة الى الكتب المدرسية المقررة.

٤ - موارد تعليمية مصورة ومخططات مرسومة (فمن المصورات المساجد الاسلامية).

٥ - مواد مسجلة. (وتضم بعض المحاضرات والندوات التي يقدمها ممن لهم دراية والمام صحيح بالدراسات الاسلامية. وتضم أيضا بعض المسرحيات الإذاعة التي تلتزم في نصها واخراجها روح الموضوع.

أهداف استخدام الموارد والمصادر التعليمية لتدريس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

تهدف هذه الموارد والمصادر التعليمية الى ما يأتي: -

(١) تزويد الطلاب بمعارف ومفاهيم واسعة وعميقة عن السيرة:

مهما حاولت الخطة الدراسية أن تكون معقولة في الزمن الذي نخصصه للمادة، فان ذلك لا يكفي لاشباع

حاجات الطلاب في المواد التي تثير اهتماماتهم ورغباتهم، وخاصة بالنسبة لمقرر كالسيرة النبوية والتي ينبغي أن تكون أساسا لتربية هؤلاء الطلاب.

ومن هنا تنشأ الحاجة الى أن تكون القراءة المصدرية جزءا أساسيا في طريقة تعليمها.

(٢) تنمية مهارة الطلاب على استخدام المراجع:

وهذا يشتمل على:

(أ) المقدرة على اختيار الكتب التي تختص بدراسة موضوع معين، فهنالك كتباً تتناول نشر الدعوة وأخرى عنيت بموضوع الجهاد، وبعضها اهتم بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهله وزوجاته وصحابته.

(ب) مقدرة الطالب على تلخيص الكتب تلخصيا معبرا.

(جـ) مقدرة الطالب على الحصول على الإجابات الصحيحة للاسئلة التي تثار في الفصل.

(٣) غرس الأثر الروحي الفكري والأخلاقي لشخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الناشئة والشباب.

ويتم ذلك بما يدرسه الطلاب من كتابات يتميز أصحابها بصدق الايمان وعمق الفهم للاسلام بالاضافة الى توخي

النظرة التربوية الفعالة في الطريقة التي يكتبون بها لكل مرحلة من مراحل التعليم - وفي هذا ضمان لتحقيق الغايات التربوية المبتغاة بالاضافة الى تحسين في عملية التعليم والتعلم.

(٤) - تنمية مقدرة الطلاب على التمييز بين المراجع التي تتناول السيرة بنظرة اسلامية حقيقة وبين تلك المراجع التي تشوه مضمون السيرة، ومن هذه المراجع الأخيرة ما كتبه أولئك المستشرقون الحاقدون على الاسلام.

(٥) ترقية أسلوب الطالب في التعبير عن أحداث السيرة (كتابة ومشافهة) وذلك من خلال الاطلاع على مراجع السيرة التي تتميز برصانة الاسلوب وسلامته. ذلك أن السيرة ينبغي أن تكون عنصرا هاما في ثقافة الناشئة والشباب المسلم. وهذا يتطلب دون شك التمرس بما كتب عن السيرة من مصادر ومراجع كما أنه بالنسبة للأطفال فيمكن تبسيط هذه الكتب حتى تنمو مقدرتهم وذلك من خلال قراءتها.

(٦) تنمية ميل الطلاب نحو البحث الجاد في حقل السيرة وذلك من خلال المقالات التي يستعينون في كتابتها بالمراجع. وفي هذا أيضا تحقيق لتدريب وإعداد جيل متمرس بالبحث في الدراسات الاسلامية. فالطلاب يلجون

ميدان البحوث في السيرة حتى اذا ما ارتقوا الى مدارج التعليم أو انخرطوا في الحياة كان لديهم أساس قوي يرتكزون عليه في جهدهم للمزيد من الدراسات.

(٧) عدم اعتماد الطلاب في دراستهم للسيرة على جهد المدرس فقط وما يحصلون عليه من الكتاب المدرسي، بل من الضروري أن نشجعهم على تعزيز معارفهم وترسيخها وذلك بواسطة ما يحصلون عليه من المراجع التي تتلاءم مع الأهداف الحقيقية لدراسة السيرة.

(٨) تشجيع طريقة النقاش الهادف في الفصل من خلال الواجبات القرائية التي يقوم بها الطلاب سواء في مكتبة المدرسة أو في المنزل ذلك أن طريقة النقاش الهادف تنمي في الطلاب المقدرة على التفكير والتدبر في مفهوم السيرة الأساسية واحداثها الأمر الذي ينجم عنه استنباط المبادىء والقيم السامية، كالخير والصلاح فيزداد الطالب هداية وعرفانا، كما أن أسلوب التفكير يجعل هذا الطالب قادرا على تبين أنماط السلوك المنكر الذي حذر ونهى عنه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

(٩) ترقية النشاط المدرسي خارج الصف في مجال السيرة:

إن لنشاط الطالب خارج الصف (أو ما يسمى بالنشاط

اللاصفي) دور هام في تعليم الطالب فهذا النشاط هو أحد المجالات الحيوية للإعداد للمواطنة الصالحة.

وتتمثـل الأنشطـة خارج الصف في عمل الجماعات المدرسية والتي تقوم بها خلال العام الدراسي وتقدم إنتاجها في نهايته في شكل معارض تربوية ويشتمل ذلك النشاط على تحرير صحف الحائط وعملِ المخططات المرسومة (كمخطط غزوات أحد وبدر والخندق بالنسبة للمرحلة الإبتدائية خاصة).

ومن الناحية التربوية فإن الطلاب في مختلف مراحل تعليمهم يحسون برضاء وفرح حينما يقدمون عملا يجد التقدير من قبل زملائهم أو من قبل الكبار.

ومن أمثلة هذا النشاط والذي يرغب التلاميذ فيه القيام بجمع صور ليحضروها الى الجماعة المدرسية التي ينتمون اليها وغالبا ما تكون جماعة المواد الاجتماعية أو التربية الدينية. وسوف يستمر هؤلاء التلاميذ في الاهتمام بهذا اللون من النشاط اذا وجدوا تشجيعا من معلميهم ومعلماتهم.

كذلك فإن طلاب المدارس المتوسطة يمكنهم أن يتابعوا في المجلات الاسلامية المعروفة بعض الموضوعات المتعلقة

الإسلام نفسَه صار عالمياً، وأن وحدة الحضارة الاسلامية، رغم تنوع مظاهرها، مبنيةٌ لوحدة الشعوب الإسلامية، وهذه بدورها مبنية على التوحيد الذي أشرنا إلى تأثيره فيما سبق.

وكما أن الله يُمْسِكُ نظامَ الكون بقدرته الشاملة فانه تعالى، بفضل الايمان به، يمسك نظامَ الأمة الإسلامية كلها، كما يشمل معَها جميعَ من آمن بالله من أهل الديانات الأخِرى.

- والإسلامُ دينُ **الكائنات كلها**، وهو في الأعماق أو بلسان الحال أو المقال، دينُ البشر جميعا، ودينُ الإخاء والمساواة بين البشر، على اختلاف اللغات والأجناس، بلا تمييز، لأن هذا الاختلاف من آيات الصنع الالهي البديع في هذا العالم.

«وَمِنْ آياتِـه خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ أَلْسِنَتِكُم وأَلوَانِكم، إنَّ في ذلك لآياتٍ لِلْعالِمِينَ» (س ٣٠ / الروم/ ٢٢).

والإسلامُ دين الحرية في العقيدة والعبادة، ودينُ التسامح المبني على أنه مصدق للحق فيما سبقه من أديان ومتقبِّلٌ للحق أينما كان.

(٢) مراجع للطلاب في مختلف المراحل التعلمية بالاضافة الى المواد المسجلة في أشرطة.

القسم الأول: مصادر ومراجع للمعلم

(١) ابن هشام: السيرة النبوية.

(٢) عبد الرحمن السهيلي: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية للامام ابن هشام تحقيق وشرح عبد الرحمن الوكيل- ٧ أجزاء يطلب من دار الكتب الحديثة بالقاهرة- ١٣٨٧

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى- بيروت/ ١٣٩٨هـ

المجلد الأول: السيرة النبوية.

المجلد الثاني مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه ووفاته- وذكر من كان يفتي بالمدينة- وجمع القرآن.

المجلد الثالث: في أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

المجلد الرابع: في المهاجرين والأنصار ممن لم يشهدوا بدرا ولهم اسلام قديم وفي الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة.

(٤) الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب- مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم- المكتبة السلفية/ ١٣٧٩هـ

(٥) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم- دار

الفكر العربي ١٩٧٢م.
الجزء الأول: نشأته- بعثته- مصابرته- اتصاله بالقبائل- هجرته.
الجزَء الثاني: بناء الدولة الاسلامية- معاهدة جوار مع يهود، نقضهم لها- إجلاؤهم بدر- المنافقون- الاذن بالجهاد الغزوات والسرايا غزوة بدر- غزوة أحد- الأحزاب- الأحكام الشرعية التي شرعت.
الجزء الثالث: رسالته صلى الله عليه وسلم الى الملوك- طرد اليهود من البلاد العربية- إسلام العرب- حال العرب- خروج الدعوة الى أطراف الشام حجة الوداع - زوجاته صلى الله عليه وسلم.
(٦) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤هـ).
(صورة مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية).
(٧) السيد/ ابي الحسن علي الحسن الندوي: السيرة النبوية- دار الشروق- جدة/ ١٣٩٧هـ
(٨) محمود شيت خطاب: الرسول القائد (الطبعة الرابعة) دار الفكر.

المجلات الاسلامية التي تنشر دراسات عن السيرة وبقية الدراسات الاسلامية:

١ - مجلة رابطة العالم الإسلامي (مجلة اسلامية شهرية): تصدر بمكة المكرمة عن إدارة الصحافة والنشر لرابطة العالم الاسلامي - عنوانها رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة).

٢-**مجلة الدعوة** (مجلة اسلامية أسبوعية جامعة)- تصدر عن مؤسسة الدعوة الاسلامية الصحفية بالرياض.

٣- **مجلة حضارة الاسلام**: عنوانها- دمشق، ص ب: ٨٠٨

٤- **مجلة جوهر الاسلام** (مجلة اسلامية جامعة) تصدر في تونس.

٥- **مجلة الوعي الاسلامي**: (اسلامية ثقافية شهرية) تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ص. ب: ٢٣٦٦٧- الكويت.

٦- **مجلة هدى الاسلام**: (اسلامية علمية أدبية)- تصدرها وزارة الأوقاف والمقدسات الاسلامية) عمان وغرة كل شهر هجري.

٧- **مجلة التضامن الاسلامي**: مجلة اسلامية تصدرها وزارة الحج والاوقاف بمكة المكرمة.

٨- **مجلة منبر الاسلام**: يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية.

القسم الثاني من الموارد والمصادر التعليمية:

مراجع الطلاب:

أولا: للمرحلة الابتدائية فإن الكتب الآتية تناسب الطلاب في هذه المرحلة وذلك من حيث طريقة العرض والمعالجة، كما أنها تحتوي على أسلوب الحوار وهو أيضا يلائم الطلاب في هذه المرحلة، والكتب هي في سلسلة «القصص الديني» التي كتبها عبد الحميد جودة السحار- وفيما يلي نماذج منها.

(١) هاشم بن عبد مناف

(٢) عبد المطلب جد النبي

(٣) عبد الله وآمنة

(٤) مولد الرسول

(٥) حليمة السعدية

(٦) الوحي.

(٧) المسلمون الأوائل.

(٨) الهجرة الى الحبشة

(٩) الهجرة

(١٠) غزوة بدر.

(١١) غزوة أحد

(١٢) صلح الحديبية.

(١٣) حجة الوداع.

(١٤) النبي الصالح.

(تصدر هذه السلسلة عن مكتبة مصر- دار مصر للطباعة والنشر.)

ثانيا: المرحلة المتوسطة:

فيما يلي بعض الكتب التي تناسب التلاميذ في المرحلة المتوسطة وذلك من حيث طريقة عرضها، ولغتها وأسلوبها، وتناولها للموضوع. هنالك سلسلة أعلام المسلمين وتضم كتبا منها:

(١) أبو بكر الصديق.

(٢) عمار بن ياسر

(٣) سلمان الفارسي.

(٤) بلال بن رباح

(٥) زيد بن ثابت

(٦) سعد بن معاذ.

(وتصدر هذه السلسلة عن الشركة المتحدة للتوزيع -

بيروت - شارع دمشق).

ثالثا- المرحلة الثانوية:

الكتب الآتية تناسب التلاميذ في المرحلة الثانوية، وذلك من حيث أنها تركز على تحليل الأحداث،كما أنها مناسبة أيضا للمرحلة من حيث الأسلوب وطريقة المعالجة. والكتب هي من تأليف محمد أحمد باشميل، وأصدرها في سلسلة بعنوان معارك الاسلام الفاصلة.

ومن هذه الكتب:

غزوة بدر- غزوة أحد- غزوة بني قريظة- غزوة مؤتة- غزوة الأحزاب- فتح مكة.

ومن الكتب التي تلائم المدارس الثانوية كتاب سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم «لمؤلفه الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: وقد نشر هذا الكتاب مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٣٩٨هـ

مدرس السيرة:

لا يكتمل الحديث عن تصورنا لطرق تدريس السيرة ووسائلها دون توضيح خصائص المدرس الذي ينهض بهذه المهمة العظيمة. وفي اعتقادي أن المدرس الذي ننشده

تصبح مراكز لحضارة الإسلام ومنارات لاشعاعها فيما حولها .

ولما كان الإسلام يحترم الديانات السابقة ، وكان الخلفاءُ بفضل الإسلام أيضا يعظِّمون كلَّ علم وحق وخير ورقي إنساني ويعرفون الفضل لأهله ، فإن ذلك دعاهم إلى الاستفادة من مواهب الأمم المتحضرة ، فمهدوا السبيل إلى تعاون انساني واسع النطاق فتضافرت في دولة الاسلام جميعُ مواهب الأمم العقلية والفنية ، ومنذ عهد معاوية بن أبي سفيان نجد الخلفاء يتخذون من علماء أهل الكتاب من يستشيرونه أو يستفيدون منه في تثقيف أبنائهم أو في وظائف ينهضون بعملهم فيها : جيلا بعد جيل ، وقد تظلُّ الأسرة الواحدةُ (أسرة بختيشوع مثلا في العصر العباسي) أكثر من قرن تُمِدُّ الدولة بالأطباء والكُتَّاب والموظفين ، كما نجد من أهل الكتاب عُمّالاً ووزراء في الدولة الإسلامية (سواء في الأندلس الإسلامية أو في مصر) . يؤدون أعمالهم بإخلاص ويتمتعون هم وأبناء دينهم بالحرية والإكرام ، في ضوء قوله تعالى : « لا إكراه في الدّين » .

وفي ظل حضارة الإسلام نشأ الفكرُ العلمى والفلسفى

يتطلب أداؤه أول ما يتطلب صدق الإيمان وحسن الأخلاص.

٥- أن يكون للمعلم الاستعداد والرغبة الخالصة لتنمية اداثه التربوي وذلك بمتابعة البحوث والدراسات التي يعدها مربون مسلمون عرفوا بقوة ايمانهم ورسوخ معرفتهم- وأن يحرص هذا المعلم على حضور دورات تدريبية تهدف الى تجويد تعليم الدراسات الاسلامية.

المصادر والمراجع

١- ابن هشام: السيرة النبوية- ٤ أجزاء- دار الجيل بيروت/ ١٩٧٥م.

٢- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد- أربعة أجزاء في مجلدين- دار الفكر/ بيروت ١٣٩٢هـ

٣- البخاري: صحيح البخاري: ٣ مجلدات.

٤- أبو الحسن علي الحسن الندوي: نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية- دار الإرشاد للطباعة والنشر- بيروت ١٣٨٨هـ

٥- أبو الفتوح صالح: مناهج المدرسة الابتدائية- دار القلم- الكويت- ١٩٧٣م.

٦- أحمد زكي صالح: علم النفس التربوي- - مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٦م.

٧- الدمرداش سرحان ومنير كامل- المناهج- الطبعة الأولى- القاهرة/١٩٦٦م.

٨- عبد الرحمن عزام: الرسالة الخالدة - (الطبعة الرابعة) بيروت/ ١٩٦٩م.

٩ - عبد الرحمن النحلاوي وعبد الكرم عثمان ومحمد خير

عرقسوسي: التربية وطرق التدريس، المملكة العربية السعودية- ١٣٨٩هـ.
١٠- عماد الدين خليل: دراسات في السيرة (الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة دار النفائس/ بيروت/ ١٣٩٨هـ.
١١- محمد أمين المصري: لمحات من وسائل التربية الاسلامية وغاياتها- دار الفكر دمشق.
١٢- محمد حسين هيكل: حياة محمد- الطبعة ١٣، مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٨م.
١٣- محمد قطب: منهج التربية الاسلامية- الطبعة الثالثة- ١٩٨٦هـ.
١٤- محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتب الحديثة- مصر الطبعة السابعة ١٩٧٦م.
١٥- محمد حامد الأفندي- نحو مناهج اسلامية- بحث قدم للمؤتمر الاسلامي العالمي الأول- جامعة الملك عبد العزيز- مكة المكرمة- ١٣٩٧هـ.
١٦- محمد فاضل الجمالي- الفلسفة التربوية في القرآن- دار الكتاب الجديد/ ١٩٦٦م.
١٧- محمود شيت خطاب: الرسول القائد- (الطبعة الرابعة- دار الفكر)



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الجانب الخلقي للنبي الكريم ﷺ

للشيخ عنتر أحمد حشاد
« قطر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

يتناول هذا البحث الموضوعات الآتية:

١- مكانة الخلق في الإسلام.

٢- خصائص الأخلاق الإسلامية.

٣- شغف الرسول- صلى الله عليه وسلم- بمكارم الأخلاق.

٤- أخلاقه صلى الله عليه وسلم.

٥- خاتمة.

(١) مكانة الخلق في الإسلام:

الخلق هو الهدف الأسمى للإسلام، ولبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام يقول صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[١]» فكأن هدف بعثته محصور في إتمام مكارم الأخلاق، وفي ذلك يقول أيضا: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا

---

(١) المناوى (عبد الرؤوف)، فيض القدير: شرح الجامع الصغير (بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١ هـ- ١٩٧٢م) ص ٥٧٢ من المجلد الثاني.

واليومَ يسير التجديد الحضاري بحكمة وأناة حينا، وبتسرع حينا آخر، ويميل إلى اتجاه أو آخر، ويقلّد ويجرّب ويعدّل........ ويعقد المعاهدات والاتفاقيات، ويحاول إنشاء حضارة جديدة، لكن من غير تخطيط موحَّد واضح المعالم لتشكيل الحضارة الإسلامية المقبلة.

والإسلام يقف الآنَ هو وحضارته موقفاً سبق أن وقفه في تاريخه أكثرَ من مرة في العصر العباسي، لما وقف الإسلام في مواجهة حضارة الأمم والأديان السابقة، وفي القرن التاسع عشر عندما وقف أمام فكر أوروبا وحضارتها.

وقد استطاع في الحالين أن يخرج بحضارته المتكاملة، بعلوم الدين والعوم العقلية والعملية وكل مظاهر التحضر.

وهو يقف اليومَ أمام الحضارة الغربية المعاصرة، بكل علومها وتياراتها الفلسفية ونظمها الاجتماعية والسياسية، وبكل مُنْجَزَات التطبيقات العلمية في الصناعة، صناعة أدوات الحياة ورفاهيتها وصناعة أدوات القوة والفتك.

ومع أن بلاد الإسلام قد استقلت وتحررت فإنها، لأسباب تاريخية معروفة ولأسباب جدّت مع امتلاك بلاد الإسلام لمصادر الطاقة والمواد الخام والنقط الاستراتيجية،

المصاب » من حديث رواه البزار عن ابن عباس[١].

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي- أولا- غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات وقد نص القرآن الكريم على الغاية من إخراج الزكاة بقوله سبحانه:

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها[٢] ».

ولهذا وسع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في دلالة كلمة الصدقة، فقال:

« تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة » رواه البخاري[٣].

---

(١) لجنة من كبار علماء الازهر الشريف، وأساتذة الجامعات، خطب الجمعة والعيدين (القاهرة:دار المعارف بمصر، ١٩٦٩) ص ٤٨.

(٢) من آية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) محمد الغزالي خلق المسلم (قطر: مطابع قطر الوطنية، الطبعة التاسعة ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر) ص٧.

وقال: «لا تحقرن من المعروف شيئا، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق». رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «على كل مسلم صدقة كل يوم. قالوا: يا نبي الله، فإن لم يجد؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف. فإن لم يجد؟ قال: فليأمر بالمعروف، وليمسك عن الشر. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر فإنها له صدقة[2]».

وفي الصوم يذكر الله ثمرته، وهي التقوى، فيقول سبحانه:

«يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون[3]»

فالصوم في الإسلام خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها المحظورة. ونزواتها المنكورة.

وإقرارا لهذا المعنى قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن

---

(١) ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية) ص ١٢٠ جـ١.

(٢) محمود شلتوت، ومحمد المدني، أحاديث الصباح في المذياع، ص ١٧٢.

(٣) آية ١٨٣ من سورة البقرة.

وحَضارةُ الإسلام قامت على الإسلام والمؤمنين به والمثل الأعلى الذي كان يحدوهم، فلما فسد الانسانُ المسلم في نفسه فسدت سياستُه ودبّ الفساد في حضارته.

وقد تحدث القرآن عن القانون الذي يحكم حياة البشر على هذه الارض، وهو قوله تعالى مُخاطِباً آدم ومن معه:
«فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ اتّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ ولاَ يَشْقى★ وَمَنْ أَعرضَ عن ذِكرى فإِنَّ له معيشةً ضَنْكاً ونحشره يومَ القِيامة أَعْمَى» (س ٢٠ / طه / ١٢٣ - ١٢٤).

وكثيراً ما يتعرض القرآنُ لأسباب تغير الحضارة، خصوصا الإعراض عن قوانين سياسة الحياة التي بيّنها اللهُ، وهي مبادىء الحق والعدل والخير التي وضعها الله، ثم الظلم والترف وضروب الانحراف والفساد الذي ينخر في جسم الأمة وحضارتها.

ولكل شيء في نظام الخليفة عمُره المقسوم أو هو له «أَجَلٌ مُسَمًّى»، كما يقول القرآن، إلا الحقّ فإنه أزليٌّ أبديٌّ، فالله هو الحق، وقوْله وأمرهُ حق، والعلم والهدى الذي جاء من عنده حق.

وحضارة الإسلام قامت من أول أمرها وازدهرت على

الله عليه وسلم، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلقه القرآن[١].

فكيف لا يكون في القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا؟

ولقد كان في هذه القمة، ولكنه مشغوف بالاستزادة، حتى إنه كان يقول في دعائه: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي، اللهم جنبني منكرات الأخلاق، اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلاّ أنت»[٢]

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته، فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[٣]» وكان لا يفتأ يحض المسلمين على التحلي بالفضائل، وينفرهم من الرذائل.

وله- صلى الله عليه وسلم- في هذا أحاديث كثيرة، منها قوله: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطأون أكنافا، الذين يألفون

(١) احمد محمد الحوفي. من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم (القاهرة. المجلس الأعلى للشئون الاسلامية- لجنة التعريف بالاسلام. الكتاب الأربعون. ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م) ص ٦٠.

(٢) احمد محمد الحوفي. من اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم (القاهرة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية- لجنة التعريف بالاسلام. الكتاب الأربعون. ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م) ص ٦٠.

(٣) حديث سبق ذكره.

ويؤلفون[1] ». رواه الترمذي.

وقوله: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل، الظامي بالهواجر[1] ». وقوله: «من سعادة المرء حسن الخلق[1] ».

وقوله: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق[1] ».

وسئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «خلق حسن[1] ».

وقيل له: أي المؤمنين أفضل إيمانا؟ قال: «أحسنهم خلقا[1] ».

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: خلق حسن[2] ».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق[3]» رواه الترمذي.

وقد جاءه رجل فوقف بين يديه وقال: يا رسول الله ما

---

(١) احمد محمد الحوفي، من أخلاق النبي (المرجع السابق) ص ٦٠.
(٢) محمود شلتوت، ومحمد محمد المدني، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠.
(٣) عز الدين بليق، مرجع سبق ذكره.

وإن صلى وزكى، وصام وحج، وزعم أنه مسلم، فهو يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[1]. «ليس المسلم بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء»[1] «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه[1]. «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه[1]».

٢- خصائص الأخلاق الإسلامية:

تتميز الأخلاق الاسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص

أ- الخيرية المطلقة:

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية الوضعية أن يكفل الخير الشامل المبرأ من الأثرة، أو من إيثار فريق من الناس على فريق، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء، ومقتضيات البيئة والملابسات.

أما الإسلام فقد كفل هذا الخير، لأنه شرع الأخلاق المثلى التي تحقق الخير المحض للفرد وللناس جميعا في كل البيئات، وفي جميع الحالات وفي كل الأوقات، فأمر

---

(١) محمود شلتوت، ومحمد المدني (مرجع سبق ذكره)

بالفضيلة، ورغب فيها، لأنها خير يجب أن يفعل، ونهى عن الرذيلة وبغضها الى الناس لأنها شر يجب أن يترك، وتسامى الإسلام بفاعلي الخير، وبتاركي الشر عن أن يتوقعوا جزاء من الناس، لأن الجزاء الأوفى من الله وحده، وسما بهم عن اتخاذ الخير سلما الى شهرة، أو مجد، أو مباهاة، أو تسلط، أو شعور باللذة والاستمتاع، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة، أو آجلة، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله تعالى، ليتحقق فيه الإخلاص: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين»[1]. والرياء، أو المباهاة والافتخار، أو المن والأذى، كل ذلك يحبط العمل، ويبطل ثوابه، بل يجعله شركا بالله «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر[2]» «إن الله لا يحب كل مختال فخور[3]».

فالكرم مثلا كان خلقا فاضلا في الحياة الجاهلية، لكن الباعث عليه كان الرغبة في المدح والفخر، والبخل كان رذيلة طالما كان مناط ذم وهجاء. كذلك كان مبعثه

---

(١) من آية ٥ من سورة البينة.
(٢) من آية ٢٦٤ من سورة البقرة.
(٣) من آية ١٨ من سورة لقمان.

مقتضيات البيئة، وضرورات الحياة التي يغلب فيها الترحال والتجوال، فمن يقري ضيفه اليوم قد يحتاج إلى أن يضيفه في الغد، وكذلك كان المال في نظرهم وسيلة إلى كسب المحامد، ونيل السيادة.

أما الكرم في الإسلام فإنه مظهر لسخاء النفس، وكرم اليد، ورحمة القلب، وابتغاء مرضاة الله، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه.

وكذلك مبعث الكرم في الإسلام أن المال مال الله، وأن صاحب المال خليفة عليه موقوت، لا بد أن يتركه لسواه: «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه[1]» وأن هذا المال ليس حقا لمالكه وحده، بل له شركاء فيه من الفقراء والمساكين والمحاويج، ومن مرافق الدولة، وصالحها العام: «وفي أموالهم حق للسائل والمحروم[2]». والغاية من هذا الكرم ليست الأبهة والسيادة والعطف المشوب بالرياء، بل غايته القربى إلى الله تعالى، والشوق إلى ثوابه، ولهذا حض الإسلام على أن يكون البذل في خفاء، وجعل صدقة السر أفضل من صدقة العلانية. قال تعالى:

---

(١) من آية ٧ من سورة الحديد.

(٢) من آية ١٩ من سورة الذاريات.

« إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم[١] ».

وعدّ صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: « ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه[٢] » رواه البخاري ومسلم.

وَقُلْ مثل ذلك في الشجاعة، وسائر الاخلاق.[٣]

ب- الوسطية والاعتدال

الاسلام وسط في كل شيء: في العقائد، في صلة الانسان بالحياة، في علاقة الفرد بالمجتمع، في علاقة الامم بعضها ببعض، في طريقة التشريع: « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ».

وهو- كذلك- وسط في الأخلاق بين الذين يتحللون من كل الفضائل، والذين يشتطون في تصور الفضيلة والتزام طرف التشدد فيها: يقرر أن الفضيلة وسط بين الرذيلتين:

---

(١) من آية ٢٧١ من سورة البقرة.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (الكويت: المطبعة العصرية) ص ٢١٦.

(٣) أ - الحوفي، « خصائص الأخلاق الاسلامية » الوعي الاسلامي، العدد ١٧٣ مقتبس بتصرف وزيادات، واستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ب- يوسف القرضاوي وآخرون، الإلزام الخلقي (قطر: مطابع قطر الوطنية، الطبعة الثالثة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م) ص ١٥٨، ١٥٩.

لا جبن ولا تهور، لا بخل ولا تبذير، لا استكبار ولا استخذاء، لا جزع ولا استكانة.

وأساس ذلك كله قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً «والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» وقوله صلى الله عليه وسلم: خير الأمور أوساطها» البيهقي[١].

جـ- العالمية:

والأخلاق في الإسلام إنسانية عالمية، لا تبيح لجنس ما تحرمه على آخر: العرب والعجم فيها سواء، بل المسلمون وغيرهم أمامها سواسية، الفضائل واجبة في التعامل مع المسلم وغير المسلم: الأمانة، والوفاء بالعهد، والعدل، والصدق، والبر... ما لم يكن الكافر حربا على المسلمين: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا

---

(١) أ- محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم (القاهرة: دار القلم) المجلد الأول ص ٤٠.

ب- عز الدين بليق، منهاج الصالحين (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر) ص ١٩٦

علـى إخراجـكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئـك هم الظالمون[1] ».

والرذائل كذلك محرمة في التعامل مع المسلم وغير المسلم: « ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا[2] » « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا[3] ».

وبهذا تنزهت الأخَلاق الإسلامية عن النزعة العنصرية القوميـة الـتي اتسمت بها الأخلاق اليهودية، والأخلاق القبلية والبدائية على وجه العموم[4].

د- الثبات:

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين، وكفيلة بالخير المطلق، وصالحة للناس جميعا في كل زمان ومكان، فهي سمحة ميسورة، معقولة، ملائمة للفطرة، ولهذا اتسمت بالثبات والدوام والاستقرار، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام.

أما المذاهب الوضعية فإنها متقلبة، مضطربة، قاصرة

---

(١) آيتا ٨ و ٩ من سورة الممتحنة.

(٢) من آية ٢ من سورة المائدة.

(٣) من آية ٨ من سورة المائدة أيضا.

(٤) يوسف القرضاوي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠١.

الصلاحية، ولهذا تعددت في مختلف الأعصار، بل في العصر الواحد[1].

هـ- الإلزام المستجاب:

يحدث في كثير من الأحيان أن يتحايل الناس للخروج من قيود القوانين والمذاهب الوضعية في الأخلاق إذا ما واتتهم فرصة التحايل والفرار، وأمنوا ألا يؤاخذوا بالعصيان.

أما الأخلاق الإسلامية فإنها تستمد من شارعها قوة نافذة تلزم بها في العلن والخفاء، وفي السراء والضراء، لأن الرقيب عليها هو الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وهذا الإلزام محبوب مطاع، لأنه أمر الله العليم الحكيم.

ثم إن الأخلاق الإسلامية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى، فلا يجترىء إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام، ثم لا يلبث إذا خالفها أن يندم على ما اجترح، وقد يجره الندم إلى الأسى، وإلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى مخالفة[2].

---

(١) أحمد الحوفي، مرجع سبق ذكره.

(٢) احمد الحوفي، نفس المرجع.

و- الاتصال والترابط بين الفضائل:

لو نظرنا إلى كل فضيلة لوجدناها موصولة بفضائل أخرى، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر........... وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور.........[١]» ولا شك أن «البر» الذي يهدي إليه الصدق- يعني: التوسع في الخير: في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، من الوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، كما تبينه آية البر من سورة البقرة، آية ١٧٧.

ومثل ذلك يقال في الرذائل، كما يرشد إليه الحديث نفسه، فالكذب طريق إلى المعاصي، وارتكاب المحرمات، وإذا نظرنا إلى الزهد، وهو العزوف عن المباح مع القدرة عليه، تهذيبا للنفس، وإيثارا لنفع الآخرين وجدناه موصولا بفضائل أخرى، مثل: القناعة، والعفة، والصبر، والتواضع، والإيثار.

والحياء يمنع من مخالفة أمر الله، ويقضي بطاعته ومراقبته، والابتعاد عما يغضب الله، فصاحب الحياء لا يظلم، ولا يسرق، والحياء في النعمة شكر، وفي المصيبة

---

(١) المناوي، مرجع سبق ذكره. مجلد ٤، ص ٣٤٣. حديث رقم ٥٥٣٦.

صبر، وفي المعصية ندم وتوبة، وفي الأقوال صدق، وفي المعاملة شرف، وفي العرض عفة، وفي الحرب شجاعة، وفي الأموال سخاء، وفي القضاء عدل، وفي الودائع أمانة، وفي الكروب رحمة، وفي المظالم إنصاف، وهكذا يجمع الحياء من الله كل الفضائل التي يطلبها الإيمان بالله، ومن هنا كان الحياء قرين الإيمان، كما جاء في الحديث النبوي: «الحياء والإيمان قرينان، فإذا رُفع أحدهما رفع الآخر[1]».

وذلك إلى خصائص أخرى ترجع إلى ما سبق، كالصلاحية العامة، والرقابة المحيطة، وملاءمتها للفطرة، ومراعاتها للواقع، وإيجابيتها، وشمولها، وكونها معللة مفهومة.... فلا داعي للإطالة بذكرها.

٣- شغف الرسول- صلى الله عليه وسلم- بمكارم الأخلاق:

اصطفى الله رسوله من أكرم دوحة، وتعهده في طفولته وشبابه واكتهاله- إلى أن اختاره ليكون مبشرا ونذيرا، فرباه أشرف تربيب، وأدبه أحسن تأديب، وصنعه على

---

(١) أ- أحمد الحوفي، من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة التعريف بالإسلام، الكتاب الأربعون، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م) ص ٢٥٥.
ب- محمود شلتوت، ومحمد محمد المدني، مرجع سبق ذكره ص ١٠.

عينه.

أدبه بمثل قوله تعالى: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[1] » «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين[2] » « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن[3] ».

شب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- والله تعالى يكلؤه، ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى أصبح رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزها وتكرما[4]، حتى لقبه قومه « الصادق الأمين ».

وكان خلقه القرآن، كما جاء في الحديث: قال سعد ابن هشام: دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى

---

(١) آية ١٩٩ من سورة الأعراف.
(٢) من آية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٣) من آية ١٢٥ من سورة النحل.
(٤) ابن هشام. السيرة النبوية (بيروت: دار الجيل) الجزء الأول. ص ١٦٧.

الدين؟ قال: « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه، فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: « حسن الخلق » ثم أتاه من قبل شماله فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه، وقال: « أما تفقه؟ هو ألا تغضب[1] ».

والذي يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أن النبي عليه الصلاة والسلام ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق ربط.

كما يفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ويبطل الطاعات، فقد قال:

« سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل[1] ».

وقال: « إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم[1] ».

وقال: « الشؤم سوء الخلق[1] ».

وبلغ من كلفه بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبي بنت حاتم الطائي لكرم أخلاق أبيها، فإنها جاءت إلى النبي في سبايا طيء، فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي

---

(١) احمد محمد الحوفي. مرجع سبق ذكره، ص ٦١.

كان يحمي الذمار، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال صلى الله عليه وسلم: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق».

فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله! الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال الرسول: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق[١]».

كان صلى الله عليه وسلم شغفا بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه، فكان المثل الأعلى في كل فضيلة، وكان خليقا بثناء الله- سبحانه وتعالى- عليه في كتابه الكريم.

يقول سبحانه مخاطبا نبيه: «وإنك لعلى خلق عظيم[٢]» ويقول: «فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك[٣]».

ويقول: «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه لقول

---

(١) احمد محمد الحوفي. المرجع السابق. ص ٦١ ، ٦٢.
(٢) آية ٤ من سورة القلم.
(٣) من آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

رسول كريم[١] ».

ويقول: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا[٢] ».

وحسبه من التشريف الإلهي أن الله تعالى أقسم بحياته في قوله: « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون[٣] »، ولم يقسم الله بحياة أحد غيره صلى الله عليه وسلم.

وحسبنا من وصف أصحابه له قول علي بن أبي طالب: « إنه كان أجود الناس كفا، وأجرأ الناس قلبا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه ».

وقوله أيضا- وهو من أعرف الناس به، وأكثرهم عشرة له- وأقدرهم على البيان:- :

« لم يكن فاحشا[٤] متفحشا[٥]، ولا صخابا[٦] في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ما

---

(١) آيات ٣٨، ٣٩، ٤٠ من سورة الحاقة.
(٢) آية ٢١ من سورة الأحزاب.
(٣) آية ٧٢ من سورة الحجر.
(٤) لم يكن فاحشا: لم يكن ذا فحش من القول والفعل.
(٥) المتفحش: المتكلف بالفحش، أي: ولم يكن الفحش له خلقيا ولا كسبيا.
(٦) صخابا: كثير الصخب، وهو الصياح.

ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادما ولا امرأة، وما رأيته منتصرا[1] من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله كان من أشدهم غضبا، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وإذا دخل بيته كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه[2]، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[3] ».

فلنشرع في السقيا من جداول نهره الزاخر بمكارم الأخلاق:

٤- أخلاقه صلى الله عليه وسلم:

عرفنا أن خلق النبي- صلى الله عليه وسلم- هو القرآن، كما قالت عنه زوجه العليمة به، السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، ولو شئنا أن نجيء بطرف مما في القرآن في أدب النفس، وتهذيب الأخلاق لا نفسح المجال إلى ما لا تنفسح له هذه العجالة، وحسبنا أن نذكر أنه ما حض كتاب على الخير والفضل ما حض القرآن، وما سما كتاب بالنفس الإنسانية ما سما بها القرآن، وما تحدث كتاب عن البر

---

(١) منتصرا: منتقما.

(٢) فلى يفلي رأسه أو ثوبه فليا: نقاها من القمل.

(٣) السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، السيرة النبوية (جدة- دار الشروق)

والرحمة، وعن الإخاء والمودة، وعن التعاون والوفاق، وعن الصدقة والإحسان، وعن الصدق والوفاء، وعن العدل وأداء الأمانة، وعن سلامة القلب وصدق الطوية، وعن العفو والصفح والمغفرة، وعن الصبر والثبات، وعن التواضع والحلم، وعن الخير والفضل، وعن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعن الزهد والحياء، وعن الشورى وطيب العشرة، وعن الشجاعة والكرم، وعن العفة والعزة، وعن حب العمل ونفع الناس،- ما تحدث القرآن.

وما نهى كتاب عن الضعف والجبن، وعن الأثرة والحسد، وعن البغض والظلم، وعن الحقد والكيد، وعن الكذب والنميمة، وعن التبذير والبخل، وعن البهتان واللمز، وعن الاعتداء والإفساد، وعن الغدر والخيانة، وعن كل رذيلة ومنكر- ما نهى القرآن.

فلو أننا أردنا أن نتحدث في كل خلق من أخلاقه- صلى الله عليه وسلم- لما استطعنا، وحسبنا أن نختار أمثلة منها:

أ- الشجاعة:

كانت شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدفاع عن النفس، وعن الدين، وعن الحق، وعن الصحب، وعن

المثل العليا التي يدعو إليها.

كان- صلى الله عليه وسلم- المثل الأعلى في الشجاعة، إذ كان شجاعا في السلم، وشجاعا في الحرب، كان شجاعا في وحدته، وفي قلة من أنصاره، وشجاعا في جماعته، وفي كثرة من أعوانه، كان شجاعا في جهره بالحق، وفي دفاعه عن العقيدة مهما تكن عاقبة الشجاعة.

كانت شجاعته متعددة الألوان، متنوعة الضروب، تجمعها شجاعة الرأي وشجاعة الحرب.

لقد قضى حياته قبل البعثة ساخطا على ما يرى من فساد العقيدة، وضلال العقول، وعمي القلوب، وانحلال الأخلاق.

ثم اجتباه الله- تعالى- لرسالته، فثبت على الدعوة إليها ثباتا لا يتخلخل، وغار على دينه غيرة لا تتحول ولا تتبدل. لم يصده عنها أذى، أو تهديد، أو إغراء.

كذلك تجلت شجاعته الحربية منذ مطلع شبابه، فقد شهد حرب الفجار، وكان ينبل[1] على أعمامه، وهو في سن الرابعة عشرة، أو الخامسة عشرة.

وبعد النبوّة كان يشارك في الغزوات، ويقدم إقدام

---

(١) ينبل على أعمامه: يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

البطل، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده.

ومن مظاهر شجاعة رسول الله أنه كان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها، وألقابا تدل عليها، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز، كأنما هي أناسي من جنوده الأوفياء، وأعوانه الأصدقاء.

فرايته التي يحضر بها الحرب اسمها العقاب[1]

وسيفه الذي لم يفارقه في حرب من الحروب اسمه ذو الفقار.[2] وله سيوف أخرى، هي المخذم[3]، والرسوب[4]، والقضيب[5]، والقلعي[6]، والبتار[7]، والحتف[8]، والعضب[9]، والصمصامة[10].

---

(١) العقاب (بضم العين): طائر من كواسر الطير قوي المخالب حاد البصر.

(٢) كان في وسطه مثل فقرات الظهر.

(٣) المخذم: القاطع.

(٤) الذي يرسب ويستقر في الضريبة.

(٥) القضيب: القاطع.

(٧) نسبة إلى برج القلعة. وهو موضع بالبادية

(٧) البتار: الشديد القطع.

(٨) الحتف: الهلاك

(٩) العضب القاطع.

(١٠) الصمصامة: السيف الذي لا ينثني.

وأسماء قسيه: السداد، والكتوم، والروحاء، وشوحط[1].

وكنانة سهامه اسمها: الجمع[2]

ولحرابه، ومجنه، وأتراسه، ورماحه، وأدراعه، وأفراسه، وبغلته، وناقته، لكل منها اسمه الخاص به[3].

وأما الغاية من شجاعته فإنها إعلاء كلمة الله، والدفاع عن التوحيد الخالص، وحماية الإسلام من عدوان المشركين، وتحرير الناس من أغلال الوثنية، وأصفاد الفساد، ومخازي العقائد والنظم، ومفاسد الأخلاق، لتحل محلها أسمى عقيدة، وأصلح نظام في السياسة والإدارة، والمعاملات، والاجتماع.

وله- صلى الله عليه وسلم- في الحث على الشجاعة، وتحبيبها إلى المسلمين- كثير من الأحاديث منها:

١- من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل

---

(١) السداد: المصيبة الموفقة. الكتوم: المنخفضة الصوت عند الرمي بها. الروحاء: موضع على ثلاثين ميلا من المدينة. الشوحط: شجر بالجبال تتخذ منه القسي.

(٢) الجمع: المثقلة، أو المستورة

(٣) احمد محمد الحوفي، من أخلاق النبي (مرجع سابق)، ص ٦٣- ٧٩ بتصرف.

دون أهله فهو شهيد » الجامع الصغير.

٢- « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » الجامع الصغير.

٣- قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله: « مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله » فتح المبدي.

٤- « مثل المجاهد في سبيل الله- والله أعلم بمن يجاهد في سبيله- كمثل الصائم القائم، وتوكل[١] الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة » فتح المبدي.

٥- « لغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها » فتح المبدي.

٦- « الا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ».

٧- « من أحسن الرمي ثم تركه فقد ترك نعمة من النعم » الجامع الصغير

٨- « لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل » فتح المبدي.

---

(١) توكل: تكفل.

٩- قال في يوم بدر: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.»

١٠ والذي نفسي بيده لا يكلم[١] أحد في سبيل الله- والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب[٢] دما، اللون لون الدم، والريح ريح المسك» فتح المبدي[٣].

ب- الكرم:

في صحيح مسلم، عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس[٤]» الحديث.

وفيه أيضا عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان. إن جبريل عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى ينسلخ فيعرض عليه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) يكلم: يجرح.

(٢) يثعب: يجري

(٣) احمد محمد الحوفي، المرجع السابق، ص ٨٢- ٨٤ بتصرف.

(٤) مسلم، مرجع سبق ذكره، ص ٦٧- الى ٦٩. جـ١٥

وسلم القرآن، فإذا لقيه جبريل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة[1]

« كان صلى الله عليه وسلم أجود بني آدم على الإطلاق، كما كان أفضلهم، وأعلمهم، وأشجعهم، وأحسنهم خلقا، وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دينه، وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولم يزل صلى الله عليه وسلم على هذه الخصال الحميدة منذ نشأ، ولهذا قالت له زوجه خديجة رضي الله تعالى عنها في أول مبعثه: « والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتقرى الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق » ثم تزايدت هذه الخصال فيه بعد البعثة، وتضاعفت أضعافا كثيرة[2] ».

وفي صحيح مسلم: عن أنس قال: « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم- على الإسلام- شيئا إلا أعطاه، فجاء

---

(١) زين الدين بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (قطر: مطابع قطر الوطنية) ص ١٧٣، ١٧٤.

(٢) زين الدين بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (قطر: مطابع قطر الوطنية) ص ١٧٣و ١٧٤

رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة » قال أنس: « إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ».

وخرج البخاري من حديث سهل بن سعد « أن شملة أهديت للنبي- صلى الله عليه وسلم- فلبسها وهو محتاج إليها فسأله إياها رجل فأعطاه، فلامه الناس، وقالوا: كان محتاجا إليها وقد علمت أنه لا يرد سائلا، فقال: إنما سألتها لتكون كفني، فكانت كفنه ».

وقد كان الكرم من سجايا النبي عليه السلام فطرة، وتربية إلهية، وتوجيها من القرآن.

وكان جوده- صلى الله عليه وسلم- كله لله وفي ابتغاء مرضاته فإنه كان يبذل المال إما لفقير محتاج، أو ينفقه في سبيل الله أو يتألف به على الاسلام من يقوى الإسلام بإسهامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع. وكان قد أتاه سبي مرة، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت

وطلبت منه خادما يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد عند نومها، قال: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع[1]».

ومن أحاديثه في الحض على الكرم:

١- «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار» تيسير الوصول.

٢- اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى من ليس من أهله، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله».

٣- «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم» البخاري

٤- «إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق، فإنه أوسع وأبلغ للجيران». الجامع الصغير.

٥- «ليس المؤمن بالذي يشبع، وجاره جائع إلى جنبه» الجامع الصغير.

٦- «إن الله تعالى يبغض البخيل في حياته، السخي عند موته» كنز العمال.

---

(١) زين الدين بن رجب الحنبلي، المرجع السابق. ص ١٧٤و ١٧٥

٧- « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا » صحيح مسلم[١].

جـ- الصدق:

الصدق: هو قول الحق الصراح، والإخبار بالواقع الذي يعلمه المتكلم.

وحسب الصدق شرفا أن الله تعالى وصف به وَعْدَهُ في قوله: « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون[٢] »

ووصف به ذاته العلية في قوله:

« ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون[٣] ». وفي قوله: « ومن أصدق من الله حديثا[٤] ».

ولقد أَجْمَعَ الذين عرفوا النبي وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين، لم يجربوا عليه كذبا قط، ولهذا لم يشكوا في

---

(١) أحمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤ و ٦٥.

(٢) آية ١٦ من سورة الاحقاف.

(٣) من آية ١٤٦ من سورة الأنعام.

(٤) من آية ٨٧ من سورة النساء.

خبر من أخباره، أو يستريبوا في قول من أقواله.

وصفته السيدة خديجة رضى الله عنها في أول بعثته بالصدق في قولها له:

«أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث....».

وقريش أعلنت أنه صادق، وأنهم ما جربوا عليه كذبا، حينما جمعهم ليصدع بالدعوة جهرة، وصعد الصفا.

وإنهم- وإن كذبوه في دعوى النبوة- لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب في سواها، فقد قال أبو جهل للنبي: إنا لا نكذبك، وما أنت فينا بمكذب، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى:

«قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون[1]».

ولما لقي الأخنس بن شريق أبا جهل يوم بدر قال: يا أبا

---

(١) أ- السيوطي.جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.أسباب النزول.كتاب التحرير. (القاهرة: مطابع شركة الاعلانات الشرقية، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر ١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م) ص ٧٩ عمود ٢ آية ٣٣ من سورة الأنعام.

ب- عبد العزيز مصطفى زهيري وآخرون. الهادي في التربية الدينية للصف الثالث من دور المعلمين والمعلمات (القاهرة: مطابع دار الهلال بالقاهرة. طبعة ١٩٧٤م) ص٥٥

الحكم ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا ، أخبرني عن محمد صادق أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق، وما كذب قط. الشفا

وقد جاء في وصف جعفر بن أبي طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو ابن العاص، وعبد الله ابن أبي ربيعة ليكرهاه في المهاجرين، ويشوها موقفهم عنده فيخرجهم من ضيافته وجيرته:

«أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش.... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ولنعبده.... وأمرنا بصدق الحديث وصلة الرحم وحسن الجوار...[١]».

وتآمرت قريش على أن تشيع في الوافدين إلى مكة أن محمدا ساحر، فردها عن هذه الفرية ألد أعدائه: النضر ابن الحارث، إذ قال لهم: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، فكان أرضاكم فيكم، وكان أصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم:

---

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي) جـ٢٨ ص٩٥.

« ساحر »، « لا والله ما هو بساحر ».

ومهما يكن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله فإننا لا نتطلب منه أن يكشف لأعدائه عن خططه ونواياه، فماذا كان يفعل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في مثل هذه الحال؟

كان يستخدم التورية أو الكناية، فيجد مندوحة من الصدق الضار، ومن الكذب الذي لا يليق به ولا يرضاه.

ومن أحاديثه في الحث على الصدق، والتنفير من الكذب:

١- « ما أملق تاجر صدوق ».

٢- « لا تزال أمتي صالحا أمرها مالم تر الأمانة مغنما، والصدق مغرماً ».

٣- « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا ».

٤- « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا، هو لك به مصدق، وأنت له به بكاذب ».

٥- « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان »(١)

---

(١) احمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٦- ١٣٨ جمعت منها الأحاديث النبوية في الصدق.

د- الأمانة:

الامانة- بمعناها الخاص- رد الشخص المال أو المتاع إلى من ائتمنه عليه. وبمعناها الواسع العام: تشمل إلى المعنى الخاص. كتمان السر، وإخلاص المشورة للمستشير، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه.

وهكذا ترتبط الأمانة- في معنييها- بعدة فضائل كالصدق، والصبر، والشجاعة، والعفة، والعدل، والوفاء.

قال ابن مسعود: «الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة...» وعد أشياء أخرى تدخل في نطاق العبادات والمعاملات.

وسئل البراء بن عازب عما قاله ابن مسعود، فقال: «صدق. أما سمعتم قول الله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[1]».

وأمانة الرسول- كفضائله كلها- شاملة، كاملة، متعددة المظاهر:

١- وأعظم مظاهرها: نهوضه بتبليغ الرسالة التي ائتمنه الله عليه، وكلفه أن يقوم بها، فبلغها للناس أعظم ما

---

(١) عبد الله مصطفى المراغي، العظات البينات (القاهرة: دار الفكر العربي) ص ٧٠

يكون التبليغ، وقام بأدائها أعظم ما يكون الأداء، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله بشر.

٢- وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته، فكانوا يسمونه «الأمين» ولهذا ارتضوه حكما في نزاعهم في وضع الحجر الأسود.

٣- غضبه من ابن اللتبية بسبب أخذه هدايا وهو يجمع الصدقات.

٤- مر على كومة من الطعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا». إلى غير ذلك من المظاهر التي تقتضيها الأمانة.

ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم في الحث على الأمانة:

١- «العارية مؤداة، والمنحة[1] مردودة، والدَّين مقضي، والزعيم[2] غارم».

٢- «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

٣- «من انتهب فليس منا»

---

(١) المنحة: الشاة أو الناقة تعطيها غيرك ليشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها.

(٢) الزعيم: الضامن.

٤- «لا إيمان لمن لا أمانة له».

٥- «لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت[1]».

هـ- الوفاء:

كان رسول الله - كما قال علي بن أبي طالب- أوفى الناس ذمة، وقد عظم وفاؤه واتسع، فشمل كل ضروب الوفاء، حتى مع الأعداء.

بينما كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يكتب معاهدة قريش جاءه أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، ويعلن إسلامه، فرده رسول الله إلى قريش وفاء بالعهد الذي لم يتم توقيعه، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين كيف أرد إلى قريش وقد جئت مسلما؟ الا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب عذابا شديدا، فاشتد الأمر على المسلمين، وقالوا: كيف نرد إلى المشركين من جاءنا مسلما وهم لا يردون إلينا من جاءهم مرتدا؟

فقال النبي: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مخرجا[2]

---

(١) احمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٤- ١٤٦ ومنه جمعت الأحاديث.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سبق ذكره.

وقد عاش صلى الله عليه وسلم وفيا لذكرى زوجته السيدة خديجة، ولم يلهه عن هذا الوفاء زواجه بالسيدة عائشة، أو السيدة حفصة، أو غيرهما، بل كان يذكرها بالتقدير فتغار منها السيدة عائشة، حتى لقد قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزا بدلك الله خيرا منها؟ فغضب وقال: لا والله، ما بدلني الله خيرا منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء.

وكان إذا أُتي بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة.

وكان يذبح الشاة فيهديها الى خلائل خديجة.

واستأذنت عليه أخت خديجة فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين[1]

كان وفيا لنعم الله، فأجهد نفسه في القيام بشكرها.

وكان وفيا لحليمة السعدية أمه من الرضاع، وفيا لوطنه، أحب مكة أعظم الحب.

وكان يحفظ لصاحب الجميل جميله، ويكافئه عليه.

---

(١) احمد محمد الحوفي مرجع سبق ذكره، ص ٣٠١.

وأمر بالوفاء للحيوان لقاء ما عمل وخدم. أقبلت ليلى امرأة أبي ذر على ناقة من إبل رسول الله بعد غزوة ذي قرد، فقالت: يا رسول الله أني نذرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها، فآكل من كبدها وسنامها.

فتبسم رسول الله، ثم قال: بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها، ونجاك بها، ثم تنحرينها، إنه لانذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله[1].

ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم في الحض على الوفاء:

١- عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر[2].

٢- «من البر أن تصل صديق أبيك».

٣- «من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده».

---

(١) ابن هشام، مرجع سبق ذكره.

(٢) محمود شلتوت ومحمد محمد المدني، مرجع سبق ذكره ص١٣.

٤- « العدة دين، ويل لمن وعد ثم أخلف، ويل لمن وعد ثم أخلف، ويل لمن وعد ثم أخلف[١] »

٥- الوعد مثل الدين أو أفضل ».

٦- « إذا واعد الرجل أخاه وفي نيته أن يفي، فلم يجد فلا إثم عليه[٢] ».

و- الرحمة:

تردد وصف النبي- صلى الله عليه وسلم- بالرحمة في كتاب الله وذلك في قوله سبحانه:

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم[٣] »

« « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٤] ».

« فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك[٥] ».

لهذا أنس المسلمون إلى رسول الله من رجال ونساء، كما

---

(١) أحمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره ص ٣٠٥

(٢) عبد الله مصطفى المراغي، مرجع سبق ذكره ص ٦٦و ٦٧.

(٣) آية ١٢٨ من سورة الأنبياء.

(٤) آية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٥) من آية ١٥٩ من سورة آل عمران.

يأنس الأطفال إلى الأمهات والآباء، وكان أنسهم منبعثا عن حب وإجلال، وإطمئنان إلى سماحة نفسه ورحمته.

فقد استأذن عمر بن الخطاب على النبي، وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه، وأصواتهن عالية، فلما استأذن عمر أسرعت كل منهن إلى حجابها، فدخل عمر ورسول الله يضحك، فقال عمر: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: عجبت لهؤلاء لما سَمِعْنَ صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله، ثم أقبل عليهن عمر فقال: «يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟ قلن: نعم، أنت أغلظ وأَفظّ[1] من رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: إيهاً يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجِّك[2]».

وقد تعددت مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم، فوسعت المسلمين وغير المسلمين، واتسعت للأصدقاء والأعداء، وشملت الأحرار والأرقاء، وامتدت إلى الكبار والصغار، وأستوعبت الأناسي والحيوان.

---

(١) أفعل التفضيل ليس على بابه، والمعنى: أنت غليظ وفظ.

(٢) أحمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره.

١- قال صلى الله عليه وسلم: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز- أخفف- في صلاتي كراهية أن أشق على أمه». فتح المبدي.

٢- حينما اتجه الرسول إلى مكة فاتحا لقيه أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته فيهما أم سلمة، فلم يأذن لهما لما كان منهما من أذى واعتداء.

فلما علما بذلك، وكان مع أبي سفيان ابن صغير له قال: والله ليأذنن لي، أو لآخذن ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا

فلم يلبث رسول الله حين سمع بذلك أن رق لهما، ثم أذن فدخلا عليه فأسلما[١].

٣- قال لأصحابه عند توزيع الأسرى في غزوة بدر: «استوصوا بالأسارى خيرا[٢]».

٤- كان يداعب الأطفال، ويجلسهم في حجره، وكان يَصُفّ عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس، ويقول: من سبق إليّ فله كذا، فيستبقون

(١) (٢) ابن هشام. السيرة النبوية مرجع سبق ذكره.

إليه، فيقعدون على صدره، فيقبلهم، ويلتزمهم[1].

٥- مر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ببعير قد لحق ظهره ببطنه- أي التصق بطنه بظهره من الجوع- فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[2]».

٦- رأى حمارا قد وسم في وجهه، فأنكر ذلك، ونهى عن وسم الحيوان في وجهه، وعن ضربه على وجهه[3]. تيسير الوصول.

٧- أرسل وصيفة في قضاء عمل، فأبطأت عليه، فقال لها: «لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك[3]».

٨- تعثر الحسن والنبي على المنبر، فنزل، فحمله، وقرأ قوله تعالى: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة».

٩- كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم.

---

(١) أحمد الحوفي، مرجع سبق ذكره، نقلا من السيرة الحلبية ٣/٣٧٧

(٢) محمود شلتوت، ومحمد محمد المدني، مرجع سبق ذكره ص ١٤٧.

(٣) احمد محمد الحوفي، مرجع سبق ذكره.

ز- **الزهد:**

الزهد: هو العزوف عن المباح مع القدرة عليه، تهذيبا للنفس، وإيثاراً لنفع الآخرين.

فإن كان العزوف عن معجزةٍ وضيق فإنه لا يسمى زهدا، لأنه اضطرار لا مندوحة عنه.

وكذلك إن كان العزوف تعذيبا للنفس وإذلالا لها فحسب بدون قصد إلى نفع يتحقق للآخرين فإنه ليس من الزهد في شيء.

والزهد بهذا المعنى السامي فضيلة موصولة بفضائل أخرى، مثل: القناعة، والعفة، والصبر، والتواضع، والإيثار.

وهو مظهر للاقتدار على حرمان النفس مما تجد، وتقوية للعزيمة لأن الاستمتاع الدائم يعود النفس طلب المزيد.

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت

ولم ينهها تاقت الى كل مطلب

وقد كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الزهد، لأنه كان زهد المختار، القادر، المؤمن بأن الاستمتاع المباح حلال، المؤثر على نفسه فقراء الأمة، ومصالح الإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرسول- صلى الله عليه وسلم كان له مال، وكان ماله كثيرا في بعض الأحيان، وخاصة بعد الغزوات من الغنائم والفيء فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ ما بقي منها بعد نفقة أهله، فيجعله مجعل مال الله في السلاح والخيل ومصالح المسلمين[1]

وهو- بزهده- ربى كثيرا من الرجال، فتخلقوا بمثل خلقه وانصرفوا عن الخضوع لِلّذات ومآرب النفوس. وآثروا غيرهم على أنفسهم كأبي بكر وعمر وعلي، وغيرهم من كبار الصحابة وولاة الأقاليم.

١- كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يأكل متكئا.

٢- وقالت السيدة عائشة: «لم يمتلىء جوف النبي شبعا قط، وكان لا يسأل أهله طعاما ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه وما سقوه شرب».

ولم يأخذ رسول الله نفسه وحدها بالزهادة، بل زهَّد أقرب الناس إليه، فطبق زهده على ابنته السيدة فاطمة، وعلى زوجاته جميعا. ليجعل منهن قدوة للمسلمات.

ولقد اختارت زوجاته الله ورسوله والدار

---

(١) أحمد الحوفي. مرجع سبق ذكره. ص ٢٥٥و ٢٥٦و ٢٦٢.

الآخرة بعد نزول الآيتين ٢٨و ٢٩ من سورة الأحزاب: « يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعَدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً » فأعرضن عن الحياة الدنيا وزينتها عزوفا وزهدا رضى الله تعالى عنهن أجمعين.

ولقد حث المسلمين على الزهد بقوله:

١- «ازهد في الدنيا يحبك الله، وآزهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» كنز العمال.

٢- من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »

وحسبنا- في هذا المقام- هذه الفضائل، بعد أن عرفنا أن كل فضيلة منها موصولة بفضائل أخرى، وبعد أن عرفنا أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كان المثل الأعلى في كل فضيلة، ولا يبغي بها كسب محمدة، أو اتقاء منقصة، وإنما كان اتصافه بهذه الفضائل في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

نسأل الله- عزّ وجل- أن يوفقنا للاقتداء به، والتمسك بسنته.

خاتمة:

أما بعد:

فإن لكل بحث نتائج ينتهي إليها، وحقائق يشيد عليها، فما نتائج هذا البحث، وما حقائقه؟

(١) لقد اتضح أن المذاهب الأخلاقية الوضعية لا تخلو من قصور وعيب، لأنها من وضع أفراد مهما يبلغوا من ذكاء العقل، وصواب الرأي، وحسن النيـــــة. فإنهم متأثرون ببيئاتهم، ومزاجهم، وبتفكيرهم، واهتمامهـم بجانب على حساب جانب آخر، ولهذا تباينت آراؤهم، وتنافرت أهدافهم، ولم يصح مذهب من مذاهبهم لأن يكون دستورا ثابتا يطب لأدواء البشر، ويكفل الخير لهم على اختلاف الأمصار والأعصار.

(٢) أما الأخلاق الإسلامية فهي المثل الأعلى الذي يجب على الناس جميعا أن يستشرفوه، لأن ينبوعها الـدين، ومحورها التقوى، وغايتها سعادة الأفراد والجماعات وذلك بمالها من خصائص تكفل لها قوة

الباعث، وسرعة الاستجابة، ويقظة الرقابة، ونبل الغايـة، وعمـق الثبات، ومؤازرة الضمير الحي، والعقل السليم، والصلاحية الكاملة للنهوض بالأمة.

(٣) وتجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول- صلى الله عليه وسلم- أنه برسالته الخالدة، وبأدبه الإلهي، وبأخلاقه القرآنية- الإنسان الكامل، والمثل الأعلى، ومالك الفضائل المتآزرة في أعلى صورها في سلمه وحربه، وفي بيته وبين صحبه، وفي رضاه وغضبه، وفي سره وجهره، وفي وحدته واجتماعه، ومع أعدائه وأتباعه، ومع الاقوياء والضعفاء، ومع الأحرار والأرقاء، ومع الرجال والنساء وفي كل شأن من شئونه جل أو صغر.

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن به عـلى نبي من أنبيائه، فقال: «وإنك لعلى خلق عظيم»، إذ كان أمة وحده، اجتمع فيه ما تفرق في الرسل من قبله: شكر أنعم الله الذي وصف به إبراهيم «شاكرا لأنعمه» والإخلاص الذي وصف به موسى «كان مخلصا» وصدق الوعد الذي وصف به إسماعيل «كان صادق الوعد» ووصفه بقوله: «لقد

جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ».

وأقسم بحياته، إذ لم يقسم بحياة نبي آخر، فقال: « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ».

(٤) ولقد ربى النبي على هذه الأخلاق العليا صحابته، فأشربتها قلوبهم، فاستحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينصرون دين الله. ثم ربى الصحابة جيلا بعدهم، وسقوه من هذا المنهل الفريد، فنبغ في الأمة من لا يحصيهم العد من الأبطال والقادة والعلماء والمصلحين وحاملي مشاعل الهداية في كل مكان وطئته اقدام المسلمين، وبهذا دانت لهم الأرض، ورحب بهم الخلق، وسعد بحكمهم الناس.

(٥) وكثيرا ما حاول الدارسون استكناه السر الذي نفخ في المسلمين الاولين تلك القوى النفسية والمادية التي مكنتهم في نحو قرن واحد ان ينتقلوا من قلة متبدية مستضعفة إلى كثرة متحضرة مرهوبة، فقوضوا ملك الفرس والروم، وانتشروا في بقاع الأرض هداة ومعلمين ودعاة إلى الحق والخير

والحرية، وسادة يحكمون الناس، ويقضون في شئونهم بالقسطاس.

ولا شك أن هذه القوة وليدة العقيدة، وما تحمله العقيدة من تقوى وأخلاق، فقد كان المسلمون شجعانا أسخياء بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وفي نصرة الحق، وفي حماية العقيدة، وفي فداء الوطن، وكانوا كرماء بأموالهم يجود بها أغنياؤهم على فقرائهم، وكانوا عدولا في أحكامهم، أعفاء في أفعالهم وأقوالهم، حفاظا على أماناتهم، وكانوا صبرا على المكاره، عافين عند المقدرة، زهادا في متاع الدنيا ومظاهر الجاه، سواسية كأسنان المشط، رحماء بالضعفاء، كانوا أتقياء فيما يأتون، وفيما يدعون، اتخذوا من رسول الله أسوتهم في كل فضيلة، إذ كان قمة البشرية الكاملة، فكانوا هم ذروة الأمم المعاصرة الماثلة، وبهذا كله سادوا العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وثقافةٍ وحضارة.

فلما غشيت أبصارهم وضعفت رؤيتهم- خفت صوت التقوى، ووهنت الأخلاق، وعمت الفرقة، فصار الجمع الموحد أوزاعا، وانقسمت الأمة الواحدة

أشياعا، فارتد المسلمون السادة أتباعا.

(٦) هذه بطولة المسلمين الأولين، وهذا عزهم بأخلاقهم الإسلامية فهل عقمت النساء أن يلدن في هذا العصر آلافا من أمثال أولئك الأبطال؟.

لا! لم تعقم النساء، ولكن الأخلاق الاسلامية في حاجة إلى بعث وإحياء، والشباب في حاجة إلى تربية إسلامية صحيحة تغرس في نفوسهم العزة، وتبعد عنهم الذل.

وإذا ما أفاقت الأمة اليوم من خدرها، وجعلت تشق طريقها إلى استعادة مجدها، واستشراف مصيرها- فلتعلم علم اليقين أنه لا سبيل لها إلا دينها، ولا علاج لأمراضها إلا تقواها، وليس لها من سلاح أقوى من مكارم الأخلاق.

وإن لها في رسول الله- صلى الله عليه وسلم- الأسوة المثلى، والقدوة العظمى، والضوء الهادي إلى سواء السبيل.

وغاية ما أرجو أن أكون قد وفقت لما قصدت إليه من هذا البحث- أن أكون قد مهدت به السبيل إلى مباحث في موضوعه أكثر استفاضة وعمقا.

ولقد بذلت من الجهد في ذلك ما وسعته طاقتي، وما يسره الله- تعالى- لي: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

فهرس